



اللجنة التربوية  
تطبيقاً لحكام الشريعة الإسلامية



اللجنة التربوية

# المفاهيم التربوية

## في أسر الأنبياء

عليهم السلام

الجزء الرابع

أسرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

المفاهيم التربوية  
في  
أسرة سيدنا محمد  
عليه الصلاة والسلام

الجزء الرابع

شعبان ١٤٣٢ هـ  
يوليو ٢٠١١ م

## فهرسة مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

٢١٠،٩٠١ اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية

المفاهيم التربوية في أسرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام "الجزء الرابع" / اللجنة الاستشارية .- ط١  
- الكويت: اللجنة ٢٠١١

ج ٤ (٤٠٣ ص): ٢٤X١٧ سم

١- بيت النبوة في سور القرآن. ٢- الآيات المنزلة في الصحابة ومعاملاتهم.

٣- قصص مختلفة عن الصحابة. ٤- زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم

٥- المفاهيم التربوية المستمدة من القصص .. أ. العنوان.

أ- اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية. الكويت (ناشر).

رقم الإيداع: Depository Number: 2011/143

ردمك: ISBN: 978 - 99906 - 966 - 7 - 7

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م





**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
١٣	محتويات الجزء الثالث .....
٢٠	محتويات الجزء الثاني .....
٢٦	محتويات الجزء الأول .....
٢٩	شكر وتقدير .....
٣١	مقدمة .....
٣٥	<b>الباب الأول : بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب .....</b>
	<b>الفصل الأول : أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم</b>
٣٧	وقرأته في سورة الأحزاب .....
	<b>المبحث الأول : زوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات</b>
٣٩	المؤمنين .....
	<b>المبحث الثاني : تخبير نساء النبي صلى الله عليه وسلم بين</b>
٤٣	الدنيا والآخرة .....
٤٩	<b>المبحث الثالث : خصائص زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم</b>
	<b>الفصل الثاني : قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله</b>
٥٩	<b>عنهما .....</b>
٦٣	<b>المبحث الأول : أسباب نزول هذه الآيات الكريمة .....</b>
	<b>المبحث الثاني : أقوال العلماء في المراد من قوله تعالى :</b>
٦٧	<b>﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ .....</b>
٧٥	<b>المبحث الثالث : خلاصة ما تضمنته قصة زينب رضي الله عنها</b>
	<b>الفصل الثالث : المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة</b>
	<b>زواج السيدة زينب رضي الله عنها من زيد بن</b>
٧٩	<b>حارثة ثم طلاقها .....</b>
٨١	<b>المفهوم الأول : إذا حكم الله بشيء فليس لأحد مخالفته .....</b>
٨٥	<b>المفهوم الثاني : المسلم الصادق عليه الالتزام بأمر الله ونهيه .....</b>
	<b>المفهوم الثالث : ضياع وضلال من يعصي الله عز وجل ويعصي</b>
٨٧	<b>رسوله .....</b>

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسرار الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
٨٨	المفهوم الرابع : ينبغي على الأنبياء والمصلحين إظهار الحق وعدم الحرج في إبطال المنكرات وتغيير سيء العادات.....
٩٢	المفهوم الخامس : حب النبي صلى الله عليه وسلم واتباعه يقودان إلى أعظم النعم وأشرف المراتب. ....
٩٤	المفهوم السادس : الرفق بالزوجة له أثر كبير في إصلاح البيوت واستقرارها .....
٩٤	المفهوم السابع : أمر الله تعالى لا مفر منه وهو واقع لا محالة..
٩٥	المفهوم الثامن: ليس على النبي ﷺ أي حرج في شيء هو من أمر الله عز وجل .....
٩٩	الفصل الرابع : قصة زواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش .....
١٠٣	المبحث الأول : الحكمة من هذا الزواج .....
١٠٧	المبحث الثاني : التيسير على الرسول صلى الله عليه وسلم في الزواج .....
١١٧	المبحث الثالث : فريضة الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وسلم وآداب الولاثم .....
١٢٣	المبحث الرابع : عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين.....
١٢٧	المبحث الخامس : فريضة الحجاب على النساء المسلمات .....
١٣١	الفصل الخامس : المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب .....
١٣٣	المفهوم الأول : تقديم ولاية النبي صلى الله عليه وسلم على قرابة الدم .....
١٣٧	المفهوم الثاني : الصلات بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين صلات دين وعقيدة .....
١٣٧	المفهوم الثالث : إزالة الآية أحكاما كانت في صدر الإسلام .....

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
١٣٨	المفهوم الرابع : زوجات النبي صلى الله عليه وسلم لهن مقام الأمهات في التوقير والإكرام .....
١٤٢	المفهوم الخامس : الحفاظ على الأنساب ونسبة المتبنى ومن في حكمه إلى آبائهم .....
١٤٥	المفهوم السادس : الحض على الإحسان إلى الأولياء .....
١٤٦	المفهوم السابع : النبي صلى الله عليه وسلم وزوجاته من بعده - هم المثل الأعلى للدعاة في تقديم ما عند الله تعالى على رغائب الدنيا .....
١٥٤	المفهوم الثامن : تصرفات أمهات المؤمنين في بيت النبوة لا يذهب عنه جلال النبوة ولا يخدش فيه آداب الرسالة ....
١٥٥	المفهوم التاسع : إعظام حرمة النبي صلى الله عليه وسلم والنهي عن إيذائه وإيذاء أهل بيته وأصحابه .....
١٦١	المفهوم العاشر : الرغبة في الدار الآخرة لا يعني أن نترك عمارة الدنيا لغيرنا .....
١٦٦	المفهوم الحادي عشر : ترك حرية الاختيار لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فيه إعلاء لشأنهن وإظهار ملكتهن .....
١٦٩	المفهوم الثاني عشر : معالجة الأخلاق وسلوك النساء من أعظم القضايا وأخطرها .....
١٧٠	المفهوم الثالث عشر : فضل أمهات المؤمنين على غيرهن من النساء .....
١٧٤	المفهوم الرابع عشر : المنهج السلوكي الذي رسمه الله عز وجل لأمهات المؤمنين ليكن قدوة لغيرهن .....
١٨٦	المفهوم الخامس عشر : المسلم مأمور بتأدية الأعمال الصالحة التي تعود بالنفع والصلاح على الناس جميعا .....



**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
١٩٢	المفهوم السادس عشر : قرار المرأة في البيت سكن للزوج وتنشئة للأجيال الصالحة .....
١٩٨	المفهوم السابع عشر : المحافظة على الصلاة والزكاة تربية لنفس وتدريب لها على التركيز والوعي والتضحية
٢٠١	المفهوم الثامن عشر : تكريم الله تعالى لأهل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم .....
٢١٦	المفهوم التاسع عشر : تذكير أمهات المؤمنين بما يتلى في بيوتهن وهو تذكير أيضا للأمة جميعا بذلك .....
٢١٧	المفهوم العشرون : نسبة البيوت إلى النساء فيه حث على العناية بها .....
٢١٨	المفهوم الحادي والعشرون : الرفعة يوصل إليها بضدها .....
٢٢٠	المفهوم الثاني والعشرون : خطاب أمهات المؤمنين يمتد إلى خطاب نساء الأرض جميعا .....
٢٢٥	المفهوم الثالث والعشرون : نفى الله عز وجل أبوة النبي صلى الله عليه وسلم وأثبت له ما هو أشرف له وأرفق بالمؤمنين .....
٢٢٧	المفهوم الرابع والعشرون : من خصوصيات الرسول صلى الله عليه وسلم ترك الحرية له في القسم بين نسائه ولكنه كان يعدل بينهن فأتمته أولى بذلك .....
٢٣١	المفهوم الخامس والعشرون : الوعيد لمن لا يرضى بتصرف الرسول صلى الله عليه .....
٢٣٢	المفهوم السادس والعشرون : جواز نظر الرجل إلى من يريد الزواج منها .....
٢٣٣	المفهوم السابع والعشرون : النهي عن دخول البيوت بغير إذن .....
٢٣٥	المفهوم الثامن والعشرون : من آداب الدعوة إلى الولايم الالتزام بالمواعيد المحددة .....
٢٣٧	المفهوم التاسع والعشرون : الحجاب أظهر للقلوب وأبعد عن الشبهات .....

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
٢٤١	الباب الثاني : بيت النبوة في ضوء سورة النور .....
٢٤٢	تمهيد : .....
٢٤٢	بين يدي حادثة الإفك .....
٢٤٤	الإفك لغة واصطلاحا .....
	<b>الفصل الأول : قصة الإفك كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية .....</b>
٢٤٧	المبحث الأول: تفسير آيات الإفك .....
٢٦٢	المبحث الثاني : براءة السيدة عائشة رضي الله عنها ولعن من رماها بالإفك .....
٢٧٥	المفهوم الأول: المحن والابتلاءات سنة الله في الحياة وفيها الصلاح في الدنيا والأجر في الآخرة .....
٢٨١	المفهوم الثاني المفاهيم التربوية المستفادة من حادثة الإفك .....
٢٩٥	المفهوم الثاني : لا يطمئن المؤمن لمكانته مهما كانت درجته .....
٢٩٦	المفهوم الثالث : الحكمة من تأخر الوحي في تجلية الحقيقة وتبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها .....
٢٩٦	المفهوم الرابع : المحنة إن علمتك شيئاً جديداً أصبحت نعمة ..
٢٩٨	المفهوم الخامس : عسى أن يكره الإنسان شيئاً وفيه الخير الكثير .....
٣٠٠	المفهوم السادس : إن أساس الروابط الاجتماعية في المجتمع : الظن الحسن بين الناس .....
٣٠٢	المفهوم السابع : ينبغي لمن ابتلي بتهمة في عرضه أن يتحلى بالثبات والتأني في معالجة ما أصيب به .....
٣٠٥	المفهوم الثامن : العرب أهل كرم ونجدة في الجاهلية والإسلام ..
٣٠٧	المفهوم التاسع : ينبغي للمؤمنين التزام الدقة في الأخبار قبل نقلها وإشاعتها .....
٣٠٩	المفهوم العاشر : معاملة الله عز وجل عباده بفضله ورحمته وإن أخطئوا .....
٣١٢	أخطئوا .....

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
٣١٦	المفهوم الحادي عشر : حادثة الإفك تعطينا دروسا في كيفية مواجهة الإشاعات وتطويقها .....
٣١٦	المفهوم الثاني عشر : الجرائم في حق المجتمع لا يسمح بتكرارها .....
٣١٩	المفهوم الثالث عشر: إشاعة الفاحشة بين المؤمنين يترتب عليها أخطار اجتماعية فادحة .....
٣٢٦	المفهوم الرابع عشر : وسائل إشاعة الفاحشة متنوعة فعلى المؤمن أن يكون حذرا منها .....
٣٢٧	المفهوم الخامس عشر : التدرج في الإغواء منح الشيطان للوصول إلى ما يريد .....
٣٢٩	المفهوم السادس عشر : العفو والصفح من أنبل أخلاق المؤمن وبخاصة مع أولي القربى والمساكين .....
٣٣٣	المفهوم السابع عشر : الجزء من جنس العمل .....
٣٣٤	المفهوم الثامن عشر: المؤمن وصول لأرحامه وإن أساءوا إليه ....
٣٣٦	المفهوم التاسع عشر : قذف المؤمنات المحصنات الغافلات من أعظم الكبائر .....
٣٣٩	المفهوم العشرون : انجذاب الشيء لشبيهه فالطيب لا يميل إلا للطيبة والخبيث لا يميل إلا للخبيثة .....
٣٤٠	المفهوم الحادي والعشرون : حكم رمي السيدة عائشة أو إحدى أمهات المؤمنين بالإفك .....
٣٤٦	المفهوم الثاني والعشرون: القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن .....
٣٤٩	المفهوم الثالث والعشرون : جواز خروج النساء في الغزو والقيام بما ناسبهن من أعمال .....
٣٥١	المفهوم الرابع والعشرون : استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة حتى في أحلك الظروف .....
٣٥٥	المفهوم الخامس والعشرون : إذا ظننت فلا تتحقق .....

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
٣٥٦	المفهوم السادس والعشرون : من آداب الإسلام تقديم الكبار وتفويضهم بالكلام .....
٣٥٧	المفهوم السابع والعشرون : استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور .....
٣٦٤	المفهوم الثامن والعشرون : استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة أو اندفعت عنه بلية ظاهرة .....
٣٦٧	<b>الباب الثالث : بيت النبوة في ضوء سورة التحريم</b> .....
٣٦٩	الفصل الأول : الآيات الواردة في سورة التحريم وتفسيرها .....
٣٧٧	الفصل الثاني : المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من آيات سورة التحريم .....
٣٧٩	المفهوم الأول : لا ينبغي لأحد أن يحرم على نفسه ما أحل الله له .....
٣٨٠	المفهوم الثاني : حنكة الرسول صلى الله عليه وسلم في معالجة المشكلات الزوجية .....
٣٨١	المفهوم الثالث : للنبي صلى الله عليه وسلم ولبقية المسلمين السعة في التحلل مما التزموا بتحريمه على أنفسهم .....
٣٨٢	المفهوم الرابع : أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجته .....
٣٨٣	المفهوم الخامس : جواز إطلاع المقربين على بعض الأسرار شريطة حفاظهم عليها .....
٣٨٣	المفهوم السادس : أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة .....
٣٨٤	المفهوم السابع : إذا حدث من أحد الزوجين ما يسوء الآخر فعلى الطرف المسيء الإسراع في الاعتذار عما بدر منه .....
٣٨٥	المفهوم الثامن : إعظام شأن نصرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .....

**فهرس الجزء الرابع**  
**كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء**

الصفحة	الموضوع
٣٨٦	المفهوم التاسع : المثل الأعلى في أوصاف الزوجات الصالحات .. المفهوم العاشر : عمق الحادث وأثره على الرسول صلى الله
٣٨٧	عليه وسلم .....
٣٩٠	ثبت المراجع .....

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

محتويات الجزء الثاني

محتويات الجزء الأول

شكر وتقدير

تفعيل القيم المستفادة من كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام في الميدان التربوي (الجزء الأول)

تفعيل القيم المستفادة من كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام في الميدان التربوي (الجزء الثاني)

تفعيل القيم المستفادة من كتاب المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام في الميدان التربوي (الجزء الثالث)

### الباب التاسع : سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما السلام

تمهيد

المبحث الأول : طلب سيدنا زكريا عليه السلام الولد من الله سبحانه

تذلل سيدنا زكريا وشكواه في طلب الولد

الهدف من طلب الولد

المبحث الثاني : البشارة بسيدنا يحيى عليه السلام وبصفاته

صفات سيدنا يحيى عليه السلام التي بشر الله عز وجل بها والده:

١- أنه سيكون مؤمناً كما يريد أبوه

٢- ومصداقاً

٣- وسيكون عليه السلام سيدياً

٤- وحصوراً

٥- ونبياً من الصالحين

موقف سيدنا زكريا عليه السلام من البشارة

آية تدل على تحقق البشرى لسيدنا زكريا عليه السلام

المبحث الثالث: ولادة سيدنا يحيى عليه السلام ونعم الله عليه

نعم الله عز وجل على سيدنا يحيى عليه السلام

١- أعطاه الله الحكم صبياً

٢- والحنان

٣- وآتاه الله زكاة

٤- وكان تقياً

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

٥- وبراً بوالديه

٦- ولم يكن جباراً عصياً

المبحث الرابع: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما السلام  
المفهوم الأول: حب الذرية فطرة بشرية لكن المؤمن يدعو الله أن تكون صالحة  
المفهوم الثاني: الأنبياء عليهم السلام قدوتنا في التحلي بأداب الدعاء  
المفهوم الثالث: لا طريق لليأس إلى قلب المؤمن  
المفهوم الرابع: في كل جراحة من الجوارح عبودية مؤقتة، والذكر عبودية القلب واللسان في كل حال

### الباب العاشر: سيدنا عيسى عليه السلام وأمه السيدة مريم

تمهيد

المبحث الأول: حمل السيدة مريم بسيدنا عيسى عليه السلام وولادتها له  
موقف قومها من هذا الوليد  
نبوة سيدنا عيسى عليه السلام  
خوارق العادات في حمل السيدة مريم بسيدنا عيسى عليه السلام وفي كلامه

المبحث الثاني: ما بشرت به السيدة مريم عن خصوصيات سيدنا عيسى عليه السلام  
أولاً: أنه بكلمة من الله

ثانياً: اسمه المسيح عيسى بن مريم

ثالثاً: وجيهاً في الدنيا

رابعاً: وهو وجيه في الآخرة

خامساً: ومن المقربين

سادساً: ويكلم الناس في المهد وكهلاً

سابعاً: ومن الصالحين

ثامناً: ويعلمه الكتاب والحكمة

تاسعاً: ورسولاً إلى بني إسرائيل

المبحث الثالث: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا عيسى عليه السلام وأمه

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

المفهوم الأول: التوحيد والإخلاص هما الصورة المثلى للتحرر من العبودية لغير الله  
المفهوم الثاني: على الآباء أن يختاروا لأبنائهم الأسماء الحسنة التي تدعو إلى التناؤل  
المفهوم الثالث: على الآباء أن يلجأوا إلى الله لدفع شر الشيطان عن أبنائهم ويعوذهم  
بالمعوذات الشرعية  
المفهوم الرابع: العناية بالأطفال منذ الصغر تكون باختيار المربين الصالحين والقرناء  
الطاهرين  
المفهوم الخامس: السيدة مريم رضوان الله عليها النموذج والقودة للنساء العابدات  
الطاهرات  
المفهوم السادس: إن البيوت إذا تسلسل فيها الصلاح أحاطها الله بعنايته وخصها  
بإكرامه  
المفهوم السابع: من انقطع إلى الله كفاه، ومن أخذ بالأسباب المشروعة يسرها له الله

### الباب الحادي عشر: لقمان الحكيم

تمهيد

هل كان لقمان نبياً؟

حكمة لقمان

المبحث الأول: مواظب لقمان الحكيم لابنه

الموعظة الأولى: الأمر بالتوحيد والنهي عن الشرك

الموعظة الثانية: علم الله المحيط بدقائق الأمور

الموعظة الثالثة: الأمر بإقامة الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الموعظة الرابعة: الأمر بالتواضع ولين الجانب مع الناس

الموعظة الخامسة: مراعاة الأدب في المشي والحديث

المبحث الثاني: التربية بالموعظة الحسنة وأهميتها وأساليبها

كلمة حول التربية بالموعظة

أساليب التربية بالموعظة

١- النداء الإقناعي

٢- الأسلوب القصصي المصحوب بالعبارة والموعظة

٣- انتهاج أسلوب الحوار والاستجواب

٤- بدء الموعظة بالقسم بالله تعالى

٥- دمج الموعظة بالمداخبة



## محتويات الجزء الثالث

الموضوع
٦- الاقتصاد بالموعظة مخافة السامة
٧- أن يخلص الواعظ نيته
٨- الموعظة بضرب المثل
٩- الموعظة بالتمثيل باليد
١٠- الموعظة بالرسم والإيضاح
١١- الموعظة بالفعل التطبيقي
١٢- الموعظة بانتهاز المناسبات
١٣- الموعظة بالالتفات إلى الأهم
١٤- الموعظة بإظهار المحرم الذي ينهى عنه
المبحث الثالث: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة لقمان الحكيم
المفهوم الأول: المؤمن مكلف بهداية أهله وإصلاح بيته، كما هو مكلف بهداية نفسه وإصلاح قلبه
المفهوم الثاني: أول ما يجب على الآباء بناء العقيدة الصحيحة في نفوس أبنائهم
المفهوم الثالث: التخلية قبل التحلية
المفهوم الرابع: الشرك ظلم عظيم، والمشرك ظالم لنفسه، ظالم للمخلوقات، ظالم لحقوق الخالق
المفهوم الخامس: قيام الآباء بواجباتهم نحو الأبناء فطرة وجبلة، وبر الأبناء للآباء يحتاج إلى مجاهدة وتذكير دائم بالجميل
المفهوم السادس: الوصية بالأم تقتضي الوصية بالأب، وخصت بالذكر لما تعانيه في الحمل والولادة من وهن وآلام
المفهوم السابع: ينبغي على الأم أن تراعي حق طفلها في الرضاعة الطبيعية وهي عامان
المفهوم الثامن: تعظيماً لحق الأبوين قرن الله شكرهما بشكره
المفهوم التاسع: وشيجة العقيدة مقدمة على رابطة الأبوة، والإحسان للوالدين لا يسقط بحال
المفهوم العاشر: ينبغي ترويض الأبناء على مراقبة الله وخشيته في كل شؤون حياتهم، والإخلاص له في كل أعمالهم
المفهوم الحادي عشر: تعميق الشعور الإيماني لدى الأبناء بالتأكيد على أن علم الله وقدرته يحيطان بجميع المعلومات والممكنات
المفهوم الثاني عشر: الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل
المفهوم الثالث عشر: الصلاة ركن في كل الديانات الصحيحة، فعلى الآباء أن يكونوا قدوة في المحافظة عليها، وينشئوا الأبناء على إقامتها ومتابعتها حتى يرشدوا

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

المفهوم الرابع عشر: تنشئة الأبناء على حب الخير وفعله والاهتمام بإصلاح المجتمع  
المفهوم الخامس عشر: تبليغ الدعوة وتبصير الناس بمنهج الإصلاح يحتاج إلى صبر  
وعزيمة

المفهوم السادس عشر: الابتلاء صنو الدعوات قديماً وحديثاً  
المفهوم السابع عشر: الدعوة إلى الخير لا تجيز التناول على الناس والتعالي عليهم  
المفهوم الثامن عشر: اتزان الحركات الخارجية للإنسان له ارتباط وثيق بالاتزان النفسي  
الداخلي

المفهوم التاسع عشر: على المرين أن يلتزموا في تربية أبنائهم منهجاً مدروساً شاملاً  
لأصول الشريعة الإسلامية وآدابها العامة والخاصة

### الباب الثاني عشر: قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام

تمهيد

المبحث الأول: ورود القصة في القرآن الكريم

المشهد الأول: عزم سيدنا موسى عليه السلام على السفر إلى العبد

الصالح الذي أخبره الله عن علمه

المشهد الثاني: التحلي بالأدب مع العلماء

المشهد الثالث: اعتراض سيدنا موسى عليه السلام وإنكاره على الخضر

بعض تصرفاته

المشهد الرابع: البون الشاسع بين علم الله المحيط وفهم الإنسان القاصر

المبحث الثاني: ورود القصة في السنة النبوية

المبحث الثالث: سيدنا موسى بن عمران عليه السلام هو صاحب الخضر، ورد شبهة من

قال بخلاف ذلك

دوافع إنكار المنكرين مصاحبة موسى بن عمران عليه السلام للخضر

المبحث الرابع: فتى سيدنا موسى عليه السلام (يوشع بن نون)

المبحث الخامس: الخضر عليه السلام

سبب تسميته بالخضر

هل كان الخضر نبياً أو ولياً

أدلة القائلين بنبوة الخضر عليه السلام

القول الراجح في هذه المسألة

تحرير المسألة في حياة الخضر أو موته

أدلة القائلين بحياته

أدلة القائلين بموته

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

المبحث السادس: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا موسى والخضر عليهما السلام

المفهوم الأول: على العالم - ومن في حكمه - لزوم التواضع وعدم الاعتزاز بعلمه، لأن فوق كل ذي علم عليم

المفهوم الثاني: العلم سبب ممدود إلى السماء وممتد إلى ما لا نهاية له فكلما ازداد العبد منه رقى وبلغ الرتب

المفهوم الثالث: سيدنا موسى عليه السلام أول من سن الرحلة في طلب العلم

النموذج الأول: رحلة الحافظ أبي القاسم بن عساكر رحمه الله

النموذج الثاني: رحلة المقرئ المغربي أبي القاسم الهذلي رحمه الله

المفهوم الرابع: الأخذ بالأسباب وإتقانها مع التوكل على الله سبحانه سبيل النجاح في الأمور المهمات والوصول إلى تحقيق الغايات

المفهوم الخامس: حسن معاملة الخدم والترفق بهم يشيع المحبة بينهم وبين مخدموهم ويدعوهم لزيادة البذل والتضحية

المفهوم السادس: اتخاذ الصاحب في السفر يخفف من عنائه ويعين على ما قد يحدث فيه من نوازل

المفهوم السابع: العلم إن لم يقترن بالرحمة قد ينقلب إلى شر ودمار

المفهوم الثامن: جواز الإخبار عن التعب والألم ونحو ذلك، إذا لم يكن صادراً عن ضجر أو سخط

المفهوم التاسع: الأدب في طلب العلم والتواضع للأستاذ من أبهى الصفات التي ينبغي أن يتحلّى بها المتعلم ليبارك له في علمه

المفهوم العاشر: ينبغي على طالب العلم أن يصحح النية والهدف فيبتغي العلم الذي يهدي إلى الرشد والخير

المفهوم الحادي عشر: ينبغي على المتعلم إذا وثق من تمكن أستاذه وتبحره في العلم أن يلزم الصبر ولا يكثر الاعتراض والجدل لئلا يفسد العلاقة بينهما

المفهوم الثاني عشر: من صفات النفس البشرية أنها جبلت على حب الاستطلاع فعلى المسلم الاستفادة من ذلك في الأمور النافعة والبعيد عما لا يعني

المفهوم الثالث عشر: الاستعانة بالله في جميع الأعمال، ورد المشيئة إليه دائماً

المفهوم الرابع عشر: المسلم مجبول على عمل الخير فإذا رأى مجالاً للعمل الخيري بادر إليه ولا ينتظر إذناً أو مكافأة

المفهوم الخامس عشر: الصبر أعظم وسيلة لبلوغ الرتب العالية والمنازل السامية، وفقده يفوت الخير الكثير

## محتويات الجزء الثالث

### الموضوع

المفهوم السادس عشر: على المسلم أن يبعد نفسه عن مواطن التهم، وإن وقع منه ما يوهم ذلك فعليه أن يبينه

المفهوم السابع عشر: المسلم مدعو لرفع الظلم ومساندة المظلومين بالحكمة، والوسائل في ذلك كثيرة ومتاحة

المفهوم الثامن عشر: الفطر السليمة في كل عصر تهفو إلى الكسب الشريف، وتأبى التسول والاستجداء

المفهوم التاسع عشر: ينبغي مراعاة الأدب مع الله تعالى فننسب له كل الخير ونثني عليه، وننزّهه عن نسبة الشر إليه

المفهوم العشرون: إن الله يحفظ العبد الصالح في نفسه وفي ولده

المفهوم الحادي والعشرون: ينبغي على المرء أن لا يتعجل بإنكار ما لم يستحسنه، فلعله فيه سرًا لا يعرفه أو ربما تعرض لمثله ففعله

المفهوم الثاني والعشرون: على المسلم أن يوقن أنه إذا استسلم لله وانقاد إليه أنه مرحوم في كل ما يصيبه من قدر الله تعالى

المفهوم الثالث والعشرون: المؤمن عميق النظرة صادق التحليل صائب التقويم

المفهوم الرابع والعشرون: غرس المفاهيم التربوية عن طريق العمل أبلغ من إلقائها عن طريق القول

ثبت المراجع

## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

فهرس الجزء الثاني

فهرس الجزء الأول

مقدمة

### الباب الخامس: سيدنا يعقوب عليه السلام وأسرته

المبحث الأول: منزلة سيدنا يوسف عليه السلام عند والده ورؤياه وحسد إخوته إياه

رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام وعرضها على والده

حسد إخوة يوسف عليه السلام وكيدهم له

المبحث الثاني: محن ومنح ألت بسيدنا يوسف عليه السلام بعد إلقائه في الجب

الموقف الأول: إلتقاطه من الجب

الموقف الثاني: مراودة امرأة العزيز ليوسف عليه السلام

الموقف الثالث: سجن سيدنا يوسف عليه السلام

المبحث الثالث: تعرف سيدنا يوسف عليه السلام على إخوته واجتماع شمل الأسرة

طلب الإخوة من أبيهم اصطحاب بنيامين إلى مصر

وصية سيدنا يعقوب عليه السلام أولاده أن يدخلوا مصر متفرقين

لقاء بنيامين بسيدنا يوسف عليه السلام ورغبته في استبقائه

تنصل إخوة يوسف عليه السلام من المسؤولية

توسلاتهم ليوسف كي يفرج عن أخيهم

جواب سيدنا يعقوب عليه السلام على مقالة أولاده

تولي سيدنا يعقوب عليه السلام عن أولاده وخوفهم عليه

سيدنا يوسف عليه السلام يكشف عن شخصيته لإخوته

إكرام سيدنا يوسف عليه السلام إخوته وإرسال البشارة لأبيه

انتهاء محنة يعقوب، وتحقق رؤيا يوسف عليهما السلام

المبحث الرابع: وصية سيدنا يعقوب عليه السلام لبنيه

وصية سيدنا يعقوب عليه السلام لأبنائه عند وفاته

المبحث الخامس: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا يعقوب عليه

السلام وأسرته

المفهوم الأول: الرؤيا استشفاف للمستقبل، وتختلف باختلاف الرائي

المفهوم الثاني: الرؤيا الصالحة بشارة فلا تقص إلا على المحبين

المفهوم الثالث: الرجوع إلى الآباء قبل غيرهم في الأمور المهمة

المفهوم الرابع: على الوالدين مراعاة الحالات النفسية للأولاد

## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

المفهوم الخامس: وقوع الحسد بين الأقارب أقرب وأثره أشد  
المفهوم السادس: العدل بين الأولاد يذهب الغيرة من نفوسهم  
المفهوم السابع: الكذب على الأبوين جريمة وعقوق  
المفهوم الثامن: الحقد والحسد بين الإخوة يورث الكيد وقطيعة الرحم  
المفهوم التاسع: على المربي أن يكون فطناً فلا يسارع في تصديق من تظاهر بالبكاء أو  
التظلم  
المفهوم العاشر: مشروعية السباق والترويح عن النفس للصغار والكبار  
المفهوم الحادي عشر: على الآباء والمربين الاستفادة من قصة سيدنا يوسف عليه  
السلام في تنشئة الأجيال على العفة والطهارة  
المفهوم الثاني عشر: سيدنا يوسف عليه السلام قدوة لرواد الإصلاح الاجتماعي  
المفهوم الثالث عشر: أصحاب النفوس الطاهرة لا يرضون بديلاً عن كرامتهم وسلامة  
شرفهم  
المفهوم الرابع عشر: يجوز للمسلم أن يذكر كفاءته، وأن يطلب الولاية إذا كان في ذلك  
تحقيق لمصلحة شرعية، ولم ينازع من هو أكفأ منه  
المفهوم الخامس عشر: تمكين ذوي الكفاءات المخلصة فيه ازدهار للبلاد وأمان من  
المهالك  
المفهوم السادس عشر: التخطيط الجيد أصل لكل عمل ناجح  
المفهوم السابع عشر: العفو والتسامح يوطد الحب بين أفراد الأسرة  
المفهوم الثامن عشر: سوء الظن عند وجود القرائن مبرر  
المفهوم التاسع عشر: الحيطة والحذر قبل وقوع المصائب تعطي النفس قوة وعزاء عند  
وقوعه  
المفهوم العشرون: الحكمة والرزانة في التصرف مع الأبناء خير سبيل لتقويم اعوجاجهم  
المفهوم الحادي والعشرون: صدق الإيمان بالله وقوة اليقين به تنشئ في القلب ثباتاً  
وإحساناً قد لا يخيب  
المفهوم الثاني والعشرون: قوة ارتباط الآباء بالأبناء والحزن لما يصيبهم أمر فطري إذا  
لم يصحبه ما يسخط الله  
المفهوم الثالث والعشرون: المسلم يلزم نفسه الأدب مع الله ومع نفسه ومع الآخرين  
المفهوم الرابع والعشرون: الالتزام بالشرع في الخلوة أمان وصور للبيوت  
المفهوم الخامس والعشرون: سلامة العقيدة والمنهج هي الأولى في رسالة الآباء والمربين  
وقفة في ختام قصة سيدنا يوسف عليه السلام

## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

#### الباب السادس: سيدنا أيوب عليه السلام وأسرته

تمهيد

المبحث الأول: ابتلاء الله عز وجل سيدنا أيوب عليه السلام

موقف الناس منه

موقف زوجته منه

دعاؤه أن يكشف الله عنه الضر

استجابة الله دعاءه

يمين أيوب عليه السلام ولطفه الله به

هل يسלט الشيطان على الأنبياء والرسل عليهم السلام؟

المبحث الثاني: قصة سيدنا أيوب عليه السلام والاسرائيليات التي لحقت بها

المبحث الثالث: المفاهيم الأسرية والتربوية المستفادة من قصة سيدنا أيوب عليه السلام

المفهوم الأول: الابتلاء اختبار يظهر الله به فضل عباده، ولا يعني ذلك هوانهم عليه

المفهوم الثاني: في الابتلاء حكم بالغة ينبغي التنبه لها

المفهوم الثالث: المؤمن يصبر على البلاء، ويلجأ إلى الله في كشفه ويجتهد في دفع آثاره

المفهوم الرابع: تذلل المبتلى إلى الله تعالى وسؤاله الشفاء منه لا ينافي الصبر

المفهوم الخامس: العلاقة الزوجية المبنية على المودة والصلاح لا تقسدها الشدائد

والمحن

#### الباب السابع: سيدنا موسى عليه السلام وأسرته

تمهيد

حالة مصر وقت مولده

المبحث الأول: مولد سيدنا موسى وسيدنا هارون عليهما السلام

هل كان الوحي إلى أم موسى عن طريق الملك أو الإلهام؟

المبحث الثاني: تربية سيدنا موسى عليه السلام في قصر فرعون

حقق الله وعده فأرجع الطفل لأمه

المبحث الثالث: خروج سيدنا موسى عليه السلام إلى مدين

نصرة سيدنا موسى عليه السلام للمظلومين أثارت نقمة فرعون

خروج سيدنا موسى عليه السلام إلى أرض مدين

الرجل الصالح يعرض ابنته على سيدنا موسى عليه السلام ليتزوجها

المبحث الرابع: إرسال سيدنا موسى وهارون عليهما السلام

## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

المبحث الخامس: المفاهيم الأسرية والتربوية المستفادة من قصة سيدنا موسى عليه السلام

المفهوم الأول: سنة الله تعالى في الكون أن العاقبة للحق وأهله

المفهوم الثاني: الله يتخذ من عباده جنوداً للحق فاجتهد أن تكون واحداً منهم

المفهوم الثالث: المؤمن مع الله تعالى ينفذ أمره دون خوف ولا وجل

المفهوم الرابع: للمرأة دور جليل في الحياة وفي نشر الفضائل: نماذج وصور

المفهوم الخامس: شقاء الأسر في الأنظمة الفاسدة، وسعادتها في كنف الإسلام

المفهوم السادس: جبلت الأم على الرحمة والحنان فعلى الأبناء أن يقدروا تلك العواطف فيها

المفهوم السابع: إذا سبقت رحمة الله للعبد فلا خوف من مكر العباد

المفهوم الثامن: من نعم الله عز وجل على عباده أنه جعل الفرج بعد الشدة

المفهوم التاسع: لا أمان ولا أمن للمجتمعات إلا بالبعد عن الظلم والأخذ على يد الظالم

المفهوم العاشر: خروج المسلم من بلده عند الشدة نوع من الهجرة وليس فراراً من الحق

المفهوم الحادي عشر: الأنبياء معدن الصفات الكريمة والأخلاق الفاضلة فعلى المسلم الاقتداء بهم

المفهوم الثاني عشر: جواز خروج المرأة عند الضرورة للعمل مع مراعاة الضوابط والآداب الشرعية

قيود عمل المرأة

المفهوم الثالث عشر: التوسل إلى الله عز وجل بالعمل الصالح

المفهوم الرابع عشر: الحياء أبهى حلة تزدهن بها الفتاة

المفهوم الخامس عشر: ينبغي على المرأة أن تختار من العمل ما يتلاءم مع طبيعتها فقط، وتتأى عن الاحتكاك بالرجال

المفهوم السادس عشر: من حق الفتاة التعبير عن رأيها في شؤونها الخاصة

المفهوم السابع عشر: عرض الرجل ابنته على من يرضى دينه وخلقه للزواج منها لا ينافي الكرامة والحياء



## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

#### الباب الثامن: سيدنا داود وسيدنا سليمان عليهما السلام

تمهيد

المبحث الأول: خصوصيات سيدنا داود عليه السلام

أولاً: تمكنه من قتل طاغية عصره جالوت

ثانياً: قوة الملك والحكمة في سياسة الرعية

ثالثاً: إكرام الله له بإنزال (الزبور عليه)

رابعاً: علمه صنعة الدروع فأغناه بها وانتفع بها الناس

خامساً: رزقه الله تعالى صوتاً حسناً

سادساً: وهبه الله تعالى ذرية صالحة

سابعاً: كان سيدنا داود عليه السلام من العابدين المخبتين

المبحث الثاني: خصوصيات سيدنا سليمان عليه السلام

أولاً: نشأته في بيت الملك

ثانياً: براعته في القضاء

ثالثاً: معرفته لغة الجن والطيور والنمل

رابعاً: تسخير الرياح، والشياطين والطيور له

خامساً: إسالة عين القطر له

سادساً: العدل الشامل

سابعاً: حسن التدبير، وصرامة التسيير لشؤون الملك

ثامناً: ملازمته شكر نعم الله عز وجل عليه

المبحث الثالث: الأمور المشتركة التي أنعم الله عز وجل بها على سيدنا داود وسيدنا

سليمان عليهما السلام

أولاً: إنعام الله عز وجل عليهما بالعلم

ثانياً: حكمهما في قضية الزرع

المبحث الرابع: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا داود وسيدنا

سليمان عليهما السلام

المفهوم الأول: المؤمن يستمد قوته من الله فلا يرهبه جبروت الطغيان

المفهوم الثاني: على الأمة أن تجيد الحرف والصنائع لترتقي في سلم المدنية وتستغني

عن أعدائها

المفهوم الثالث: الولد الصالح من أجل النعم وأنفعها

المفهوم الرابع: التساهل مع المقصر يغريه باستمرار، ويفتح الباب لغيره

## محتويات الجزء الثاني

### الموضوع

المفهوم الخامس: إعطاء المخطئ فرصته لتفسير موقفه  
المفهوم السادس: التريث والتثبت في قبول الأخبار فائدة  
المفهوم السابع: الشكر قيد للنعمة الموجودة وصيد للنعمة المفقودة  
المفهوم الثامن: التحدث بنعم الله والاعتراف بفضل المنعم نوع من الشكر والشاء على  
الله عز وجل  
المفهوم التاسع: الفوز في الآخرة مرهون بالثبات على اليقين مع حسن الخاتمة  
المفهوم العاشر: العلم النافع أنفس ما في الوجود، وبه تدرك الغايات ولا نهاية لحدوده  
الترغيب في طلب العلم  
فضل العلم والعلماء  
شروط العلم النافع  
المفهوم الحادي عشر: على الآباء أن يشجعوا أبناءهم على الإعلان عن آرائهم وقبولها  
إن كانت صحيحة

## محتويات الجزء الأول

الموضوع
الفهرس العام المقدمة المنهج المتبع في هذا الكتاب المنهج المتبع فيما يقال عند ذكر اسم الله تعالى ورسله الكرام
<b>الأول: سيدنا آدم عليه السلام وأسرته</b>
تمهيد
المبحث الأول: سيدنا آدم عليه السلام وزوجته آدم وزوجه في الجنة ابتلاء واختبار إغراء وإغواء سبب أكلهما من الشجرة عاقبة الأكل من الشجرة عتاب وتوبة إخراج آدم وزوجه من الجنة
المبحث الثاني: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة سيدنا آدم عليه السلام المفهوم الأول: تساوي المرأة والرجل في الإنسانية المفهوم الثاني: تربية الإرادة والتحرر من رغائب النفس المفهوم الثالث: ضعف النفس البشرية أمام المغريات عداوة الشيطان للإنسان ومقتضيات هذه العداوة وسائل الشيطان لإضلال الإنسان كيفية الوقاية من الشيطان
المفهوم الرابع: تربية النفس على النفور من الحرام والبعد عن مواطنه المفهوم الخامس: زلة آدم فتحت باب التوبة لأبنائه المفهوم السادس: قوة الارتباط بين الزوجين وتأثير كل منهما بالآخر، وانعكاس ذلك على الأسرة
المفهوم السابع: فهم طبيعة المرأة واحتمال بعض تصرفاتها في التسامح بين الزوجين الخير الكثير
المفهوم الثامن: خطر الإصغاء إلى التداخل الخارجي وأثره في إفساد الحياة الأسرية المفهوم التاسع: إسراع الزوجين في تدارك ما يقع من زلات تجاه الخالق عز وجل

## محتويات الجزء الأول

### الموضوع

- المفهوم العاشر: ستر العورة واتخاذ الزينة فطرة بشرية  
المبحث الثالث: قصة ابني آدم عليه السلام قابيل وهابيل  
تمهيد  
الشیطان يبدأ معركته مع أبناء آدم  
سبب الخلاف بين ابني آدم  
حققت ينتهي بجريمة  
موقف الأخ المؤمن من تهديد أخيه  
موقف الأخ المجرم من وعظ أخيه  
الغراب يعلم القاتل كيفية دفن الميت  
المبحث الرابع: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة ابني آدم  
المفهوم الأول: مشروعية التحكيم  
المفهوم الثاني: التقوى شرط لقبول الأعمال  
المفهوم الثالث: المؤمن يدفع السيئة بالحسنة  
المفهوم الرابع: استفراغ بواعث الشر من قلب المعتدي  
المفهوم الخامس: الجريمة يسبقها عادة صراع نفسي فعلى المصلحين تنمية الجانب الإيماني تفادياً لوقوعها  
المفهوم السادس: الاهتمام بآثار الجريمة ونتائجها أولى من تفاصيلها  
المفهوم السابع: عاقبة الجريمة خسران وندم طويل  
المفهوم الثامن: خطورة الوسواس الشيطانية وكيفية الاحتراز منها  
المفهوم التاسع: الحسد داء عضال كان وراء أول جريمة قتل في الأرض  
تعريف الحسد  
أضرار الحسد  
اعتراض وردة  
النهى عن الحسد  
الوقاية من الحسد  
المفهوم العاشر: المسلم يستفيد العلم ويستثير المعرفة من كل ما يحيط به  
المفهوم الحادي عشر: حكمة الأب وأثرها في توجيه الأسرة  
المفهوم الثاني عشر: الأسرة نموذج مصغر عن المجتمع، فيتوقع من أفرادها النزاع والأثرة

## محتويات الجزء الأول

الموضوع
<b>الباب الثاني: سيدنا نوح عليه السلام وأسرته</b>
تمهيد
المبحث الأول: موقف أهله من دعوته
موقف والدي نوح عليه السلام من دعوته
زوجة نوح عليه السلام وموقفها من الدعوة
ابن نوح وموقفه من دعوة أبيه
مصير ابن نوح عليه السلام
نداء نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه
شبهة وردها
اعتذار سيدنا نوح عليه السلام لربه واستغفاره
المبحث الثاني: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة نوح عليه السلام
المفهوم الأول: المؤمن مبتلى على قدر إيمانه
المفهوم الثاني: الفوز والنجاة بالعمل الصالح لا بالقرابة والنسب
المفهوم الثالث: الوشيجة التي تجمع الناس هي العقيدة الإسلامية
المفهوم الرابع: دعوة الأبناء والأقارب إلى الله والصبر عليهم
المفهوم الخامس: وجوب اختيار الزوجات الصالحات
المفهوم السادس: التلطف في دعوة الأبناء ونصحهم وإظهار الرحمة والرفقة بهم
المفهوم السابع: من بر الوالدين الدعاء لهما بالرحمة والمغفرة

## شكر وتقدير

تتقدم اللجنة التربوية في هذا المقام بالشكر والتقدير إلى اللجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية ممثلة في رئيسها وأعضائها والأمين العام وأمين السر، والجهاز الإداري، والجهاز المالي، وإدارة العلاقات العامة والإعلام، والأستاذ طارق علي عدي الباحث في إدارة البحوث والدراسات، لما بذلوه من جهود طيبة ودعم كبير كان له الأثر الواضح في إخراج وإصدار هذا العمل بأجزائه الأربعة إليك عزيزنا القارئ.

كما نسجل شكرنا لوزارة التربية ممثلة في الأستاذ أحمد سعد المنيفي الموجه العام للتربية الإسلامية والعاملين معه على المبادرة الكريمة بوضع جداول لتفعيل القيم التربوية المستفادة من السلسلة المباركة وجعلها ضمن الخطة الدراسية لكل مرحلة من المراحل الثلاث كي يرتبط هذا الجهد بالأنشطة المصاحبة للمنهج ليظهر أثره في الميدان التربوي.

كما تخص اللجنة التربوية بالشكر أيضا فريق العمل الذي قام بجهود طيبة في سبيل خروج العمل بهذه الصورة، راجين المولى أن يبارك هذه الجهود، وأن تكون خالصة لوجهه الكريم، وأن يكون هذا العمل نافعا للعملية التربوية، وأن يكون إضافة علمية في رصيد المكتبة العربية والإسلامية.

### رئيس اللجنة التربوية

د. عبد المحسن الجار الله الخرافي



بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من بعث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اقتضي هداه إلى يوم الدين.  
أما بعد

فيسر فريق توثيق المفاهيم والمواقف التربوية في تراثنا الإسلامي والفكر التربوي المعاصر<sup>(١)</sup> المنبثق عن اللجنة التربوية، التابعة (للجنة الاستشارية العليا للعمل على استكمال تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية)، أن يقدم للقراء الكرام الجزء الرابع من سلسلة المفاهيم التربوية في أسر الأنبياء عليهم السلام، وقد خُصَّصَ هذا الجزء للحديث عن أسرة سيد المرسلين وخاتم النبيين نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولما كانت حياته الأسرية ﷺ غنية بالمواقف والمفاهيم التربوية التي تحتاج إلى عدة مجلدات، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار ما ورد في السنة النبوية الشريفة والسير الطاهرة من مواقف أسرية كثيرة، فقد رأى الفريق مراعاة لحجم الإصدارات السابقة الاقتصار على هذا الجزء من حياته ﷺ في هذا الإصدار من خلال المصدر الأول للتشريع وهو القرآن الكريم في ثلاث سور وهي: سورة الأحزاب، وسورة النور، وسورة التحريم.

---

(١) أعضاء الفريق هم: د. عبد المحسن الحاد الله الخرافي رئيساً  
د. عبد الله محمد حسن عضواً  
د. أحمد عبد الفنى النجولي الجمل عضواً  
د. محمد مأمون محمد علي عضواً  
أ. سامي محمد العسلاوي عضواً  
أ. عبد الناصر أحمد سباق مقرراً



أما سورة الأحزاب فاشتملت على قصة زواج زيد بن حارثة رضي الله عنه من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها باعتباره متبنياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل تحريم ذلك، ثم طلاقها منه، وزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم منها، لتحقيق الحكمة الإلهية في أبطال عادة التبني، كما اشتملت السورة أيضاً على فريضة الحجاب على نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم النساء المسلمات من بعد.

وأما سورة النور فقد عرضت لما أُلِّمَّ بالبيت النبوي الكريم من الابتلاء برمي أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، وتبرئتها من ذلك بما بات يعرف بـ (حادثة الإفك) فعرضنا أولاً ما ورد في القرآن الكريم عن هذه الحادثة، ثم أتبعنا ذلك بما ورد مفصلاً في السنة النبوية عن هذه القصة باعتبار أن السنة مفسرة لما ورد مجملاً في القرآن الكريم.

وأما سورة التحريم فكان الحديث فيها عن غيرة بعض أمهات المؤمنين من حادثة وقعت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم، واختلفت الروايات فيها على قولين: الأول أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمكث عند زينب بنت جحش رضي الله عنها ويشرب عندها عسلاً، فغارت من ذلك السيدة عائشة وحفصة رضي الله عنهما، فحلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم على ألا يعود لذلك تطيباً لخاطرها، وهذه رواية البخاري. والقول الثاني: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصاب أم إبراهيم مارية القبطية في بيت السيدة حفصة رضي الله عنها فغارت من ذلك، فحلف ألا يقربها تطيباً لخاطرها. فقدمنا رواية البخاري لأنها أصح سنداً، وأشرنا إلى الثانية من باب العلم بها، وقد حاول بعض العلماء الجمع بين الروایتين، ولم نتوقف عند ذلك طويلاً؛ لأن هدفنا من القصة هو استنتاج المفاهيم التربوية والأسرية من تلك القصة.

وكان منهجنا في تناول هذه السور على النحو التالي:

١- تحديد الآيات الخاصة بالحديث عن شأن من شؤون أسرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

٢- تفسير الآيات تفسيراً يوضح الحدث، ويرسم في الذهن المعنى متكاملًا عن القصة.

٣- استنتاج المفاهيم التربوية والأسرية من تلك الآيات وعرضها بشكل وافٍ، لأنها هي الهدف من تلك الدراسة.

واشتملت هذه الدراسة على ثلاثة أبواب، واشتمل كل باب على عدة فصول.

أما الباب الأول: فكان عن (بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب)، واشتمل على خمسة فصول: الفصل الأول: أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقرباته في سورة الأحزاب، الفصل الثاني: قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما، الفصل الثالث: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من قصة زواج السيدة زينب من زيد بن حارثة رضي الله عنهما، الفصل الرابع: قصة زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من زينب بنت جحش رضي الله عنها. الفصل الخامس: المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب.

وأما الباب الثاني: فكان عن (بيت النبوة في ضوء سورة النور)، واشتمل على تمهيد وفصلين، أما التمهيد فتضمن الحديث عما ابتلي به المؤمنون في المدينة المنورة من كيد المنافقين ومن حالفهم، كما تضمن أيضاً تعريف الإفك لغة واصطلاحاً. وأما الفصل الأول فتناولنا فيه قصة الإفك كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية، ثم تفسير الآيات المتعلقة بذلك. وخصّص الفصل الثاني للمفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من حادثة الإفك.

وأما الباب الثالث: فكان عن (بيت النبوة في ضوء سورة التحريم). واشتمل على فصلين: الفصل الأول عن الآيات الواردة في سورة التحريم وتفسيرها، والفصل الثاني عن المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من آيات سورة التحريم.

ونرجو الله تعالى أن نكون قد وفقنا في تقديم جانب لا بأس به من حياته صلى الله عليه وآله وسلم الأسرية، لتكون نموذجاً للأسر المسلمة تحتذي به في منهجها الأسري، فهي سيرة أظهر أسرة لأكرم نبي، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾، ونقلنا جانباً من جوانب حياته صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأن من أراد أن يتتبع حياته صلى الله عليه وآله وسلم الأسرية فيجب عليه دراسة السيرة والسنة النبوية إلى جانب القرآن الكريم، وذلك من بداية خطبته للسيدة خديجة رضي الله عنها وزواجه منها قبل البعثة، ثم تتبع كل النواحي الأسرية في حياته إلى أن مرض في بيت السيدة عائشة رضي الله عنها عندما لحق بالرفيق الأعلى، وهذا يحتاج وحده إلى سلسلة خاصة تشكل بمفردها موسوعة أسرية كاملة.

هذا والله نسأل أن يتقبل عملنا هذا ويجعله في ميزان حسناتنا فإنه نعم المولى ونعم النصير، ونتوجه إلى إخواننا القراء سائلين الله لهم التوفيق والهداية أن من وجد منهم في هذا الإصدار ما يدعو إلى التدارك أو التصويب أن يتقدم به مشكوراً إلى اللجنة المثبت عنوانها في مقدمة هذا الجزء، لتداركه في الطبقات القادمة إن شاء الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

د. عبد المحسن الجارالله الخرافي  
رئيس اللجنة التربوية

**الباب الأول**  
**بيت النبوة**  
**في ضوء سورة الأحزاب**



## الفصل الأول

أهل بيت النبي ﷺ وقرابته في سورة

### الأحزاب

المبحث الأول: زوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين

المبحث الثاني: تخيير نساء النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة

المبحث الثالث: خصائص زوجات الرسول ﷺ



المبحث الأول  
زوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين





## زوجات النبي ﷺ أمهات للمؤمنين

ذكر الله (جل وعلا) في السورة الكريمة أن الرسول ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأن زوجاته ﷺ أمهات المؤمنين، فقال تعالى:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ (١)، وذلك لما يعلمه الله (جل وعلا) من شفقة رسول الله ﷺ، ورأفته بأمته ورحمته بها، ونصحه لأتباعه، وحرصه عليهم في كل ما دعاهم إليه من أمور الدين والدنيا، وذلك لأن نفوسهم تدعوهم إلى ما فيه هلاكهم، وهو يدعوهم إلى ما فيه نجاتهم، لذا فقد جعله الله (جل وعلا) أولى بهم من أنفسهم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ أنه قال « ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ فأیما مؤمن ترك مالا فليترثه عصبته من كانوا فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه » (٢)

وفي الصحيح أيضاً أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: يا رسول الله والله أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي فقال النبي ﷺ الآن يا عمر (٣)

وهكذا فقد جعل كل من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة النبي ﷺ أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

(١) سورة الأحزاب آية (٦).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٨١) ومسلم في الفرائض (١٦١٩) واللفظ للبخاري.

(٣) أخرجه البخاري - كتاب الإيمان والتذوق - باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، حديث رقم (٦١٤٢).

ثم بعد ذلك أمر الله (جل وعلا) المؤمنين بحفظ حقوق زوجات الرسول ﷺ في الحرمة والاحترام، والتوقير والإكرام والإعظام، كما بين (سبحانه تعالى) المكانة التي جعلها لهن، فبين أنه (سبحانه تعالى) رفع مقامهن، ويوأنهن أعلى منزلة عند جميع المؤمنين، وهي منزلة الأمومة، فجعلهن أمهات في الحرمة والاحترام، فقال تعالى ﴿وَأَزْوَاجَهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا ينتشر التحريم إلى بناتهن وأخواتهن بالإجماع.<sup>(١)</sup>

هل زوجات الرسول ﷺ أمهات الرجال فقط أم أمهات الرجال والنساء؟  
اختلف العلماء في زوجات الرسول ﷺ هل هن أمهات الرجال والنساء أم أمهات الرجال خاصة، والذي يظهر أنهن أمهات الرجال والنساء؛ تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء، يدل عليه صدر الآية:  
﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾، وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة، فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع - أي: الرجال والنساء.

(١) انظر تفسير ابن كثير.

المبحث الثاني  
تخير نساء النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة



## تخيير نساء النبي ﷺ بين الدنيا والآخرة

يقول الحق سبحانه تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّازِئِينَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَتَّقُونَ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (١).

### سبب نزول الآيتين الكريمتين

لما نصر الله جل وعلا رسوله ﷺ على الأحزاب، وفرقهم عنه، وفتح عليه قريظة والنضير، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله، وقلن له: «يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلى والحلل، والإماء والخول (الخدم)، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق» وآمن قلبه بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم، فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن (٢) وهو قوله سبحانه ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَّازِئِينَ إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَمْ تَتَّقُونَ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ (٣).

روى الإمام مسلم - رحمه الله - بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ فوجد الناس جلوساً ببابه، لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن

(١) الأحزاب آية ٢٨، ٢٩.

(٢) تفسير المنير تفسير سورة الأحزاب ص ٢٨٩، ٢٩٠ بتصرف.

(٣) من في قوله «مِنْكُمْ» للتبيين، لأن كلهن كن محسنات، وقيل: يجوز فيه التبعيض على أن المحسنات المختارات لله ورسوله ﷺ، واختيار الجميع لم يعلم وقت النزول، وهو على ما قال الخفاجي عليه الرحمة بعيد. روح المعاني للألوسي (١٨٢، ١٨١/٢١).

فأذن له، فَوَجَدَ النَّبِيَّ ﷺ جالساً حوله نساؤه واجماً<sup>(١)</sup> ساكتاً، قال: فقال: لأقولن شيئاً أضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله لَوْ رَأَيْتَ بِنْتَ خَارِجَةَ سَأَلْتِي النَّفْقَةَ فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَوَجَّاتُ عَنْقَهَا<sup>(٢)</sup> فضحك رسول الله ﷺ وقال: «هُنَّ حَوْلِي كَمَا تَرَى يَسْأَلُنَنِي النَّفْقَةَ، فِقَامَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى عَائِشَةَ يَجَأُ عَنْقَهَا، فِقَامَ عُمَرَ إِلَى حَفْصَةَ يَجَأُ عَنْقَهَا كِلَاهِمَا يَقُولُ: تَسْأَلُنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ، فِقُلْنَ: وَاللَّهِ لَا نَسْأَلُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ شَيْئاً أَبَداً لَيْسَ عِنْدَهُ، ثُمَّ اعْتَزَلَهُنَّ شَهْرًا أَوْ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، ثُمَّ نَزَلَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿قَالَ: فَبَدَأَ بِعَائِشَةَ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ أَمْرًا أَحِبُّ أَلَا تَعَجَلِي فِيهِ حَتَّى تَسْتَشِيرِي أَبُوبَكْرٍ» قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَتَلَا عَلَيْهَا الْآيَةَ، قَالَتْ: أَفِيكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَسْتَشِيرُ أَبُوبَكْرٍ؟ بَلْ أَخْتَارُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ، وَأَسْأَلُكَ أَلَا تُخْبِرُ امْرَأَةً مِنْ نِسَائِكَ بِالَّذِي قُلْتَ، قَالَ: «لَا تَسْأَلُنِي امْرَأَةً مِنْهُنَّ إِلَّا أَخْبَرْتُهَا، إِنْ اللَّهُ لَمْ يَبْعَثْنِي مُعْتَبَرًا وَلَا مُتَعَبَّرًا وَلَكِنْ بَعَثَنِي مُعَلِّمًا مَيْسِرًا»<sup>(٣)</sup>.

وفي هاتين الآيتين أمر من الله عز وجل لرسوله ﷺ بتخيير نسائه بين أمرين:

أولهما: أن يخترن الحياة الدنيا وزينتها ولذاتها، ومتعها، والتمتع بزخرفها ونعيمها،

وفي هذه الحالة يطلقهن الرسول ﷺ طلاقاً لا ضرر فيه، ويعطيهن رسول الله ﷺ ما أوجبه الله عز وجل على الرجال للنساء من المتعة عند مفارقتهن بالطلاق، من ثياب أو دراهم أو أثاث تطوعاً

(١) واجماً: الواجم هو الذي اشتد حزنه حتى أمسك عم الكلام. شرح النووي على تصحيح مسلم ص ٩٢١

(٢) وجأت عنقها أي: طعنت عنقها. المرجع السابق.

(٣) رواه الإمام مسلم في كتاب الطلاق الحديث (١٤٧٨)

لا وجوباً، تطيبياً لخاطرهن، وتعويضاً لهن عما لحقهن من ضرر بالطلاق. وتختلف هذه المتعة التي يعطيها الزوج لزوجته المطلقة بحسب حال الزوج غنى وفقراً، يساراً وإعساراً كما قال تعالى:

﴿ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ التَّوَسُّعِ قَدْرَهُنَّ وَعَلَىٰ التَّقْدِيرِ قَدْرَهُنَّ مَتَّعَاءً بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)

ثانیهما: - أن يخترن الله ورسوله، ورضا الله ورضا رسوله، وثواب الدار الآخرة، وإذا تحقق منهن هذا الاختيار، فإن الله عز وجل أعد للمحسنات منهن في أعمالهن القولية والفعلية ثواباً عظيماً، تستحقن الدنيا وزينتها دونه.

وبعد أن هجر الرسول ﷺ زوجته (شهرًا) تسعة وعشرين يوماً - لأن الشهر الذي هجر الرسول ﷺ زوجته فيه صادف أن كان تسعاً وعشرين يوماً - خيرهن عليه الصلاة والسلام فبدأ بالسيدة عائشة رضي الله عنها - فلما اختارت الله ورسوله والدار الآخرة رُوِيَ الفرح والبشر في وجهه ﷺ، ثم تتابعت زوجاته كلهن، فاخترن الله ورسوله والدار الآخرة. (٢) فسر بذلك رسول الله ﷺ، وشكرهن الله عز وجل على حسن اختيارهن وكرمهن، فقال ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ (٣) ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدًا ﴾ (٤).

(١) سورة البقرة آية (٢٣٦)

(٢) روح المعاني للألوسي (٢١/١٨١، ١٨٢).

(٣) سورة الأحزاب (٥٢).

(٤) سورة الأحزاب (٥٣).





## المبحث الثالث

### خصائص زوجات الرسول ﷺ



## خصائص زوجات الرسول ﷺ

وبعد أن خير الله عز وجل زوجات رسول الله ﷺ بين الله ورسوله والدار الآخرة، والحياة الدنيا وزينتها، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أتبع ذلك بعظمتهن وتهديدهن إذا هن فعلن ما يسوء النبي ﷺ، وأوعدهن بمضاعفة العذاب (١) فقال تعالى: ﴿يُنْسَاءُ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَنْ يَقْنُتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يُنْسَاءُ النَّبِيُّ لَسْتَنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتَنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (٢)

ففي هذه الآيات الكريمة نبه الله عز وجل نساء النبي ﷺ إلى عدة أمور كي يلتزمن بها في حياتهن، ويكن في ذلك قدوة لغيرهن من النساء. **أولها:** نهيهن عن إتيان الفواحش المبينة، أي: المعاصي الكبيرة الظاهرة القبح، كالنشوز، وعقوق الأزواج، وسوء الخلق، وبين أن من أتت بفاحشة مبينة يكون عقابها مضاعفاً، لشرف منزلتهن، وفضل درجتهن، وتقدمهن على سائر النساء، لأنهن أهل بيت النبوة، وكان تضعيف العذاب لهن هيناً سهلاً يسيراً على الله عز وجل الذي لا يحابي أحداً لأجل أحد.

(١) تفسير المراغي (٢١/١٥٤). بتصرف.

(٢) سورة الأحزاب الآيات (٣٠ - ٣٤)

قال أبو حيان: (ولا يتوهم أنها - أي الفاحشة - الزنا، لعصمة رسول الله ﷺ من ذلك، ولأنه وصفها - أي: الفاحشة - بالتبيين، والزنا مما يتستر به، وينبغي أن تحمل الفاحشة على عقود الزوج، وفساد عشرته.

ولما كان مكانهن مكان مهبط الوحي من الأوامر والنواهي، لزمهن بسبب ذلك وكونهن تحت الرسول ﷺ أكثر مما يلزم غيرهن، فضعف لهن الأجر والعذاب) (١).

### ثانيها: حثهن على الطاعة بالقول والعمل.

حث الله عز وجل زوجات رسول الله ﷺ على الطاعة في القول والعمل، فقال سبحانه تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي: ومن تطع منكن الله ورسوله، وتخضع خضوعاً كاملاً لأوامر الله عز وجل، وأوامر رسوله ﷺ، وتترجم هذه الطاعة وذلك الخضوع بأن تعمل صالح الأعمال، يضاعف لها الأجر والثواب مرتين، لكرامتها علينا بوجودها في بيت النبوة، ومنزل الوحي، ونور الحكمة، وعين الهداية، ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ أي: وزيادة على هذا أعدنا لها الكرامة في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، منظور إليها نظرة المهابة والإجلال، وأما في الآخرة فلها رفيع الدرجات، وعظيم المنازل عنده تعالى في جنات النعيم، مع ما يقدم لها من رزق كريم لا عيب فيه ولا نقص، ولا منة لأحد (٢).

(١) البحر المحيط (٢٢٠/٧).

(٢) تفسير المراغي (٤/٢٢) والتفسير المنير (٨،٧/٢٢). بتصريف.

### ثالثها: تمييزهن على سائر النساء.

وبعد أن بين الله سبحانه تعالى ما اختص به زوجات رسول الله ﷺ (أمهات المؤمنين) من مضاعفة العذاب لمن تأت منهن بفاحشة مبينة، ومضاعفة الثواب للقاتنة لله ولرسوله، والتي تؤدي الأعمال الصالحة، أردف ذلك بيان تمييزهن عن بقية النساء، فقال سبحانه: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَيْسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ❖ أي: لستن كأحد من نساء عصركن فما بعد، بل أنتن أفضل بشرط التقوى، لما مَنَحَكُنَّ اللهُ عز وجل من صحبة الرسول ﷺ، وَعِظَمَ المَحَلَّ منه، ونزول القرآن في حَقِّكُنَّ، ثم نهاهن الله عز وجل عما كانت الحال عليه.

### رابعاً: نهيهن عن لين الكلام.

ثم نهاهن الله عز وجل عما كان عليه حال نساء العرب من مكالمة الرجال برخيم الصوت) (١) فقال سبحانه: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ ❖ أي: إن اضطررتن أن تكلمن رجلاً فتكلمن بصوت لا ليونة فيه ولا تكسر، لأنكن عرضة للكلام مع بعض ضعاف الإيمان، أو من في قلوبهم مرض، فلا تعطين لهم هذه الفرصة، وهذا ليس معناه أن تتكلمن مع الناس بغلظة أو خشونة، أو جفاء، بل المطلوب منكن أن تقلن ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ ❖ أي: صواباً لا تتكره الشريعة ولا النفوس السوية، أو حسناً بعيداً عن الريبة، غير مطمع لأحد، أو صحيحاً بلا هجر ولا تمييز، أو قولاً أذن لَكُنَّ فيه، (٢) حتى لا يحدث في نفس من يتكلم معكن شيئاً، ويطمع من في قلبه مرض. وهذا النهي من الله عز وجل لأمهات المؤمنين رضي الله عنهن لا

(١) المحرر الوجيز ص ١٥١١.

(٢) روح المعاني (٦/٢٢).

يعني أن أزواج النبي ﷺ على حال من السوء تقتضي المنع والكف، وإنما المراد حملهن على أسمى الفضائل وملازمتها، فلما منعهن من الفاحشة وهي الفعل القبيح، منعهن من مقدماتها وهي المحادثة مع الرجال على وجه فيه ريبة وإطماع، وإساءة فهم من في قلبه ميل إلى الفجور والفسوق. ونساء الأمة تبع لنساء النبي ﷺ في هذه الآداب التي أمر الله تعالى بها، وخلاصة الأمر أنه لا يجوز للمرأة أن تخاطب الأجانب كما تخاطب زوجها<sup>(١)</sup>.

#### خامساً: أَمْرُهُنَّ بِالْقَرَارِ فِي الْبُيُوتِ وَنَهْيُهُنَّ عَنِ التَّبَرُّجِ:

ولما أمر الله عز وجل أمهات المؤمنين بالقول المعروف أتبع ذلك بأمرهن أن يتبعن القول بالفعل، فقال سبحانه ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أي: اسكن بيوتكن والتزميها، ولا تخرجن منها لغير حاجة، وهذا الأمر لزوجات الرسول ﷺ ولسائر النساء، وذلك لأن أمر المرأة مبني على الستر، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « إن المرأة عورة، فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهي في قَعْرِ بَيْتِهَا »<sup>(٢)</sup>

فإن دعت الحاجة إلى الخروج ف ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ أي: (لا تتكسرن في مشيتكن ولا تظهرن زينتك) كما كانت تفعل نساء أهل الجاهلية القديمة قبل الإسلام، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة.

(١) التفسير المنير (٩/٢٢) بتصرف.

(٢) رواه ابن خزيمة في صحيحه (١٦٨٥) ط المكتب الاسلامي. وذكره ابن كثير في تفسيره (٤٨٢) وعزاه للبخاري.

**سادساً:** أمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والمداومة على الطاعة:

وبعد أن أمرهن الله عز وجل بالقول المعروف، وبالقرار في البيت، وعدم الخروج منه إلا لحاجة، وإن خرجن فلا يخرجن متبرجات، أتبع ذلك بأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وإطاعة الله عز وجل في كل أمر ونهي، فقال تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾. والأمر بإقامة الصلاة فيه (توجيه إلى تطهير النفس، وتنقيتها من شوائب الشهوة والهوى، وإرشاد إلى ما يستعان به على المحافظة على حدود الدين، ومطاردة هواجس الشر، ووسوسة الشيطان، فإن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر، وهي وسيلة من أصح الوسائل وأصدقها في تربية الباطن النظيف، وخلق الشفافية الروحية التي تؤهل النفس لقبول أمر الله، وتؤهل القلب للوجل والخوف، والانكفاف عما يستوجب عقابه)<sup>(١)</sup> والأمر بإيتاء الزكاة فيه توجيه إلى تطهير المال، وتنقيته من أي شوائب علقت به، وإرشاد إلى ما يستعان به على كبح النفس من حب التملك، ومقاومة شره الطمع لدى أصحاب النفوس الضعيفة، وتعويد للمسلم على البذل والعطاء والتضحية، والوقوف بجوار الفقراء والمساكين والمحتاجين.

وفيه أيضاً مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي، والتضامن الإنساني الرفيع في المجتمع المسلم.

وبعد أن أمرهن سبحانه تعالى بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، أمرهن بطاعة الله ورسوله، والأمر بطاعة الله ورسوله فيه معنى عام يدخل فيه الأمور السابقة، النهي عن الفواحش، والأمر بالقنوت، والعمل

(١) من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٢٩٠، ٢٩١.



الصالح، والقرار في البيوت، والنهي عن التبرج، والأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فكأنه سبحانه تعالى أعاد الأشياء السابقة جميعاً مرة ثانية في قوله ﴿ وَأَطَعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۗ ﴾ وفي هذه الإعادة (وهذا التكرار الخفي توكيد وتثبيت لهذه المعاني في القلوب) (١).

### سابعاً: - تطهير أهل البيت وإذهاب الرجس عنهم

ثم ذكر الله عز وجل السبب الذي من أجله شرع تلك الأوامر والنواهي السابقة لزوجات رسول الله ﷺ على وجه عام وألزمهم بها، فقال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ أي: ما أمركن ونهاكن ووعظكن إلا خيفة مقارفة المآثم، والحرص على التَّصَوُّنِ عنها بالتقوى، والتطهر من دنس المعاصي والذنوب، وتعمير قلوبكن بنور الإيمان.

واستعير الرجس للذنوب، والطهر للتقوى كما يقول الزمخشري: لأن عَرَضَ المقترف للمقبحات يتلوث بها، ويتدنس كما يتلوث بدنه بالأرجاس، وأما المحسنات فالعَرَضُ منها نقى مصون كالثوب الطاهر، وفي هذه الاستعارة ما ينفر أولي الألباب عما كرهه الله لعباده، ونهاهم عنه، ويرغبهم فيما رضيه لهم، وأمرهم به (٢) والرجس يطلق على الإثم، وعلى العذاب، وعلى النجاسة، وعلى النقائص، وكل ذلك أذبه الله عز وجل عن أهل البيت.

و (أهل البيت) نصب على النداء، أو على المدح، وفي هذا دليل بين على أن نساء النبي ﷺ من أهل بيته. (٣)

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٩٤.

(٢) تفسير الكشاف ص ٨٥٥.

(٣) السابق

**ثامناً:** أمرهن أن يذكرن نعمة الله عليهن بتلاوة آيات الله والحكمة في بيوتهن:

ثم بين الله عز وجل ما أنعم به عليهن، حيث جعل بيوتهن مهابط الوحي، فقال سبحانه: ﴿وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ أي: اذكرن ولا تغفلن نعمة الله عليكن، بأن جعلكن في بيوت تتلى فيها آيات الله تعالى، وسنة نبيه اللتين فيهما حياة الأنفس وسعادتها، وقوام الأدب والأخلاق، وذكر ذلك مستوجب لتصور عظمته، ومكانته، وثمره منفعته، وذلك يجر إلى العمل به. فاذا ذكرن هذه النعمة حيث جعلتن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي مما يوجب قوة الإيمان، والحرص على الطاعة.



**الفصل الثاني**  
**قصة زيد بن حارثة**  
**وزينب بنت جحش رضي الله عنهما:**

المبحث الأول: أسباب نزول هذه الآيات الكريمة.  
المبحث الثاني: أقوال العلماء في المراد من قوله سبحانه ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ .  
المبحث الثالث: خلاصة ما تضمنته قصة زينب رضي الله عنها.



## الفصل الثاني

### قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش رضي الله عنهما:

يقول الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مَتَاهَا وَطَرَأَ زَوْجَتُهَا الَّتِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَنْزَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرَأَ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴾ (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَئِنْ رَسُلَ اللَّهُ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ (٤٠) ﴿ (١)

(١) الأَحزاب ٣٦ - ٤٠.



**المبحث الأول**  
**أسباب نزول هذه الآيات الكريمة**





## أسباب نزول هذه الآيات الكريمة

سبب نزول قوله سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ ﴾ الآية (١)  
قال جمهور العلماء، وابن عباس وقتادة ومجاهد وغيرهم: إن رسول الله ﷺ انطلق يخطب زينب بنت جحش الأسدية لزيد بن حارثة (٢) فقالت: لا أرضاه، ولست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: « بَلَى فَاَنْكِحِيهِ، فَإِنِّي قَدْ رَضِيْتَهُ لَكَ »، فأبت، فنزلت هذه الآية.

وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخت زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلما نزلت الآية رضى رضىاً وسَلِّماً. (٣)  
سبب نزول قوله: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ الآية ٣٧ من سورة الأحزاب.

أخرج البخاري بسنده، (٤) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: « اتق الله وأمسك عليك زوجك » قال

(١) قال البغوي: نزلت في زينب بنت جحش الأسدية، وأختها عبد الله بن جحش، وأمها أمية بنت عبد المطلب، عمّة النبي ﷺ، خطب رسول الله ﷺ زينب لمولاه زيد بن حارثة، وكان رسول الله ﷺ اشتري زيداً في الجاهلية بعاظ، فأعتقه وتبناه، فلما خطب رسول الله ﷺ زينب رضىت وظنت أنه يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد أبت وقالت: أنا ابنة عمك يا رسول الله فلا أرضاه لنفسي، وكانت بيضاء جميلة فيها حدة، وكذلك كره أخوها ذلك، فأنزل الله عز وجل الآيات الكريمة. تفسير البغوي (معالم التنزيل) للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي ص ١٠٤٢ ط دار ابن حزم لبنان ط أولى (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م).

(٢) وعند القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن (٢/٤٨٠) والواحي في تفسيره الوسيط (٣/٤٧١) (أن السيدة زينب بنت جحش ظنت أن الرسول ﷺ يخطبها لنفسه، فلما علمت أنه يخطبها لزيد، كرهت ذلك وأخوها وأبت وامتنعت، فلما نزلت الآية رضى رضىاً وسَلِّماً، فزوجها رسول الله ﷺ من زيد.

(٣) زاد المسير في علم التفسير لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ص ١١٢٥، ١١٢٦. المكتب الإسلامي، ودار ابن حزم، لبنان، ط أولى (١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م). وجامع البيان للطبري (٢٢/١١) ورواه الدارقطني في كتاب النكاح. الحديث (٣٠١)، وابن كثير في تفسيره (٣/٤٨٩) والشوكاني في فتح القدير (٤/٣٥٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد. تفسير سورة الأحزاب (٧/٩١) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح. ومحمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي في تفسيره البحر المحيط (٧/٢٢٥). والسيوطي في الدر المنثور (٥/٢٠١).

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء). الحديث (٢٤٧٠).

أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً لكتّم هذه، قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زَوَّجَنَّ أَهَالِيكَنَّ وَزَوَّجَنِي اللهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ».

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: إن هذه الآية ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة<sup>(١)</sup>.

وروى الترمذي والحاكم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ في شأن زينب بنت جحش، جاء يشكو، فهم بطلاقها، فاستأمر النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: «أمسك عليك زوجك واتق الله»<sup>(٢)</sup>.

سبب نزول قوله تعالى ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ روى الترمذي في حديث طويل بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها وفيه «..... وإن رسول الله ﷺ لما تزوجها - أي: زينب بنت جحش - قالوا: تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾».

وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير، فلبث حتى صار رجلاً يقال له: زيد بن محمد، فأنزل الله ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ﴾ فلان مولى فلان، وفلان أخو فلان ﴿هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ﴾ يعني: أعدل.<sup>(٣)</sup>

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير، باب ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ الحديث (٤٧٨٧) وفي كتاب التوحيد باب «وكان عرشه على الماء» الحديث (٢٤٧٠).

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة الأحزاب، الحديث (٢٢٢٦) وصححه، والحاكم في المستدرک (١٩٢/٣) الحديث (٣٦٦٦).

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير، الحديث (٢٢٣٠) وذكره الواحدي في تفسيره الوسيط (٤٧٤/٣) والشوكاني في فتح القدير (٢٥٨/٤) والبنغوي في تفسيره ص ١٠٤٥.

## المبحث الثاني

أقوال العلماء في المراد من قوله سبحانه

﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾



## أقوال العلماء في المراد من قوله سبحانه ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾

يقول الله تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ (١).

هذه الآيات الكريمة من آيات القرآن الكريم التي كثرت حولها الأقاويل واختلف العلماء فيها اختلافاً متبايناً، بل وقد رأينا بعض علماء الملة يتحرج أن ينقل فيها ما روي عن بعض السلف، لأنه - كما قالوا - فيه من الهُجْنَةِ ما لا يصح أن ينسب إلى رسول الله ﷺ.

ونحن كذلك لن نعرج على هذه الأقوال التي لا أصل لها، ولا تليق بمقام النبي ﷺ، وقد ناقشها العلماء وبينوا زيفها، والمقام هنا لا يتسع لذكرها.

**والرأي الذي مال إليه المحققون** في تفسير هذه الآيات هو أن زيد بن حارثة رضي الله عنه مولى رسول الله ﷺ كان قد زوجه النبي عليه الصلاة والسلام من زينب بنت جحش، ابنة عمه رسول الله ﷺ، وهي أسدية معتزة

(١) الأحزاب ٣٧ - ٤٠.

بالانتماء لبني أسد، وكانت قبيلتها لها شأن في تاريخ الجاهلية والإسلام، زينب إذاً أسدية تنتمي إلى حُرِّ قبائل مُضَر، وهم وكنانة - أي قريش - أبناء عمومة، كلاهما من ولد خزيمة، وقد أراد الرسول ﷺ أن يقرر قيم المساواة في المجتمع الإسلامي، وفي هذه البيئة المحمية بفوران التعالي، فاختار زينب لما بينه وبينها من صلة، فإنها إذا كانت أسدية العمومة فإنها هاشمية الخؤولة، أمها أميمة بنت عبد المطلب، سيد مكة، وصاحب غيرها، وبهذا يجتمع لها ما لا يجتمع للكثير مما به يكون الاعتزاز والتعالي.

اختار الرسول ﷺ زينب لأنها من أهله، أي: بنت عمته، فخطبها لزيد، وكان ما ذكرناه من رفض زينب ورفض أخيها، ثم من إذعانها لأمر الله ورسوله.

وكانت الحياة - كما تروي أكثر الكتب - بين زيد وزينب حياة غير قارة، فقد كانت تفخر عليه بشرفها، وكان يسمع منها ما يكره، فشكاها لرسول الله ﷺ، فقال له عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ قالوا: وكان رسول الله ﷺ قد أوحى الله إليه، وأعلمه أن زيدا سيطلق زينب، وسيتزوجها هو ﷺ، ليكون ذلك استئصالاً لبقايا آثار التبني الذي أبطله قوله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ﴾ (١).

وقوله ﴿ أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ ﴾ (٢) وكان زيد بن حارثة يُدعى زيد بن محمد، فلما نزلت الآيات المبطللة للتبني صار (زيد) ﷺ زيد بن حارثة، ولكنهم ظلوا يحرمون مطلقة المُتَبَنَّى بعد إبطال التبني، فكان لا بد من تشريع عملي، ليواجه هذه العادة المتأصلة، أعني تحريم زوجة المُتَبَنَّى، فانتدب لذلك الأمر الصعب سيدنا رسول الله ﷺ.

(١) الأحزاب جزء من الآية (٤).

(٢) الأحزاب جزء من الآية (٥).

وقد رُوي عن علي بن الحسين رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أوحى الله تعالى إليه أن زيدا يُطلقُ زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها، فلما تشكَّى زيد للنبي صلى الله عليه وسلم خلق زينب، وأنها لا تطيعه، وأعلمه أنه يريد طلاقها، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم على جهة الأدب والوصية: «اتَّقِ الله في قولك وأمسك عليك زوجك» وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها، وهذا هو الذي أخفي في نفسه، ولم يرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد، وهو مولاه، وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تعالى على هذا القدر من أن خشي الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال: «أمسك عليك زوجك» مع علمه بأنه يُطلقها، وأعلمه أن الله أحق بالخشية. أي: في كل حال (١).

قال ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: قوله: - أي الإمام البخاري - «باب وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه» لم تختلف الروايات أنها نزلت في قصة زيد بن حارثة وزينب بنت جحش، ثم ذكر عدة روايات للقصة منها رواية للإمام أحمد عن مؤمل بن إسماعيل عن حماد بن يزيد بلفظ «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم منزل زيد بن حارثة فجاءه زيد يشكوها إليه، فقال له: أمسك عليك زوجك واتق الله، فنزلت إلى قوله «زوجناكها» قال: يعني زينب بنت جحش. ثم قال ابن حجر: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السدي فساقها سياقاً واضحاً حسناً، ولفظه «بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يزوجه زيد بن حارثة مولاه فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بعد أنها من أزواجه،

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٨٢).



فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجته، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه ويقولوا تزوج امرأة ابنه، وكان قد تَبَيَّنَ زيداً.

ثم قال ابن حجر: ووردت آثار أخرى - حول هذه القصة - أخرجها ابن أبي حاتم والطبري ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد، والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك خشية قول الناس تزوج امرأة ابنه، وأراد الله إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً. ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية والله أعلم. وقد أخرج الترمذي من طريق داود بن أبي هند عن الشعبي عن عائشة قالت «لو كان رسول الله ﷺ كاتماً شيئاً من الوحي لكتم هذه الآية» وإذ تقول للذي أنعم الله عليه - يعني بالإسلام - وأنعمت عليه - بالعتق - أمسك عليك زوجك» إلى قوله «قدراً مقدوراً» وأن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا: تزوج حليلة ابنه، فأنزل الله تعالى «ما كان محمد أباً أحد من رجالكم» الآية.

وروى أحمد ومسلم والنسائي من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال: «لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذكرها علي، قال: فانطلقت فقلت: يا زينب أبشري، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، فقالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ حتى دخل عليها بغير إذن»<sup>(١)</sup>. وهذا أيضاً من

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب النكاح باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب (١٠٤٨/٢) ط الحلبي وطبعة أخرى الحديث (١٤٢٨).

أبلغ ما وقع في ذلك، وهو أن يكون الذي كان زوجها هو الخاطب، لئلا يظن  
أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وفيه أيضاً اختبار ما عنده منها هل بقي  
منه شيء أم لا (١)

---

(١) فتح الباري (٨/٥٣٣، ٥٣٤).



## المبحث الثالث

خلاصة ما تضمنته قصة زينب رضي الله عنها



## خلاصة ما تضمنته قصة زينب رضي الله عنها

إذا استعرضنا الأقوال السابقة فإننا نستخلص منها الأمور التالية:

**الأمر الأول:** أن الرسول ﷺ زوج سيدنا زيد بن حارثة بالسيدة زينب بنت جحش بأمر من الله عز وجل ويرضى منه ﷺ. وذلك لقوله سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾ (١).

**الثاني:** رفضت السيدة زينب بنت جحش هذا الزواج في بداية الأمر لعظم منزلتها واعتزازها بانتمائها لبني أسد، فلما علمت أن هذا الزواج بأمر الله عز وجل وبموافقة رسوله ﷺ خضعت ووافقت مباشرة.

**الثالث:** كان الهدف من هذا الزواج إقرار قيم المساواة في المجتمع الإسلامي. في هذه البيئة المحمية بفوران تعالى.

**الرابع:** كانت الحياة بين الزوجين غير قارة بسبب فخر السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها على زوجها بشرفها وسمعه منها ما يكره.

**الخامس:** شكوى سيدنا زيد بن حارثة لرسول الله ﷺ تعالى السيدة زينب رضي الله عنها عليه، وعدم طاعتها له، وإعلامه إياه بأنه يريد طلاقها، لكن الرسول ﷺ كان يقول له: ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ﴾ (٢).

رغم أن الله عز وجل قد أوحى إليه ﷺ وأعلمه أن زيداً سيطلق السيدة زينب وسيتزوجها رسول الله ﷺ، وذلك استئصالاً لبقايا آثار التبني الذي أبطله

(١) الأحزاب (٣٦).

(٢) الأحزاب (٣٧).

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وقوله ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾<sup>(٢)</sup>، فرغم أن الله عز وجل أبطل التبني إلا أنهم ظلوا يحرمون مطلقة المتبني، فكان لابد من تشريع عملي ليواجه هذه العادة المتأصلة، أعني تحريم زوجة المتبني على المتبني بعد طلاقها منه.

**السادس:** إن الذي أخفاه الرسول ﷺ في نفسه ولم يطلع زيدا عليه هو إخبار الله إياه بأن زيدا سيطلق زينب بنت جحش، وسوف يتزوجها رسول الله ﷺ، وسبب إخفائه هذا الأمر خشيته ﷺ من أن يلحقه قول من الناس بأنه أمر متبناه سابقاً بتطليق زوجته ليتزوجها هو.

**السابع:** عتاب الله عز وجل لرسوله ﷺ كان سببه خشيته الناس في شيء قد أباحه الله له، بأن قال لزيد ﷺ ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، مع علمه بأنه سيطلقها، وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي: في كل حال.

**الثامن:** لما أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بالزواج من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها أرسل زيد بن حارثة ﷺ ليخطبها له، لئلا يظن أحد أن ذلك وقع قهراً بغير رضاه، وليختبره ﷺ ليرى هل بقي عنده شيء تجاهها أم لا؟.

(١) الأحزاب (٤).

(٢) الأحزاب (٥).

## الفصل الثالث

المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة

من قصة زواج السيدة زينب رضي الله عنها

من زيد بن حارثة ثم طلاقها





## الفصل الثالث

### المفاهيم الأسرية والتربوية المستفادة

من قصة زواج السيدة زينب رضي الله عنها من زيد ثم طلاقها

المفهوم الأول: إذا حكم الله بشيء فليس لأحد مخالفته:

قول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾<sup>(١)</sup>. فيه حكم عام يشمل جميع الأمور، رغم أن الآية الكريمة لها سبب نزول، أو أسباب نزول، (ويتمثل هذا الحكم في أنه: إذا حكم الله عز وجل أو حكم رسوله ﷺ بشيء فليس لأحد مخالفته، وليس لأحد أن يختار حكماً غير الحكم الذي حكم به الله عز وجل أو حكم به رسوله الكريم ﷺ، كما أنه ليس لأحد أن يرى رأياً، أو يقول قولاً يخالف قول الله عز وجل أو قول الرسول الكريم ﷺ)، كما قال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا ﴾<sup>(٢)</sup>، وهذه قاعدة وضعتها الآية الكريمة، وقررتها، حتى أصبحت مقوماً من مقومات العقيدة الذي استقر في قلوب الجماعة الأولى من المسلمين استقراراً حقيقياً، واستيقنته أنفسهم، وتكيفت به مشاعرهم، وهذا المقوم يُبين أنه ليس لأي مؤمن ولا مؤمنة في أنفسهم شيء، وليس لهم من أمرهم شيء، إنما هم وما ملكت أيديهم لله. يصرفهم كيف يشاء، ويختار لهم ما يريد، وإن هم إلا بعض هذا الوجود الذي يسير وفق الناموس العام، وخالق هذا الوجود ومدبره يحركهم مع حركة الوجود العام، ويقسم لهم دورهم في هذا الوجود، وليس لهم أن يختاروا الحركة التي يحبونها، لأن ما يحبونه قد لا يستقيم مع الدور الذي خصص لهم.

(١) الأحزاب: ٣٦.

(٢) النساء: ٦٥.

هكذا فهم المسلمون الأوائل، لذلك أسلموا أنفسهم حقيقة لله عز وجل، أسلموها بكل ما فيها، فلم يعد لهم منها شيء، وعندئذ استقامت نفوسهم مع فطرة الكون كله. واستقامت حركاتهم مع دورته العامة، وساروا في فلکهم كما تسير تلك الكواكب والنجوم في أفلاكها، لا تحاول أن تخرج عنها، ولا أن تسرع أو تبطئ في دورتها المتناسقة مع حركة الوجود كله. وعندئذ رضيت نفوسهم بكل ما يأتي به قدر الله لشعورهم الباطن الواصل بأن قدر الله هو الذي يصرف كل شيء، وكل أحد، وكل حارث، وكل حادث، وكل حالة، واستقبلوا قدر الله فيهم بالمعرفة المدركة المريحة الواثقة المطمئنة.

وشيئاً فشيئاً لم يعودوا يحسون بالمفاجأة لقدر الله حين يصيبهم، ولا بالجزع الذي يعالج بالتجمل، أو بالألم الذي يعالج بالصبر، إنما عادوا يستقبلون قدر الله استقبال العارف المنتظر المرتقب لأمر مألوف في حسه، معروف في ضميره، ولا يثير مفاجأة ولا رجفة ولا غرابة.

ومن ثم لم يعودوا يستعجلون دورة الفلك ليقتضوا أمراً هم يريدون قضاءه، ولم يعودوا يستبطنون الأحداث لأن لهم أرباً يستعجلون تحقيقه، ولو كان هذا الأرب هو نصر دعوتهم وتمكينها! إنما ساروا في طريقهم مع قدر الله، ينتهي بهم إلى حيث ينتهي، وهم راضون مستروحون، يبذلون ما يملكون من أرواح وجهود وأموال في غير عجلة ولا ضيق، وفي غير من ولا غرور، وفي غير حسرة ولا أسف، وهم على يقين أنهم يفعلون ما قدر الله لهم أن يفعلوه، وأن ما يريده الله هو الذي يكون، وأن كل أمر مرهون بوقته وأجله المرسوم.

إنه الاستسلام المطلق ليد الله تقود خطاهم، وتصرف حركاتهم؛ وهم مطمئنون لليد التي تقودهم، شاعرون معها بالأمن والثقة واليقين، سائرون معها في بساطة ويسر ولين.

وهم مع هذا يعملون ما يقدرون عليه، ويبدلون ما يملكون كله، ولا يضيعون وقتاً ولا جهداً، ولا يتركون حيلة ولا وسيلة، ثم لا يتكفون ما لا يطيقون، ولا يحاولون الخروج عن بشريتهم وما فيها من خصائص، ومن ضعف وقوة، ولا يدعون ما لا يجدونه في أنفسهم من مشاعر وطاقات، ولا يحبون أن يحمدا بما لا يفعلوا، ولا أن يقولوا ما لا يفعلون.

وهذا التوازن بين الاستسلام المطلق لقدر الله، والعمل الجاهد بكل ما في الطاقة، والوقوف المطمئن عندما يستطيعون، هذا التوازن هو السمة التي طبعت حياة تلك المجموعة الأولى وميزتها، وهي التي أهلتها لحمل أمانة هذه العقيدة الضخمة التي تنوء بها الجبال!

واستقرار ذلك المقوم في أعماق الضمائر هو الذي كفل لتلك الجماعة الأولى تحقيق تلك الخوارق التي حققتها في حياتها الخاصة، وفي حياة المجتمع الإنساني إذ ذاك، وهو الذي جعل خطواتها وحركاتها تتناسق مع دورة الأفلاك، وخطوات الزمان، ولا تحتك بها أو تصطدم، فَتَتَعَوَّقَ أو تبطل نتيجة الاحتكاك والاصطدام، وهو الذي بارك تلك الجهود، فإذا هيثمر ذلك الثمر الحلو الكثير العظيم في فترة قصيرة من الزمان.

ولقد كان ذلك التحول في نفوسهم بحيث تستقيم حركتها مع حركة الوجود، وفق قدرة الله المصرف لهذا الوجود.. كان هذا التحول في تلك النفوس هو المعجزة الكبرى التي لا يقدر عليها بشر؛ إنما تتم بإرادة الله المباشرة التي أنشأت الأرض والسماوات، والكواكب والأفلاك، ونسقت بين خطاها ودوراتها ذلك التنسيق الإلهي الخاص.

وإلى هذه الحقيقة تشير آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قول الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (١)

(١) القصص: ٥٦.

وقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(١)</sup>  
وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ فَهُوَ الْهَادِي﴾<sup>(٢)</sup> فذلك هو الهدى بحقيقته  
الكبيرة، ومعناه الواسع، هدى الإنسان إلى مكانه في هيكل هذا الوجود؛  
وتنسيق خطاه مع حركة هذا الوجود.

ولن يؤتي الجهد كامل ثماره إلا حين يستقيم القلب على هدي الله  
بمعناه؛ وتستقيم حركة الفرد مع دورة الوجود، ويطمئن الضمير إلى قدر  
الله الشامل الذي لا يكون في الوجود أمر إلا وفق مقتضاه.

ومن هذا البيان يتجلى أن هذا النص القرآني: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ  
إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا﴾ أشمل وأوسع وأبعد مدى من أي حادث خاص يكون قد  
نزل فيه، وأنه يقرر كلية أساسية، أو الكلية الأساسية، في منهج الإسلام<sup>(٣)</sup>.  
وهي الخضوع الكامل والالتزام التام بكل ما قضاه الله عز وجل، فعلى  
الفرد والجماعة أن يلتزموا بما قضاه الله عز وجل لهم في جميع الأمور،  
وفي كل القضايا، وهذا يعني أن الأمة المسلمة إذا راحت تبحث عن فلسفة  
أو نظام في شأن من شئون حياتها سواء في ذلك السياسية والاقتصادية  
والاجتماعية، هذا الشأن قضى الله ورسوله فيه قضاء، فهي أمة تخلع  
ربقة الإيمان من أعناقها، أعني أنها ليست مؤمنة، وهذا يحدد تحديداً  
صريحاً ضرورة التزام الجماعة المؤمنة بأمر القرآن، التزاماً لا ترخص فيه،  
فكل قضاء قد قضاه القرآن والحديث الصحيح في أمر من أمور الحياة  
والأخلاق والتعامل يكون خروج الجماعة المؤمنة عليه ردة وكفراً، وأنا أعني  
بالخروج هنا أن تستحل الجماعة ما تختاره، أي: أن تعتقد أن الخيرة فيما  
ذهبت إليه، وهذا معنى كلمة الخيرة، لأن الاختيار يعني الاصطفاء وطلب

(١) البقرة: ٢٧٢.

(٢) البقرة: ١٢٠.

(٣) في ظلال القرآن (٢٨٦٦/٥ - ٢٨٦٨) بتصرف.

الخير، أما أن يخالف المؤمن أمر الله وقضائه وهو يعلم أنه مخطئ فهذه معصية، وفرق كبير بين الأمرين، والذين يردون فتاوى الفقهاء المدققين، وَيَسْتَخْفُونَ بما كتبه الله عز وجل على عباده، ويذكرون أن الدين مشتمل على بعض مظاهر التخلف كالحجاب وغيره، هم بهذا مخالفون لدين الله عز وجل ، لأنهم ينكرون أو يعطلون آية من الكتاب، ويرون أن ما عندهم من العلم أفضل مما ذكر الله. (١)

### المفهوم الثاني: المسلم الصادق عليه الالتزام بأمر الله ونهيه:

لما رفضت السيدة زينب بنت جحش الزواج من سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما وأرضاهما الذي أراد الرسول ﷺ أن يزوجهما له لحكمة بالغة هي إعلان المساواة بين الناس، والقضاء على فوارق النسب والحسب، مادامت مظلة الإسلام واحدة يتساوى فيها الجميع، وأن التفاضل فيه إنما هو بالتقوى والعمل الصالح، نقول: لما رفضت السيدة زينب الزواج من سيدنا زيد بن حارثة رضي الله عنهما أنزل الله سبحانه تعالى أمراً إلهياً يأمرها فيه بالاستجابة لأمر الرسول ﷺ وذلك بالزواج من زيد رضي الله عنهما، ونهاها عن اختيار أمر آخر غير الأمر الذي اختاره لها الرسول الكريم ﷺ، وذلك في قوله سبحانه ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذْ قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الآية: عند ذلك امتثلت السيدة الكريمة أمر الله عز وجل وأمر رسوله ﷺ بقبول زواجها من زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، وعبد المعتقد، وهي من علية قريش، وذوابة القوم، وبنت أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقالت: «إذن لا أعصي رسول الله ﷺ، قد أنكحته نفسي» بعد أن استنكفت من زيد، وقالت: «أنا خير منه حسبا» وامتثالها نابع من إيمانها العميق بالله سبحانه تعالى، وبرسوله الكريم ﷺ.

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٢٧، ٢٢٨ بتصرف.

فبمجرد أن نزلت الآية الكريمة السابقة التي تحمل بين طياتها تعبيراً قوياً في أداء المعنى المراد لأنه فيه أثره غضب، ونبرة تهديد، من حيث أفاد أن الشأن في المؤمن والمؤمنة الاستجابة، والإذعان لأمر الله والتسليم بحكمه وقضائه في كل أمر من أمور الحياة، جليلها وصغيرها، فإذا كانت هناك محاولة من الفرد أو من الجماعة، تبحث عن أمر ترى فيه الخير والنفع، بعد سماع الحسم فيه بالقضاء، كان ذلك خلعاً لشريعة الإيمان، وخروجاً من دائرة اليقين.

والقضاء هنا فصل الأمر وبيانه، والإعلام بهذا الفصل والبيان، فنفي الخيرة أعني الاختيار يكون عند فصل الله في الأمر ورسوله، وإعلان المؤمنين بذلك، وهو غير التقدير.

قال الراغب: القضاء من الله أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع<sup>(١)</sup>.

نقول: استجابات السيدة زينب رضي الله عنها، ووافقت على الزواج من زيد بن حارثة، لكن بالرغم من هذه الاستجابة وتلك الموافقة على الزواج ظلت الكوامن النفسية والآلام قائمة، وبقيت زينب رضي الله عنها كارهة لزيد، متعالية عليه، فاشتكى منها إلى رسول الله ﷺ مراراً، فكان ﷺ ينصحه قائلاً: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ إلى أن نفذ حكم الله، وحدث الطلاق، وهو ما قررته الآيات الكريمة التي جاءت بعد الآية الكريمة التي معنا.

(١) المفردات: مادة قضى (٦٧٥).

## المفهوم الثالث: ضياع وضلال من يعصي الله عز وجل ويعصي رسوله ﷺ:

وقوله سبحانه ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ يفيد أن من يخالف قضاء الله عز وجل في أمر من الأمور التي قضى فيها، سواء أكان ذلك في سلوك الفرد أو سلوك الجماعة يعقبه حتماً الضياع والضللال، أعني ذهاب الجماعة بدداً، وكأنها جمع قد تفرقت به السبل فضاع وضل، فليس لها كيان، وليس لها وجود واضح، وإنما هي شيء خلى مكانه في هذا الوجود، وكذلك حال الفرد المؤمن حين يختار أمراً غير ما قضى الله، أي: حين يخالف المخالفة التي بيّنا وجهها، أعني اعتقاد أن ما يختاره هو أنفع له مما قضى به الله، يضيع ويضل ويذهب في متاهة عمياء، ويخلي مكانه في الجماعة المؤمنة، فلا يشارك في حياة ولا بناء، ومن هذا يبدو لنا أن العقوبة التي يمثلها جواب الشرط، أي: عقوبة من يختار في أمر حياته شيئاً بعدما قضى الله فيه أمره ليست إعداد عذاب أليم فحسب، وإنما هي ضلال بعيد، أي: هي عقوبة أقرب إلى أن تكون دنيوية فضلاً عن أنها عذاب أليم في الآخرة، وأكرر أن الرّدة مشروطة برفض أمر الله وتشويهه، والمجاهرة بأن غيره خيراً منه، والاعتقاد بأن الخيرة في غيره.

والمهم أن الآية نصت هنا على الضلال البعيد، وهو متضمن للعذاب الأليم في الآخرة، وكان الله سبحانه تعالى ينبه المؤمن والمؤمنة وجماعتهما، أي: ينبه الأمة الإسلامية أفراداً وجماعات بأن انسلاخكم عن أمر الله وقضائه، وجدكم في البحث عن أصول للسلوك والسياسة والتعامل والحياة فيما قضى فيه القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، يعقبه ضلالكم وضياعكم في هذه الحياة الزاخرة، وذهاب شملكم وقوتكم، وتخلفكم عن أداء دوركم في حركة الوجود، وعلى الجماعة المؤمنة أن تذهب إلى القرآن الكريم الذي يتضمن أمر الله عز وجل، والحديث الشريف الصحيح الذي



يتضمن أمر رسوله ﷺ، وتبحث وتفتش وتجتهد في الفهم، وأن تأخذ منهما، وهي تعتقد أنه ليس لها الخيرة في أمرها، مادام قد وقع القضاء فيه من جهة السماء، هذا بعض ما يفهم من الآية الكريمة في عموم دلالتها.

فالآية الكريمة تحدد في حياة المؤمن والمؤمنة هذا الأصل في أسلوب مرعد، يبدأ بدءاً حاسماً فينفي أصل الإيمان عن كل من يحاول أن تكون له الخيرة في أمر قد قضى فيه الرحمن، ومن مظاهر الإعجاز أن تكون الآية مرتبطة بجاذبة، ثم تنزل منزلتها من السورة فتقع من الآيات السابقة واللاحقة موقعاً متلائماً، فهي بالنسبة للآية السابقة امتداد لها.

والآية الكريمة وقعت بعد قوله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...﴾ هذا القول الكريم الذي يشتمل على ذكر الموصوفين بالصفات الحميدة التي يجب على كل مسلم ومسلمة أن يتصف بها حتى يكون ضمن صفوة المجتمع المسلم الذي تحقق فيه أصل الإيمان بسبب طواعيته في كل شيء لله سبحانه تعالى، وعدم اختياره أي شيء يخالف أمر الله عز وجل، حتى ولو كان في أخص أموره. (١)

#### **المفهوم الرابع: ينبغي على الأنبياء والمصلحين إظهار الحق وعدم الحرج فيه في إبطال المنكرات وتغيير سيء العادات:**

أراد الله عز وجل من عتاب نبيه ﷺ الوارد في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ إظهار صلابة الأنبياء في بيان الأحكام الإلهية، وأن يكون ظاهرهم وباطنهم سواء؛ لأن الله تعالى أعلم نبيه ﷺ بأن زيدا سيطلق زينب وينكحها هو ﷺ، فما الداعي لوعظه وقوله له ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾؟

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٢٨ - ٢٢١ بتصرف.

وقد أخفى النبي ﷺ ما أخبره الله عز وجل به من طلاق زينب وتزويجه إياها، لا أنه أخفى استحسانها وحبها لها، والحرص على طلاق زيد إياها. كما يدعيه البعض - كما مرَّ ذكره، فهذا لا يليق بمنصب النبوة، ولا يتفق مع الواقع، فإنه كان بإمكانه ﷺ أن يتزوجها وهي بكر، وهو يعرفها لأنها ابنة عمته أميمة بنت عبد المطلب، وكانت هي ترغب بذلك، بدليل أنه ﷺ لما خطبها لزيد، ظنت أنه خطبها لنفسه.

والخلاصة: أن قائل ذلك - إن تعمد - جاهل بعصمة النبي ﷺ عن مثل هذا، أو مستخف بحرمته.

وأحسن ما قيل في تأويل هذه الآية ما قاله القاضي عياض<sup>(١)</sup>، رحمه الله فقد قال: وأصح ما في هذا ما حكاه أهل التفسير عن علي بن الحسين أن الله تعالى كان أعلم نبيه أن زينب ستكون من أزواجه، فلما شكها إليه زيد قال له النبي ﷺ: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾، وأخفى منه في نفسه. ما أعلمه الله به من أنه سيتزوجها. ممَّا الله مُبْدِيهِ وَمُظْهِرِهِ بتمام التزويج وطلاق زيد لها.

وروى نحوه عمرو بن قائد الأسواري عن الزهري قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يعلمه أن الله تعالى يزوجه زينب بنت جحش، فذلك الذي أخفى في نفسه، ويصحح هذا قول المفسرين في قوله بعد هذا ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أن الله تعالى لم يُبَدِّ من أمره معها غير زواجه لها، فدل أنه الذي أخفاه عز وجل مما كان أعلمه به تعالى<sup>(٢)</sup>.

(١) وهذا الذي قاله القاضي عياض هو ما عليه أهل التحقيق من المفسرين والعلماء الراسخين كالزهري والقاضي بكر بن العلاء القشيري المالكي الذي ولي قضاء العراق. والقاضي أبي بكر بن العربي وغيرهم.  
(٢) الشفاء للقاضي عياض (١٦٦/٢، ١٦٧). ط. الحلبي ١٣٦٩هـ/١٩٥٠م. وانظر: روح المعاني للألبوسي (٢٤/٢٢).

وأخرج البخاري في تفسير قوله سبحانه: ﴿ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ عن أنس - رضي الله عنه - أنها نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة - رضي الله عنهما - وقد استوفى الحافظ ابن حجر في هذا الموضوع من كتاب التفسير بصحيح البخاري، تخريج حديث أنس من مختلف طرقه ومختلف رواياته، ثم قال: «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم والطبري، ونقلها كثير من المفسرين لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته عنها هو المعتمد» والحاصل أن الذي كان يخفيه النبي ﷺ هو إخبار الله إياه أنها ستصير زوجته، والذي كان يحمله على إخفاء ذلك: خشية قول الناس: تزوج امرأة ابنه، وأراد الله تعالى إبطال ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبني، بأمر لا أبلغ في الإبطال منه، وهو تزوج امرأة الذي يدعى ابناً، ووقوع ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم، وإنما وقع الخبط في تأويل متعلق الخشية، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

ويدل تحرج النبي ﷺ من هذا الزواج على أن للأعراف والعادات تأثيراً كبيراً في المجتمعات والسلوك.

وقوله تعالى: ﴿ وَخَشِيَ النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ ﴾ كلام سيق على طريقة الإثارة، والإلهاب، والتوبيخ، وفي الحق الثابت أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان أشد أهل الخشية خشية لله، وفي حديث المغيرة المروي في صحيح البخاري: «إِنْ كَانَ النَّبِيُّ ﷺ لِيُقَوْمَ أَوْ لِيُصَلِّيَ حَتَّى تَرْمَ قَدَمَاهُ أَوْ سَاقَاهُ. فَيَقَالُ لَهُ، فَيَقُولُ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»<sup>(٢)</sup>.

(١) فتح الباري (٣٧١/٨).

(٢) رواه البخاري في التهجد (١١٣٠)، وانظر (٤٨٣٦، ٦٤٧١)، ورواه مسلم في صفة القيامة (٢٨١٩، ٢٨٢٠).

وعن علقمة قال: «سألت أم المؤمنين عائشة، قلت: يا أم المؤمنين، كيف كان عمل النبي ﷺ، هل كان يخص شيئاً من الأيام؟ قالت: لا كان عمله ديمة، وأيكم يستطيع ما كان النبي ﷺ يستطيع» (١).

وتاريخه في الدعوة يكشف مواقف حاسمة، لا يرقب فيها إلا الله، ولا يبالي في أمر ربه لأوة لأواء، وذلك واضح في موقفه الحاسم ضد الجاهلية، والوثنية، وحين قال عندما أطلق الصيحة الأولى لدعوة الحق: «والله يا عمي لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه»، ووراء هذه الإثارة التي تشحذ النفس في دعوة الحق، وتجدد همتها بالنهوض بأعبائها الجليلة، إشارة حاسمة إلى حملة الرسالة وأهل البلاغ، أن اصدعوا بأمر الله في غير لجلجة، ولا خشية، وأن ارموا في وجه الباطل في صلابة، وقوة، غير ناظرين إلا إلى الله، ولا معتدين بغير حوله وطوله، فلا ينبغي أن يعظم في نفس الدعوة أمر إلا أمر الله، ومن الضروري أن يتوقر لهم قدر من الشجاعة الأصيلة الواعية، النابعة من خشية الله، وفي ضوء هذه اللمحة يسقط من كوكبة الدعوة كل دعي متلجلج، يُقيم في نفسه لغير الله حساباً، وبهذا يبقى حملة لواء الدعوة الحقيقيين، قلة قليلة، فيهم إثارة من عزائم النبيين، وصلابة الصديقين، هم قلة وإن لبس رداءهم حشد هائل ممن يختلون الدنيا بالدين، ويلبسون مسوح الرهبان وهم ينطوون على سرائر الشياطين. (٢).

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٦٦)، ومسلم (٧٨٣)، واللفظ للبخاري.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ص ٣٤٤.

## المفهوم الخامس: حب النبي ﷺ واتباعه يقودان إلى أعظم النعم وأشرف المراتب:

لما نزل قوله تعالى: ﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَاِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾، وقوله: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾، وأصبح يدعى زيد بن حارثة فحزن لذلك لأنه كان شديد الحب والتعلق بالنبي ﷺ، وهو الذي آثر أن يبقى مع النبي ﷺ عندما خيّر بين الذهاب مع أبيه وبين البقاء معه فأثر البقاء مع النبي ﷺ، وهذا ما دعا النبي ﷺ إلى تبنيه فلما نزلت هذه الآيات في تحريم التبني وأصبح يدعى زيد بن حارثة حزن لذلك حزناً شديداً فأنزل الله تعالى تطيباً لخاطره وإشارة إلى أن هذا الارتباط بالنبي ﷺ لن يتأثر بدعوته إلى آبائه من النسب فأنزل الله تعالى في شأنه هذه الآية: ﴿ وَإِذْ نَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَنَخَشِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَنَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا وَحَنَّكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ (١)

وفي هذا تشریف من الله لزيد بخصيصة لم يمنحها لأحد من أصحاب الرسول ﷺ وهي أنه سماه في القرآن الكريم ﴿ فَلَمَّا قَنَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا ﴾ وهذه ميزة عظيمة، وشرف ما بعده شرف، ومنحة علوية لهذا الصحابي الكريم تؤنسه وتُعوضه من الفخر بأبوة سيد الخلق محمد ﷺ. فهو لا يزال متردداً على السنة المؤمنين، ومذكوراً على الخصوص عند رب العالمين، إذ القرآن الكريم كلام الله القديم، وهو باق لا يبيد؛ فاسم زيد هذا في الصحف المكرمة، المرفوعة المطهرة، تذكره في التلاوة السَّفَرَةَ الكرام البررة.

(١) الأحزاب: ٣٧.

وليس ذلك لاسم من أسماء المؤمنين إلا لنبي من الأنبياء، ولزيد بن حارثة تعويضاً من الله تعالى له مما نزع عنه.<sup>(١)</sup>

والمراد بالذي أنعم الله عليه، وأنعم عليه الرسول ﷺ في قوله سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ زيد بن حارثة ولكنه ذكره باسم الموصول، أي قال: ﴿لِلَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَأَنَّعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ولم يقل «زيد» كما قال بعد ذلك: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ للشاء البالغ على زيد، والتنويه بقربه من الله ورسوله، فهو ممن أنعم الله عليهم، وهذه ليست منزلة قريبة؛ لأن زيدا بها صار من أصحاب الصراط المستقيم، وهذا رجاء كل مسلم يضرع إلى الله في صلاته، أن يهديه صراط الذين أنعم الله عليهم، وقد أنعم الله عز وجل على زيد حين هداه لما هداه إليه من أعمال البر التي صار بها صاحب منزلة عالية يذكره لسان الحق في كتابه المبين، وقوله: ﴿وَأَنَّعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ اعتداد بتعمة النبي عز وجل على زيد، من حيث ذكرت مع نعمة الله عليه، وكان عز وجل يُقر به ويحبه<sup>(٢)</sup>، فكان يقال لزيد: الحُب، ويقال لابنه أسامة: الحُبُّ ابن الحُب، قالوا: قالت عائشة رضي الله عنها: ما بعثه رسول الله ﷺ في سرية إلا أمره عليها، ولو عاش بعده لاستخلفه، وقد روي أن العباس وعلي بن أبي طالب سألا رسول الله ﷺ: أي أهلك أحب إليك؟ فقال ﷺ: «أحب أهلي إلي فاطمة بنت محمد»، قال: يا رسول الله؛ ما نسألك عن فاطمة؟ قال ﷺ: «فأسامة بن زيد بن حارثة الذي أنعم الله عليه، وأنعمت عليه»<sup>(٣)</sup>

(١) التفسير المنير (٢٢/٢٧).

(٢) من أسرار التعبير القرآني ص ٣٤٢.

(٣) رواه الترمذي (٢٨١٩)، والحاكم في المستدرک (٤١٧/٢، ٢٩٦/٣)، وابن كثير في تفسيره (٤١٩/٤)، والسيوطي

في الدر المنثور (٣٠١/٥).

## المفهوم السادس: الرفق بالزوجة له أثر كبير في إصلاح البيوت واستقرارها:

وقوله ﴿وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ فيه معنى أن المرأة مهما كانت متعالية ومعتزة هي في حاجة إلى رفق الزوج، وإن كان في تقديرها ممن لا يعرجون إلى رفيع مكانتها، وفيه أن تقوى الله ومراقبته في أمر النساء، وسياسة المرأة مما يعين على إصلاح ذات البين، في بيوت المسلمين، ولولا أن طلاق زيد لزينب رضي الله عنهما شيء قدره الحق سبحانه تعالى ليبنى عليه أصلاً في أصول التشريع، لكان زيد بتقواه وسماعه وصية رسول الله ﷺ جديراً بأن يُصلح ذات بينه. (١)

## المفهوم السابع: أمر الله تعالى لا مفر منه وهو واقع لا محالة:

قوله سبحانه تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فاصلة واقعة أحسن موقع، فكل الذي مضى من زواج زيد، وطلاقه، ثم زواج محمد صلوات الله عليه من زينب، كل ذلك بأمر الله، وأمر الله مفعول لا محالة، فهو يجري على أعناق الوجود، وفي هذه الفاصلة صوت الربوبية الذي يعلو الوجود كله، ومثل هذه الكلمة في القرآن قوله: ﴿رَأَيْنَا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهٖ لَقَدِيرُونَ﴾ (٢)، وقوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَمًا﴾ (٣)، وقوله: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (٤)، إلى آخر هذه الآيات التي تصف الاقتدار الفائق والملك الأعلى.

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٣٤٣.

(٢) المؤمنون: ١٨.

(٣) الواقعة: ٦٥.

(٤) غافر: ١٦.

## المفهوم الثامن: ليس على النبي ﷺ أي حرج في شيء هو من أمر الله عزوجل:

وقوله: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ كأنه توكيد أو تفسير لقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ أي: أنه مادام أمر الله شيئاً مقدوراً ولا محالة، فكيف يكون على محمد حرج في شيء هو من أمر الله، والآية دفاع عن النبي ﷺ، وإبطال لما قد تجري به السنة أهل النفاق في مثل هذا الموقف، وقد رجف بعضهم بأن محمداً يتزوج زوجة مُتَبَنَاهُ، وقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ بهذا الإبهام الكامن في الاسم الموصول، يجعل التعبير أوسع مدلولاً، من أن يكون محدداً بهذه الحادثة، فكل ما تميّز به رسول الله ﷺ مما هو من خصوصياته، داخل في قوله: «فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ»، ولهذا قال قتادة: فيما أحل الله له، وقال الحسن فيما خصه به من صحة النكاح بلا صداق، وقال الضحاك: «من الزيادة على الأربع» وكان زواج الرسول ﷺ بزَيْنَبِ رضي الله عنها زواجاً من النوع الخاص به، فقد روت كتب السير وصحيح البخاري والترمذي أنها - رضي الله عنها - كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات»<sup>(١)</sup>.

وقد أخرج مسلم وغيره عن أنس قال: لما انقضت عدة زينب، قال رسول الله ﷺ لزَيْدٍ: «فاذكرها علي»<sup>(٢)</sup> قال: فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب، أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً

(١) سبق تخريجه.

(٢) أي: اخطبها لي من نفسها.



حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن»<sup>(١)</sup> وهذا يعني أن زواج الرسول ﷺ من زينب رضي الله عنها كان بلا خطبة، ولا شهادة، فهو زواج من النوع الخاص به عليه الصلاة والسلام، وما كان عليه من حرج فيما فرضه الله .

والإبهام في قوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ يشمل ذلك، ويشمل غيره من الأعباء الثقيلة التي ينهض بها النبي عليه الصلاة والسلام في أمر البلاغ والدعوة، وقوله: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ تأكيد لمعنى نفي الحرج، أي كيف يكون حرج فيما هو سنة قد سنّها الله في النبيين وأصحاب الرسالات من قبل محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقد قلت: إن الإبهام في قوله ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ﴾ يشمل أعباء الرسالة والبلاغ كلها، لقوله بعد ذلك ﴿الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ فذكر أهل البلاغ بعدما بين أن الذي فرض على محمد ﷺ: «سنة الله في الذين خلوا من قبل» فهو واحد من أهل البلاغ.. الآية تشمل نفي الحرج عنهم فيما أحل الله لهم، ونفي الحرج عنهم فيما يجدون من أعباء البلاغ، بمعنى أن الله من ورائهم، وهو ناصرهم لا محالة، مهما كان هناك من صعوبات وأذى.

وقلنا إن قوله: ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ فُسر بالنبيين، وأهل البلاغ، ونراه لا يضيق بجمع دعاة الحق من ورثة النبيين، أي: هؤلاء الذين حملوا على عواتقهم تبليغ رسالات النبيين، وتحملوا في سبيل هذا البلاغ ما يحمله دعاة الخير، من صنوف الأذى، والإعنات، وواضح أن هؤلاء الورثة ليسوا داخلين فيما خصّ الله به النبيين من أمور خاصة بهم، هم شركاؤهم في هذا الجانب الذي هو أعباء البلاغ، ومواجهة الباطل الشرس، مواجهة لا تعباً بشراسته، بل إنها قد تُقدّم الحياة ثمناً لبلاغ كلمة الحق، والتاريخ عامر بسير هؤلاء الأبطال.

(١) رواه مسلم في النكاح (١٤٢٨).

والآية الكريمة التي هي: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ تربط رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بهذه السلسلة النورانية، التي يمسك طرفها الأول آدم عليه الصلاة والسلام، ويمسك طرفها الثاني محمد عليه الصلاة والسلام، ويقف من بعده من رجال أمته الشرفاء الذين يحفظون هذا الميراث، ويبلغونه أجيال الناس حتى تقوم الساعة. (١)

ثم يؤكد الله عز وجل نفاذ ما قدره وقضاه فيقول: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ قول وصيغ هذا القول على طريقة التوكيد، فهو كقولهم: ليل أليل، ويوم أيوم، وظل ظليل، فهو توكيد لنفاذ ما قدره الله عز وجل وقضاه.

وحين تقارن بين قوله في الآية السابقة: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ وقوله هنا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا﴾ تلحظ أن الفاصلة الثانية أوكد من الأولى، وذلك لأن ما قررته آية الفاصلة الثانية أشمل وأكثر للأعباء والصعاب التي يواجهها النبيون وأهل البلاغ؛ لأنها تشمل كل ما يتصل بذلك من أذى، وعناء، فناسبها التوكيد الذي يقرر أن ذلك قدر هؤلاء، وأنهم منتهون إلى الفوز حتماً، لأن الله قدر أن يدفع الحق الباطل، فإذا هو زاهق ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾، والآية الأولى قررت أصلاً واحداً من أصول الإسلام، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْبِغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ جاء صفة للذين خلوا من قبل، فهو في محل جر، أو هو في محل رفع، أي: صفة مقطوعة للمدح، وقد يكون في محل نصب، أي: أمدح الذين يبلغون رسالات الله، وقوله: ﴿يَخْشَوْنَهُ، وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ تعبير فيه توكيد، وتقرير، بمعنى أن هؤلاء المبلغين يخشون الله ثم هم لا يخشون أحداً إلا الله، وصفهم أولاً بالخشية، ثم قصر هذه الخشية التي تكون منهم على الله، أي: هم لا يخشون طواغيت الضلال، وأهل البغى، ولو كانت في أيديهم الصَّوْلَةُ، والدولة، وإنما يصدعون بأمر الله في غير هيبة، ولا

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٣٤٨، ٣٤٩.

خشية، لأن قلوبهم لا تعرف إلا خشية الله، ليس الرجال الذين «بَرَمَجَتْ» الأنظمة الفاجرة ألسنتهم، ليسوا من أهل البلاغ، وإن طالت لحاهم، وتكورت عمائهم، أهل البلاغ لهم سيماً لا تشق على البصر.

وحين ندقق النظر في هذا القَصْرِ نجده قصراً مبنياً على عدم الاعتداد بغير المذكور، أي: أن أهل البلاغ - ومنهم النبيون - يَخْشون الموت، ويخشون المهلكات، ولكنها خشية لا ينظرون إليها، ولا يعتدون بها، إذا قيست بخشية الله سبحانه، والخشية كما يقول الراغب: الخوف الذي يشوبه تعظيم، وهذه الآية التي تقرر أن النبيين وأهل البلاغ - ومنهم محمد عليه الصلاة والسلام - لا يخشون أحداً إلا الله، تؤكد ما ذهبنا إليه في بيان قوله: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخَشَّهُ﴾، وأنه سيق مساق الإثارة والإلهاب، وأنه لم يكن من النبي عليه الصلاة والسلام خشية من الناس، وإنما خشيته الدائمة من الله، وإن لم يخش أحداً سواه، والآية تصف خُلُقُ الدُّعاة، وأنه يقوم على أساس الشجاعة الثابتة، والجرأة الواضحة، التي لا تداهن، ولا تمالي، ولا تخشى في الله لومة لائم، وكل ذلك في حدود الحجة القوية، والفهم المستتير، وإلا كانت الجرأة ضرباً من الحمافة، ونوعاً كريهاً من التتبع، وتأمل ﴿يَبْلِغُونَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ تجده دالاً على أنهم قد فهموا الرسالة، وأدركوا مقاصدها، وأصولها، وفروعها، وليسوا هم العامة الذين تراهم في الجماعات الفوغائية، والتنظيمات التي ربما انتمت إلى أصول غير معلومة.

## الفصل الرابع

### قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش

- المبحث الأول: الحكمة من هذا الزواج
- المبحث الثاني: التيسير على الرسول ﷺ في الزواج
- المبحث الثالث: فريضة الحجاب على نساء النبي ﷺ وآداب الولائم
- المبحث الرابع: عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين
- المبحث الخامس: فريضة الحجاب على النساء المسلمات



## الفصل الرابع

### قصة زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش

يقول تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا <sup>(١)</sup> زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ أي: فلما قضى زيد حاجته من نكاح السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها طلقها، ولما انقضت عدتها ولم يعد في قلب زيد رضي الله عنه ميل إليها، ولا وحشة من فراقها، جعلها الله عز وجل زوجة لرسول الله ﷺ بلا واسطة عقد أصالة أو وكالة، فقد صح من حديث البخاري أنها رضي الله عنها كانت تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات <sup>(٢)</sup>.

وأخرج أحمد ومسلم وغيرهما عن أنس قال: « لما انقضت عدة زينب قال رسول الله ﷺ لزيد: اذهب فاذكرها علي، قال، فانطلق زيد حتى أتاها وهي تخمر عجينها، قال: فلما رأيتها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها أن رسول الله ﷺ ذكرها، فوليتها ظهري، ونكصت على عقبي، فقلت: يا زينب أرسل رسول الله ﷺ يذكرك، قالت: ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول الله ﷺ ودخل عليها بغير إذن <sup>(٣)</sup>.

فمعنى (زوجناكها) جعلناها لك زوجة، وأمرناك بتزوجها، ولم نحوجك في تزوجها إلى ولي من الناس يعقد لك عليها، تشرifaً لك ولها، فلما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ولا عقد ولا مهر، وهذا من خصوصياته صلى الله تعالى عليه وسلم <sup>(٤)</sup>.

(١) الوطر: الحاجة والشهوة والمحبة، والجماع، أي: لم يبق له بها حاجة الجماع وطلقها، وقيل: إن قضاء الوطر يشعر بانقضاء العدة، لأن القضاء الفراغ من الشيء على التمام. روح المعاني (٢٢/٢٦٠٢٥).

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٢٤٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد الحديث (٢٤٧٠).

(٤) فتح البيان لصديق حسن خان، (٩٦/٩٧، ٩٧).



المبحث الأول  
الحكمة من هذا الزواج





## الحكمة من هذا الزواج

يقول الله تعالى ﴿ زَوْجَنكِهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي زَوْجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾<sup>(١)</sup>. أي: زوجناك بزينا وبهي مطلقه زيد الذي تبنيته، لكي لا يكون على المؤمنين حرج وضيق ومشقة في حق التزوج بمطلقات الأبناء من التبني، خلافاً لما كانت تفعله العرب في الجاهلية، فقد كانوا يعتقدون أنه يحرم عليهم الزواج بمطلقات من تبنوه، كما يحرم عليهم نساء أبنائهم حقيقة، فأخبرهم الله عز وجل بالقول وبالفعل أن نساء الأدياء حلال لهم، ﴿ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطْرًا ﴾ إذا طلقهن الأدياء، وانقضت عدتهن، ولم يبق لهم حاجة فيهن - أو ماتوا عنهن، أو فسخوا نكاحهن - فإن لهم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، واستدل بهذا على أن ما ثبت له ﷺ من الأحكام ثابت لأمته إلا ما علم أنه من خصوصياته عليه الصلاة والسلام، بدليل، «وكان أمر الله» أي: ما يريد تكوينه من الأمور أو مأموره الحاصل بكن «مفعولاً» أي: كائناً لا محالة، لا يمكن دفعه، فقد زوجك الله عز وجل بها، وأبطل حكم التبني بهذا التشريع الخالد.

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٧).



المبحث الثاني  
التيسير على الرسول ﷺ في الزواج



## التيسير على الرسول ﷺ في الزواج

لما كان الله عز وجل قد أرسل الرسول الكريم ﷺ سيدنا محمد ﷺ، نبي الرحمة إلى الناس جميعاً، والبشر فيهم ذكور وإناث، والذكور يحتاجون إلى من يعلمهم، لذلك فإن الرسول الكريم ﷺ من السهل عليه تعليمهم، أما الإناث فمن ذا الذي يعلمهن أمور دينهن؟ ومن ذا الذي يعتني بأمورهن، ويعلمهن آداب الإسلام إلا النساء، خاصة تعليمهن دقائق الأمور التي لا يطلع عليها إلا النساء، لذلك فإن الله عز وجل أباح لرسوله الكريم ﷺ أن يتزوج من شاء من النساء. لكن بشروط وضعها الله عز وجل له. لتكون هؤلاء الزوجات الفضليات مربيات ومعلمات لنساء المسلمين.

ولنستمع إلى تلك الآيات الكريمة التالية، وهي توضح لنا ما شرعه الله عز وجل لرسوله ﷺ في أمر الزواج الخاص ببيت النبوة.

يقول تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أَجْرَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَأُمَّرَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٢﴾ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُفْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ أَبْنَعِيَّتِ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ تَقْرَأَ عَمِّيَّهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾ (١)

(١) الأحزاب: ٥٠ - ٥٢.

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنواع الأنكحة التي أحلها لرسوله ﷺ، فبين أنه أحل له عليه الصلاة والسلام أصنافاً أربعة من النساء.

أولها: صنف يدفع له ﷺ المهر، فيتزوج بهن بعقد شرعي كسائر المسلمين، وهن «المهورات»، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما مات رسول ﷺ حتى أحل له النساء»<sup>(١)</sup>

ثانيها: وصنف ثان يتمتع بهن رسول الله ﷺ بملك اليمين، وهن المملوكات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي: أحل الله لك ما ملكت يمينك مما رده الله عليك من الكفار، والغنيمة قد تسمى قَيْناً، أي: مما أفاء الله عليك من النساء بالمأخوذ على وجه القهر والغلبة»<sup>(٢)</sup>

الصنف الثالث: أحل الله عز وجل له نساءً من أقاربه من نساء قريش، وبني زهرة، وهن المهاجرات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكِ وَبَنَاتِ خَلَّتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ قال القرطبي: أي: أحلنا لك ذلك زائداً من الأزواج اللاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك، على قول الجمهور. الذين يقولون: إن المراد من قوله ﴿إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: أزواجك الكائنات عندك، لأنهن قد اخترنك على الدنيا والآخرة. لأنه لو أراد أحلنا لك كل امرأة تزوجت وآتيت أجرها، لما قال بعد ذلك ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ﴾ لأن ذلك داخل فيما تقدم، لكن القرطبي

(١) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، الحديث (٢٢٣٠) وقال عنه: حديث حسن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٨٩).

رحمه الله رد على هذا الكلام بقوله: قلت: وهذا لا يلزم، وإنما خص هؤلاء بالذكر تشریفاً، كما قال تعالى (١) ﴿ فِيهَا فَكِهَةٌ وَمَخْلٌ وَرَمَانٌ ﴾ (٢) وقيد سبحانه تعالى جواز زواج الرسول ﷺ من قريباته المهاجرات دون غيرهن لأنه «من لم يهاجر لم يكمل، ومن لم يكمل لم يصلح للنبي ﷺ الذي كمل وشرف وعظم ﷺ» (٣).

الصنف الرابع: نساء يتزوج بهن الرسول ﷺ بدون مهر، ومن غير شهود، ومن غير ولي، وهن الواهيات أنفسهن له، وإليه الإشارة بقوله سبحانه تعالى: ﴿ وَأَمْرَةٌ مُؤْمِنَةٌ إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا ﴾ أي: يتزوج بها ﴿ خَالِصَةً لِّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال القاضي ابن العربي: روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما قالوا: لم يكن عند النبي ﷺ امرأة موهوبة.

ثم يقول: وقد بينا الحديث الصحيح في مجيء المرأة إلى النبي ﷺ ووقوفها عليه، وهبتها نفسها له من طريق سهل وغيره في الصحاح، وهو القدر الذي ثبت سنده، وصح نقله.

والذي يتحقق أنها لما قالت للنبي ﷺ: وهبت نفسي لك، فسكت عنها، حتى قام رجل فقال: زوجنيها يا رسول الله إن لم تكن لك بها حاجة.

ولو كانت هذه الهبة غير جائزة لما سكت رسول الله ﷺ، لأنه لا يقر على الباطل إذا سمعه، حسبما قررناه في كتب الأصول.

(١) المرجع السابق (٢/٢٤٩٠).

(٢) سورة الرحمن الآية (٦٨).

(٣) المرجع السابق (٢/٢٤٩٠).



ويحتمل أن يكون سكوته، لأن الآية قد كانت نزلت بالإحلال.  
ويحتمل أن يكون سكت منتظراً بياناً، فنزلت الآية بالتحليل والتخيير،  
فاختار تركها وزوجها من غيره.

ويحتمل أن يكون سكت ناظراً في ذلك حتى قام الرجل لها طالباً.  
وقد روى مسلم، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: كُنْتُ أَغَارُ  
عَلَى اللَّاتِي وَهَبَنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَقُولُ وَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا فَلَمَّا  
أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوِي إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾  
قَالَتْ: «قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبِّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ»<sup>(١)</sup>

وفي رواية أخرى أنها كانت تقول: «أما تستحي المرأة تهب نفسها  
لرجل؟ حتى أنزل الله عز وجل ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوِي إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمَنْ أَبْغَيْتَ  
مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾ فقلت: «إن ربك يسارع لك في هواك»<sup>(٢)</sup>

فاقتضى هذا اللفظ أن من وهبت نفسها للنبي عِدَّة، ولكنه لم يثبت  
عندنا أنه تزوج منهن واحدة أم لا.<sup>(٣)</sup>

وهذا الصنف من النساء «الواهيات أنفسهن» خاص بالرسول ﷺ،  
تشريفاً له وتكريماً، ومراعاة لظروفه الخاصة، المحيطة بشخصه الكريم،  
فقد كانت بعض النساء تهب نفسها لرسول الله ﷺ طمعاً في نيل شرف  
الانتساب له، لتقوم بخدمته، وتصبح أماً للمؤمنين في بيت النبوة، وهو  
شرف لا يضاويه شرف. روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:  
«كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول: أَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا؟  
فلما أنزل الله تعالى: ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُعْوِي إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ ﴾

(١) رواه البخاري (٤٧٨٨)، ومسلم في الرضاع (١٤٦٤)، واللفظ لمسلم.

(٢) رواه مسلم في الرضاع (١٤٦٤).

(٣) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٥٥٨، ١٥٥٩).

فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴿ قلت: «ما أرى رَبَّكَ إلا يسارع في هَوَاك»<sup>(١)</sup>

وإتماماً للفضل عليه، والتوسعة له في هذا الشأن، فقد ترك الله عز وجل له الخيار في أن يضم إلى عصمته من يشاء ممن يعرضن له أنفسهن من الواهبات، ويرد من يشاء، وأن يمस्क من أزواجه من يرغب، ويطلق منهن من يريد، وأن يؤخر من شاء من زوجاته، ويؤخر نوبتها، ويتركها ولا يأتيها من غير طلاق، ويضم إليه من شاء منهن ويضاجعها ويبيت عندها، وقد كان القسم واجباً عليه حتى نزلت هذه الآية، فارتفع الوجوب وصار الخيار إليه، وأن ينكح من شاء من نساء أمته، ويترك نكاح من شاء منهن. كل ذلك بقصد التوسعة عليه، ولئلا يبقى لواحدة منهن منة عليه ﷺ<sup>(٢)</sup>، وفي ذلك يقول الله عز وجل ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مَنِ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾. ثم بين سبحانه تعالى الحكمة من هذا التخيير فقال جل ثناؤه: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَلَيْهِمْ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾.

أي: ذلك التخيير الذي خيرناك في أمر أزواجك أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنن، ويرضين بصنيعك، لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله عز وجل، كان أطيّب لأنفسهن، فيسعين لمرضاتك، ولا يشعرن بالحزن والألم.

وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت، وهو تعالى العليم بما يظهر العباد ويخفون، الحليم الذي يضع الأمور في نصابها، ولا يعاجل

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير الحديث (٤٧٨٨)، ومسلم بلفظ: وأقول: أما تستحي المرأة أن تهب نفسها لرجل؟ الحديث (١٤٦٤)، والنسائي في النكاح (٥٤/٦) وفي عشرة النساء (٤٤) وفي التفسير (٤٣٤) والحاكم في المستدرک (٤٣٦/٢) وصححه ووافقه الذهبي، والواحدي في أسباب النزول ص ٢٧٢.  
(٢) فتح القدير (٣٦٦/٤) وقبس من نور القرآن الكريم (١٨٨/١٠) بتصرف.

بالعقوبة، وكل ذلك مما يُدبّرهُ الله بعلمه وحلمه (١).

روى البخاري عن معاذ، عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ كان يستأذن في يوم المرأة منا، بعد أن نزلت هذه الآية ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُمْ وَتُقْوَى إِلَيْكَ مِنْ نَشَاءٍ وَمَنْ أَنْعَمْتَ مَنْعَ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ﴾ فقلت لها: ما كنت تقولين؟ قالت: كنت أقول له: «إن كان ذاك إليّ فإني لا أريد يا رسول الله أن أوثر عليك أحداً» (٢).

ولما كان النبي ﷺ قد أمر بتخيير نسائه، بين البقاء معه في كنف الزوجية على الحالة التي كان يعيشها، من شظف العيش، وقلة المال، وبين أن يستمتع بالحياة الدنيا، ويرغب في زينتها ومتاعها، فيطلقهن الرسول ﷺ عند ذلك، ويتركهن على الحالة التي يرغبنها، واخترن جميعهن البقاء معه ﷺ، وآثرن الدار الآخرة على زينة الحياة الدنيا، أكرمهن الله عز وجل على هذا الإيثار والاختيار، بأن منع رسوله ﷺ من الزواج من غيرهن، فقد حرم غيرهن عليه ﷺ، حتى ولو كن فائتات في الجمال، ومنعه من طلاقهن (٣)، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿ لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ مِمَّنْ أَوْجَحْتَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾.

وهذه الآية اختلف فيها العلماء:

فقال بعضهم: إن الله سبحانه تعالى حرم على رسول الله ﷺ أن يتزوج على نسائه مكافأة لهن بما فعلن من اختيار الله ورسوله والدار الآخرة لما خيرهن رسول الله ﷺ بأمر الله له بذلك. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، والحسن، وابن سيرين، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وابن زيد، وابن جرير.

(١) قيس من نور القرآن الكريم (١٨٩/١٠).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير، الحديث (٤٧٨٩).

(٣) قيس من نور القرآن الكريم (١٨٩/١٠، ١٩٠). بتصرف، وتفسير المراغي (٢٦/٣) بتصرف.

وقال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما حرم الله عليهن أن يتزوجن من بعده حَرَّمَ عليه أن يتزوج غيرهن.

وقال أبي بن كعب وعكرمة وأبو رزين: إن المعنى: لا يحل لك النساء من بعد الأصناف التي سماها الله. قال القرطبي: وهو اختيار ابن جرير. وقيل: هذه الآية منسوخة بقول الله سبحانه تعالى (١) ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّدُ الْبَتَّاءَ ﴾ (٢).

وبالسنة فقد روت السيدة عائشة رضي الله عنها أن هذا التحريم قد ألغي قبل وفاة النبي ﷺ وتُرِكَتْ له حُرِيَّةُ الزَّوْجِ، ولكنه ﷺ لم يتزوج كذلك غيرهن بعد هذه الإباحة، فَكُنْ هُنَّ أُمَّهَاتُ الْمُؤْمِنِينَ، روى الترمذي بسنده عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: «ما مات رسول الله ﷺ حتى أُحِلَّ له النساء» (٣).

وبهذا قالت السيدة عائشة وأم سلمة وعلي بن أبي طالب وعلي بن الحسين وغيرهم، وهذا هو الراجح (٤).

وقوله: ﴿ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ مِنْ أَنْزَلِجِ ﴾ أي: وليس لك أن تطلق واحدة منهن أو أكثر، وتتزوج بدل من طلقت منهن، ﴿ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ ﴾ أي: لا يحل لك التبديل بأزواجك ولو أعجبك حسن غيرهن ممن أردت أن تجعلها بدلاً من إحداهن. وهذا التبديل أيضاً من جملة ما نسخه الله في حق رسوله على القول الراجح ﴿ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ﴾ استثثناء من النساء لأنه يتناول الحرائر والإماء. ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴾ أي: مراقباً حافظاً مهيمناً لا يخفى عليه شيء، ولا يفوته شيء (٥).

(١) فتح القدير (٤/٣٦٧).

(٢) سورة الأحزاب الآية (٥١).

(٣) رواه الترمذي في كتاب التفسير، الحديث (٣٢٣٠) وحسنه.

(٤) فتح القدير السابق.

(٥) فتح القدير (٤/٣٦٧).



### المبحث الثالث

فريضة الحجاب على نساء النبي ﷺ وآداب الولاة



## فريضة الحجاب على نساء النبي ﷺ وآداب الولاثم

يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءَابَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَآتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ (١)

أسباب نزول قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ...﴾ عن أنس رضي الله عنه قال: قال عمر رضي الله عنه: قلت: «يا رسول الله، يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب» (٢).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فَطَعِمُوا، ثم جلسوا يتحدثون، وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر، فجاء النبي ﷺ ليدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا، فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل، فألقى الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ﴾ الآية (٣).

(١) سورة الأحزاب الآيات (٥٣-٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، الحديث (٤٧٩٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، الحديث (٤٧٩٢).



وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بُنِيَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بَزِينَةُ بِنْتُ جَحْشٍ بِخَبْزٍ وَلَحْمٍ، فَأُرْسِلَتْ عَلَى الطَّعَامِ دَاعِيًا، فَيَجِي قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرَجُونَ، ثُمَّ يَجِي قَوْمٌ فَيَأْكُلُونَ وَيَخْرَجُونَ، فَدَعَوْتُ حَتَّى مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُو، فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا أَجِدُ أَحَدًا أَدْعُوهُ، قَالَ: «فَارْفَعُوا طَعَامَكُمْ» وَبَقِيَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٌ يَتَحَدَّثُونَ فِي الْبَيْتِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَانْطَلَقَ إِلَى حِجْرَةِ عَائِشَةَ، فَقَالَ «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، فَقَالَتْ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ، كَيْفَ وَجَدْتِ أَهْلَكَ؟ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ، فَتَقَرَّرَى حِجْرَةَ نِسَائِهِ كُلَّهِنَّ، يَقُولُ لَهُنَّ كَمَا يَقُولُ لِعَائِشَةَ، وَيَقُلْنَ لَهُ كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ، ثُمَّ رَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ، فَإِذَا ثَلَاثَةٌ مِنْ رَهْطٍ فِي الْبَيْتِ يَتَحَدَّثُونَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْحَيَاءِ، فَخَرَجَ مِنْطَلِقًا نَحْوَ حِجْرَةِ عَائِشَةَ، فَمَا أَدْرِي: أَخْبَرْتَهُ أَوْ أُخْبِرَ أَنَّ الْقَوْمَ خَرَجُوا، فَرَجَعَ حَتَّى إِذَا وَضَعَ رِجْلَهُ فِي أَسْكَفَةِ الْبَابِ دَاخِلَةً وَأُخْرَى خَارِجَةً، أَرَخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ» <sup>(١)</sup>. وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: أَوْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ بَنَى بَزِينَةَ بِنْتُ جَحْشٍ، فَأَشْبَعَ النَّاسَ خُبْرًا وَلَحْمًا، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى حُجْرَةِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، كَمَا كَانَ يَصْنَعُ صَبِيحَةَ بَنَائِهِ، فَيَسْلُمُ عَلَيْهِنَ، وَيَدْعُو لَهُنَّ وَيَسْلُمُنَّ عَلَيْهِ، وَيَدْعُونَ لَهُ، فَلَمَّا رَجَعَ إِلَى بَيْتِهِ رَأَى رَجُلَيْنِ جَرَى بِهِمَا الْحَدِيثَ، فَلَمَّا رَأَاهُمَا رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَى الرَّجُلَانِ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ رَجَعَ عَنْ بَيْتِهِ وَثَبًا مُسْرِعَيْنِ، فَمَا أَدْرِي أَنَا أَخْبَرْتَهُ بِخُرُوجِهِمَا أَمْ أُخْبِرَ، فَرَجَعَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَأَرَخَى السِّتْرَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ وَأَنْزَلَتْ آيَةَ الْحِجَابِ» <sup>(٢)</sup>.

الآداب والإرشادات الربانية في كيفية العلاقة بين الصحابة والرسول ﷺ.

في هذه الآية الكريمة حدد الله عز وجل العلاقة التي يجب أن تكون بين الصحابة ورسول الله ﷺ، وأرشدهم عز وجل إلى ما يجب عليهم

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير الحديث (٤٧٩٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير الحديث (٤٧٩٤).

نحوه من الاحترام والتعظيم، في خلوته، وفي الملاء، فأبان سبحانه تعالى أنه يجب عليهم ألا يزعموه إذا كان في خلوته بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ﴾ فلا يدخلوا عليه ﷺ بدون إذن، ثم إن أذن لهم بالدخول في بيته إلى طعام فليدخلوا لكن غير ناظرين إناه - أي - نضجه، فإذا أذن لهم إلى طعام وكانوا ناظرين إناه لا يكون ذلك إذناً، ولا يصح دخولهم، ولهذا ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذه الآية نزلت في حق جماعة معينة، كانت تتحين طعام النبي ﷺ فيدخلون ويقعدون منتظرين لإدراكه، قال الزمخشري: معناه: لا تدخلوا يا هؤلاء المتحينون للطعام إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، وإلا فلو لم يكن لهؤلاء خصوصاً لما جاز لأحد أن يدخل بيوت النبي ﷺ إلا أن يؤذن له إذناً خاصاً، وهو الإذن إلى الطعام فحسب<sup>(١)</sup> ومن الجائز أن يكون المعنى: إذا دعيتم إلى وليمة في بيت النبي ﷺ فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه، وانتهى إعداده، لأن الدخول قبل ذلك فيه حرج، فأهل البيت يكن مشغولات في تحضير الطعام، الأمر الذي يجعلهن على حال تمنعهن من استقبال الضيوف، لذلك فلا يحسن أن نَزُورَهُنَّ وهن على هذه الحال، إذ أنه ربما بدا من إحداهن ما لا يحل النظر إليه.

﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا إِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ﴾ ولكن إذا دعاكم الرسول ﷺ فادخلوا البيت الذي أذن لكم بدخوله، فإذا أكلتم الطعام الذي دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا، ولا تمكثوا فيه لتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو دعيت إلى ذراع لأجبت، ولو أهدي إلي كراع لقبلت، فإذا فرغتم من الذي دعيتم إليه فخففوا عن أهل المنزل، وانتشروا في الأرض» ولهذا قال سبحانه ﴿وَلَا مُسْتَعْسِفِينَ لِحَدِيثٍ﴾، أي: كما وقع من أولئك النفر الثلاثة الذين

(١) الكشاف ص ٨٦٢.

استرسل بهم الحديث، ونسوا أنفسهم، حتى شق ذلك على رسول الله ﷺ، كما قال تعالى ﴿ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعِجْ مِنْكُمْ﴾، وقيل المراد: إن دخولكم منزله بغير إذنه كان يشق عليه، ويتأذى به، ولكن كان يكره أن ينهاهم عن ذلك من شدة حياته عليه الصلاة والسلام، حتى أنزل الله عليه النهي عن ذلك، ولهذا قال تعالى ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَعِجْ مِنْ الْحَقِّ﴾ أي: ولهذا نهاكم عن ذلك، وزجركم عنه، ثم قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي: وكما نهيتكم عن الدخول عليهن فقد نهيتكم عن أن تنظروا إليهن بالكلية، ولو كان لأحدكم حاجة يريد تناولها منهن فلا ينظر إليهن، ولا يسألهن حاجة إلا من وراء حجاب، روى ابن أبي حاتم بسنده عن عائشة رضي الله عنها قالت: كنت آكل مع النبي ﷺ حيساً في قعب فمر عمر فدعاه فأكل، فأصابته أصبعه أصبعي، فقال: حس أو: أوه لو أطاع فيكن ما رأتن عين، فنزل الحجاب» ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي: هذا الذي أمرتكم به وشرعته لكم من الحجاب أطهر وأطيب، وقوله ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ روى ابن حاتم بسنده عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ قال: نزلت في رجل هم أن يتزوج بعض نساء النبي ﷺ بعده. وقد عظم الله تبارك وتعالى ذلك وشدد فيه وتوعد عليه<sup>(١)</sup> بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ثم قال: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ خَفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: إن ما تكنه ضمائرکم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه، إذ لا تخفي عليه خافية «يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور» ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصي البادية والخافية، والكلام وإن كان عاماً بظاهره فالمتصود ما يتعلق بزواجه عليه الصلاة والسلام<sup>(٢)</sup>.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٥٠٦، ٥٠٧) بتصرف. وتفسير الوسيط (٣/٤٨٠) وزاد المسير ص ١١٢٦، ١١٢٧.

(٢) تفسير المراغي (٢٢/٣١).

**المبحث الرابع**  
**عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين**



## عقوبة الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ (١).

### أسباب نزول هاتين الآيتين الكريمتين.

**أولاً:** سبب نزول قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنها نزلت في الذين طعنوا على رسول الله ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي (٢).

**ثانياً:** سبب نزول قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا...﴾ إلخ.

عن الضحاک - رضي الله عنه - قال: إنها نزلت فيمن تكلم في عائشة وصفوان بن المعطل بالإفك (٣).

ففي هذه الآيات الكريمة يتوعد الله عز وجل ويهدد بأشد أنواع العذاب والنكال في الدنيا والآخرة كل من يؤذي الله عز وجل ورسوله ﷺ والمؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، كما يهددهم باللعنة والطرده من رحمته سبحانه تعالى إذا لم يرتدعوا عما يقومون به من أعمال إجرامية في حق الله تعالى، وفي حق رسوله ﷺ والمؤمنين، من إشراك بالله، ونسبة ما لا يليق

(١) الأحزاب ٥٧ ، ٥٨ .

(٢) جامع البيان لابن جرير الطبري (٤٥/٢٢) وزاد المسير ص ١١٢٨ .

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ص ١١٢٨ والسيوطي في الدر المنثور (٢٢٠/٥) من رواية ابن جرير عن ابن عباس قال أنزلت في عبد الله بن أبي وناس معه قذفوا عائشة رضي الله عنها .

له، والكذب عليه، وعدم الامتثال لأمره، ومخالفة رسوله ﷺ، وإيذاء الرسول ﷺ بوصفه بما لا يليق، والهجوم عليه، وعدم الامتثال له، وتكذيبه، والطعن في آل بيته، والكلام في حقه، وعدم الرضا بفعله، لأن كل هذا إيذاء لله عز وجل ولرسوله الكريم ﷺ فلذلك استحقوا عليه العقوبة الشديدة في الدنيا والآخرة.

كذلك الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير جرم ارتكبهوه، أو ذنب اقترفوه، إيذاء بالظلم لا بالحق، إيذاء بقصد توهين عزائمهم، وإضعاف شوكتهم، وتقوية الأعداء عليهم، فقد احتملوا إثماً كبيراً، هو كإثم البهتان والكذب على الله، هذا الإثم والبهتان يؤدي إلى أن يسلم الله عز وجل عليهم نبيه ﷺ كما سلمه على اليهود من قبل، فيطهر منهم جو المدينة، ويطردهم من الأرض، ويبيح دمهم حيثما حلوا، وأينما وجدوا، فيأخذهم ويقتلهم شرّاً قتلة، كما جرت سنة الله في المفسدين في الأرض، من الأمم الطاغية الباغية<sup>(١)</sup>، وكذلك الحال بالنسبة للذين يؤذون الله عز وجل ويؤذون رسول الله ﷺ ويؤذون المؤمنين والمؤمنات وآل بيت الرسول الكريم ﷺ من أبناء وبنات وزوجات وأقارب وأحفاد، في أي زمان ومكان، فإن الله سبحانه تعالى سوف يسلم جنوده على هؤلاء الظلمة «وما يعلم جنود ربك إلا هو» ينتقمون منهم، ويجعلونهم عبرة لغيرهم، ويمزقونهم شر ممزق، فيطهر الأرض كلها منهم، لأنها سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

(١) التفسير الواضح للشيخ محمد محمود حجازي (٢٢/٢٥/٢٦)، وقبس من نور القرآن الكريم (٢٠٨/١٠).

المبحث الخامس

فريضة الحجاب على النساء المسلمات





## فريضة الحجاب على النساء المسلمات

لما فرض الله تبارك وتعالى الحجاب على نساء النبي ﷺ «أمهات المؤمنين» في الآيات السابقة، إظهاراً لفضلهن، واعتناء بشأنهن، عمم الحكم فجعل هذه الفريضة «فريضة الحجاب» شاملة لكل مسلمة، سواء كانت زوجة، أو بنتاً، أو أمّاً، سترّاً لهن، وحفاظاً على كرامتهن، وقطعاً لألسنة السوء عنهن، حتى لا تلاحقهن النظرات الفاجرة الغادرة، فإن المرأة إذا كشفت عن زينتها، وأبدت محاسنها، طمع بها الفسّاق والفسّاجر، وفي ذلك يقول تقدست أسماؤه<sup>(١)</sup>.

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأُزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلْبِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَنَنَّ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا﴾<sup>(٢)</sup>.

عن أبي مالك قال:

كانت النساء المؤمنات يخرجن بالليل إلى حاجتهن، وكان المنافقون يتعرضون لهن، فنزلت هذه الآية<sup>(٣)</sup>.

وقال السدي: كانت المدينة ضيقة المنازل، وكانت النساء إذا كان الليل خرجن يقضين الحاجة، وكان فسّاق من فسّاق المدينة يخرجون، فإذا رأوا المرأة عليها قناع قالوا: هذه حرة فتركوها، وإذا رأوا المرأة بغير قناع، قالوا: هذه أمة، فكانوا يراودونها، فأنزل الله تعالى هذه الآية<sup>(٤)</sup>. وعن أبي صالح قال: «قدم النبي ﷺ المدينة على غير منزل، فكان نساء النبي ﷺ وغيرهن إذا كان الليل خرجن يقضين حوائجهن، وكان الرجال يجلسون على الطريق للغزل، فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَأُزْوَجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ

(١) قيس من نور القرآن الكريم ص ٢٠٢، ص ٢٠٤.

(٢) الأحزاب الآية ٥٩.

(٣) أسباب النزول للواحدى ص ٢٧٧.

(٤) أسباب النزول السابقة ص ٢٧٧، وتفسير الوسيط (٤٨٢/٣).

يُدْنِيَنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ<sup>١</sup>... ﴿ يقنعن بالجلباب حتى تعرف الأمة من الحرة. وقوله: ﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ يقول تعالى ذكره: إندناؤهن جلابيبن إذا أدنينها عليهن أقرب وأحرى أن يعرفن ممن مررن به، ويعلموا أنهن لسن بإماء، فيتكبنوا عن أذهن بقول مكروه، أو تعرض بريية، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا ﴾ ما سلف منهن من تركهن إندنائهن الجلابيب عليهن، ﴿ رَحِيمًا ﴾ بهن أن يعاقبن بعد توبتهن بإنداء الجلابيب عليهن»<sup>(١)</sup>.

### صفة الحجاب الذي أمر الله عز وجل المؤمنات بارتدائه

في قول الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجِكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِيَنَّ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيهِنَّ ﴾ يطلب الله عز وجل من رسوله ﷺ أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه وبناته بأن يسدن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن، ليميزن عن الإماء، والجلباب اختلف فيه المفسرون كما اختلفوا في كيفية إندائه عليهن، فعن ابن عباس - رضي الله عنهما: أنه الذي يستر من فوق إلى أسفل، وقيل كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها، وقيل: كل ما تستتر به المرأة من كساء، أو غيره، والمطلوب الشرعي من الحجاب هو ألا يبرز الثوب من المرأة شيئاً يشتهي، ولا يصفه، لأن المرأة إذا عرضت من محاسنها ما يشتهي، فقد سقطت في الدائرة الهابطة، وانسلخت عن الكوكبة الطاهرة<sup>(٢)</sup>.

﴿ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ (أي: إن إنداء الجلابيب أو التستر أقرب أن يعرفن أنهن حرائر ولسن بإماء، فلا يتعرض لهن بالأذى من أهل الفسق والريبة)<sup>(٣)</sup> ﴿ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ لما سلف منهن من التفريط ﴿ رَحِيمًا ﴾ بعباده حيث يراعي من مصالحهم أمثال هاتيك الجزئيات<sup>(٤)</sup>.

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢٤).

(٢) من أسرار التعبير القرآني دراسة تحليلية لسورة الأحزاب للدكتور محمد أبو موسى ص ٣٩٣. الطبعة الثانية (١٤١٦هـ/١٩٩٦م) الناشر مكتبة وهبة. مصر

(٣) التفسير المنير للشيخ وهبة الزحيلي. تفسير سورة الأحزاب ص ١٠٨

(٤) إرشاد العقل السليم لأبي السعود العمادي (١١٥/٧).

الفصل الخامس  
المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة  
من  
بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب



## الفصل الخامس

### المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من بيت النبوة في ضوء سورة الأحزاب

#### المفهوم الأول: تقديم ولاية النبي ﷺ على قرابة الدم بل وعلى قرابة النفس:

يقرر الله عز وجل في قوله سبحانه «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» الولاية العامة للنبي ﷺ في جميع الأمور، لأنه سبحانه تعالى أطلق في الآية الكريمة الولاية، وهي ولاية تتقدم على قرابة الدم، بل على قرابة النفس! وقرر الأمومة الشعورية لأزواج النبي ﷺ بالنسبة لجميع المؤمنين «وأزواجه أمهاتهم».

#### ولاية النبي ﷺ ولاية عامة- فهي تشمل ما يلى:

- ١- تشمل رسم منهاج الحياة بحذافيرها، وأمر المؤمنين فيها إلى الرسول عليه صلوات الله وسلامه ليس لهم أن يختاروا إلا ما اختاره لهم بوحى من ربه: (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) <sup>(١)</sup>
- ٢- وتشمل مشاعرهم، فيكون شخصه ﷺ أحب إليهم من أنفسهم، فلا يرغبون بأنفسهم عنه؛ ولا يكون في قلوبهم شخص أو شيء مقدم على ذاته! جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين» <sup>(٢)</sup>، وفي الصحيح أيضاً أن عمر بن

(١) شرح السنة للبيهقي (٢١٢/١)، والسنة لابن أبي عاصم (١٢/١)، وفتح الباري (٢٨٩/١٢).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند (١٧٧/٣)، والدارمي (٣٠٧/٢)، وعند البخاري ومسلم «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»، صحيح البخاري (١٠/١)، ومسلم في الإيمان (ب) ١٦ رقم (١٧٠)، والنسائي- (١١٤/٨)، وابن ماجه (٦٧).

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يا رسول الله والله لأنت أحب إليّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك» فقال: يا رسول الله لأنت أحب إليّ من كل شيء حتى من نفسي، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآن يا عمر».

وليست هذه كلمة تقال أي: (حب المسلم للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من حبه لنفسه)، ولكنها مرتقى عال، لا يصل إليه القلب إلا بلمسة لدنيّة مباشرة تفتحه على الأفق السامي الوضيء، الذي يخلص فيه من جاذبية الذات، وحبها المتوشج بالحنايا والشعاب، فإن الإنسان ليحب ذاته، ويحب كل ما يتعلق بها حباً فوق ما يتصور، وفوق ما يدرك! وإنه ليخيل إليه أحياناً أنه طوّع مشاعره، وراض وخفض من غلوائه في حب ذاته، ثم ما يكاد يمس في شخصيته بما يخدش اعتزازه بها، حتى ينتفض فجأة كما لو كانت قد لدغته أفعى! ويحس لهذه المسة لذعا لا يملك انفعاله معه، فإن ملكه كمن في مشاعره، وغار في أعماقه، ولقد يروض نفسه على التضحية بحياته كلها، ولكنه يصعب عليه أن يروضها على تقبل المساس بشخصيته فيما يعده تصغيراً لها، أو عيباً لشيء من خصائصها، أو نقداً لسمة من سماتها، أو نقصاً لصفة من صفاتها، وذلك رغم ما يزعمه صاحبها من عدم احتفاله أو تأثره! والتغلب على هذا الحب العميق للذات ليس كلمة تقال باللسان، إنما هو كما قلنا مرتقى عال لا يصل إليه القلب إلا بلمسة لدنية؛ أو بمحاولة طويلة ومرانة دائمة، ويقظة مستمرة، ورغبة مخلصّة تستنزل عون الله ومساعدته. وهي الجهاد الأكبر كما سماه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويكفي أن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو من هو قد احتاج فيها إلى لفتة من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانت هي الللمسة التي فتحت هذا القلب الصافي.

٢- وتشمل الولاية العامة كذلك التزاماتهم. جاء في الصحيح: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرأوا إن شئتم

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم» فأىما مؤمن ترك مالا فلييرته عصبته من كانوا. وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتى فأنا مولاه»<sup>(١)</sup> والمعنى أنه يؤدى عنه دينه إن مات وليس له مال يفي بدينه، ويعول عياله من بعده إن كانوا صغاراً.<sup>(٢)</sup>

ولا يخفى أن المراد بالألوية للنبى ﷺ هي طاعته المطلقة واتباع سنته وهديه - بعد أن يتغلغل حبه ﷺ في النفوس - وإيثار هذه الطاعة على طاعة النفس في كل ما يشبع رغبتها دون قيد.

وقد جاء الأمر الصريح بهذه الطاعة وذلك الاتباع للنبى ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِجَالًا مِمَّنْ أَنْتُمْ مِنْهُمْ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْبَنِيَّانَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْتَدِينَ لَهَا وَزَنَ﴾<sup>(٥)</sup>. وبدون هذه الطاعة المطلقة للرسول ﷺ في كل ما يشق على النفس، ويصادم هواها، لا تقبل دعوى الحب للنبى ﷺ، ولا يقام لها وزن.<sup>(٦)</sup>

وعلى ذلك فإن النبى ﷺ أولى وأحق بالمؤمنين في كل أمور الدين والدنيا، فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يحبوه أكثر من حبهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يؤثروه بما أرادهم من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يقدموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يؤثروه على أنفسهم في كل شيء، وأن تكون شفقتهم عليه ﷺ أقدم من شفقتهم على نفوسهم، وأن يبذلوا نفوسهم

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير من سورة الأحزاب باب (١) الحديث (٤٧٨١).

(٢) في ظلال القرآن (٢٨٢٨/٥، ٢٨٢٩).

(٣) النساء: الآية ٨٠.

(٤) آل عمران: الآية ٣١.

(٥) الحشر: آية ٧.

(٦) تفسير سورة الأحزاب، ص ٣٠، ٣١ بتصريف.



دونه، ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم، ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه، لأن كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين، وما صرفهم عنه فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمى بهم إلى الشقاوة وعذاب النار، أو هو أولى بهم على معنى: أنه أرفأ بهم، وأعطف عليهم، وأنفع لهم<sup>(١)</sup> كقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

وكقوله ﷺ: «إنما مثلي ومثل أمتي كمثل رجل استوقد ناراً، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه - أي في الشيء المستوقد - وأنا آخذ بحجزكم، أي: وأنا آخذ بما يمنعكم من السقوط، كملابسكم، ومعاهد الإزار - وأنتم تتحتمون فيه<sup>(٣)</sup>، أي: وأنتم تحاولون الوقوع فيما يحرقكم -

قال القرطبي: قال العلماء: الحُجْرَة: للسراويل، والمعقد للإزار، فإذا أراد الرجل إمساك من يخاف سقوطه، أخذ بذلك الموضع منه، وهذا مثل لاجتهاد نبينا ﷺ في نجاتنا، وحرصه على تخليصنا من الهلكات التي بين أيدينا، فهو أولى بنا من أنفسنا.

ثم قال: ولجهلنا بقدر ذلك، وغلبة شهواتنا علينا، وظفر عدونا اللعين بنا، صرنا أحقر من الفراش، وأذل من الفراش، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.<sup>(٤)</sup>

(١) الكشف، ص ٨٤٩، وفتح القدير (٣٢٧/٤) كلاهما بتصرف.

(٢) التوبة: الآية ١٢٨.

(٣) رواه مسلم في الفضائل (١٧)، والترمذي (٢٨٧٤)، والحميدي (١٠٢٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٥٢)، ط (١). (١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)، ط: دار ابن حزم، لبنان.

## المفهوم الثاني: الصلات بين الرسول ﷺ والمؤمنين صلات دين وعقيدة:

قول الله عز وجل: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ يبين أن الصلات بين الرسول ﷺ وبين المؤمنين صلات الدين والعقيدة، كما يبين أن الأولوية التي للنبي ﷺ هي أولوية في نصرته الحق والدين، وليست أولوية في نفع مادي، روى البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة، إقرءوا إن شئتم» النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» فأیما مؤمن ترك مالا فليرثه عصبته، من كانوا، فإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه»<sup>(١)</sup>، فكان الآية الكريمة تبين حظوظ المؤمنين من بيت النبوة، فالنبي أبوهم، وأزواجه أمهاتهم، والأبناء يرثون الآباء والأمهات، والموروث في هذا البيت هو الدين والقرآن، الذي يظل بمقتضى هذا التوارث يتجدد في أجيال هذه الأمة، أو في الصفوة المختارة من أجيالها. فهذه الصفوة على مر الأجيال والعصور تتصرف إلى ميراثها من نبيها، تطوف العمر كله حول نبعها الرقراق، وكلما وردت ازدادت شوقاً، وكلما نهلت ازدادت نوراً؛ وازدادت قرباً، وذلك لأنها ذاقت حلاوة الحق الذي جاء به النبي ﷺ، فاستحقت هذا الميراث، وأضحت أهلاً لأن يظل الدين متوارثاً بينهم في حفظ ونقاء.<sup>(٢)</sup>

## المفهوم الثالث: إزالة الآية أحكاماً كانت في صدر الإسلام:

قول الله عز وجل: ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أزال الله سبحانه تعالى به أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أنه صلى الله عليه وسلم كان لا يصلي على ميت عليه دين، فلما فتح الله عز وجل عليه الفتوح قال عليه الصلاة

(١) رواه البخاري في التفسير، سورة (٢٣، ١)، ومسلم في الفرائض (١٥)، وأبو داود في البيوع (٥٤)، والإمام أحمد (٥٢٧، ٣٣٥، ٣١٨/٢).

(٢) من أسرار التعبير القرآني بتصرف ص ٨٢ - ٨٣.

والسلام كما جاء في الصحيحين: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن توفى وعليه دين فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالا فلورثته»، وفي الصحيحين أيضاً: «فأيكم ترك ديناً أو ضياعاً فأنا مولاه، والضياع: مصدر ضاع، ثم جعل اسماً لكل ما يتعرض للضياع من عيال وبنين لا كافل لهم، ومال لا قيم له، وسميت الأرض ضيعة: لأنها معرضة للضياع، وتجمع ضياعاً».

قال بعض العلماء: يجب على الإمام أن يقضي دين الفقراء من بيت المال اقتداءً بالنبي ﷺ: فإنه قد صرح بوجود ذلك عليه (١)، حيث قال: «فعليّ قضاؤه» (٢).

### المفهوم الرابع: زوجات النبي ﷺ لهنّ مقام الأمهات في التوقير والإكرام؛

وقوله سبحانه «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم» الآية يقرر حكماً خاصاً بالنبي ﷺ، وحكماً خاصاً بأزواجه، وحكماً خاصاً بأولي الأرحام.

أما الحكم الأول - وهو الخاص بالنبي ﷺ، والمعبر عنه بقوله تعالى: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ - فقد تكفل النبي نفسه ﷺ ببيانه حين قال: «والذي نفسي بيده، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه، وماله، وولده، والناس أجمعين» (٣). وقد روي في الصحيح بل زاده النبي ﷺ بياناً في قوله: «ما من مؤمن إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة. اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾، فأيها مؤمن ترك مالا فليورثه عصبته من كانوا، وإن ترك ديناً أو ضياعاً فليأتني فأنا مولاه» (٤).

(١) رواه البخاري في النفقات (١٥)، والكفالة (٥)، وفي التفسير سورة (٢٢)، ومسلم في الجمعة (٤٢)، وفي الفرائض (١٦، ١٥)، وأبو داود في الإمامة (١٥)، وفي البيوع (٩)، وفي الفرائض (٨)، والترمذي في الجنائز (٦٩)، والنسائي في العيدين (٢٢)، وفي الجنائز (٦٧)، وابن ماجه في المقدمة (٧)، وفي الصدقات (١٢)، والدارمي في البيوع (٥٤)، وأحمد في المسند (١٣٢/٣، ٢١٥، ٢٩٦، ٣١١، ٣٢٨، ٣٧١).

(٢) التفسير المنير للدكتور/وهبة الزحيلي (٢١/٢٥١).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

وفي رواية لمسلم وأحمد أنه ﷺ كان يقول: «أنا أولى بكل مؤمن من نفسه، فأیما رجل مات وترك ديناً فإليّ، ومن ترك مالاً فهو لورثته» (١)

وواضح أن المراد بهذه الأولوية للنبي ﷺ هي طاعته، واتباع سنته وهدیه، وإیثار هذه الطاعة على طاعة النفس في كل ما يشبع رغباتها، دون قيد.

وقد جاء الأمر الصريح بهذه الطاعة وذلك الاتباع للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ (٣)، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكُمْ إِلَّا رِجَالًا مِمَّنْ أَنْتُمْ مِنْهَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْاَوَّلِينَ وَلَا الْآخِرِينَ﴾ (٤). وبدون هذه الطاعة المطلقة للرسول ﷺ في كل ما يشق على النفس، ويصادم هواها، لا تقبل دعوى الحب للنبي ﷺ، ولا يقام لها وزن.

ولكن، ما المناسبة بين هذا الحكم والذي قبله؟ لقد كانت الآيتان اللتان قبله تعالجان موضوع التبني، فهل لهذا الحكم صلة بهذا الموضوع؟ نعم، ألم يكن العرب ثم المسلمون في صدر الإسلام يدعون زيد بن حارثة بن زيد بن محمد؟ أو ليس قد أبطل الله تعالى التبني، وأمر بدعاء المتبنين إلى آبائهم، ومن بينهم زيد مولى النبي ﷺ؟ فإذا طوّل النبي ﷺ بأن يدعو زيد بن حارثة إلى أبيه - وهو أولى بكل مؤمن من نفسه - فلأن يطالب المؤمنون بتنفيذ هذا الحكم أولى؛ إذ ليسوا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ولا من آبائهم.

(١) رواه مسلم في الجمعة باب (١٥)، والفرائض باب (٨)، والبيوع باب (٩)، والنسائي (٦٦/٤)، وأبو داود الحديث (٢٩٠٠).

والإمام أحمد في المسند (٢/٤٦٤، ٢/٢٩٦).

(٢) النساء: الآية ٨٠.

(٣) آل عمران: الآية ٣١.

(٤) الحشر: الآية ٧.

ومن هذا يتضح لنا بعض السرفي سوق هذا الحكم - الذي يشرعه صدر هذه الآية - بعد آيتي التبني، إنه تأكيد لحكم الإسلام على التبني، بتقرير أن الرسول ﷺ قد طبق هذا الحكم على نفسه، مع أنه أولى بكل مؤمن من نفسه، ومع أن دعاء كل مؤمن إليه لا مغالطة فيه، ولكن بشرط ألا يكون على سبيل التبني.

وأما الحكم الثاني: «وهو الخاص بأزواج النبي ﷺ، وقد ذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ فالمراد به أن لنساء النبي ﷺ على كل مؤمن مثل ما لأمه عليه، من التوقير والإعظام والإكرام، ومن الحرمة والاحترام، ولكن لا تجوز الخلوة بهن، ولا النظر إليهن. قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾<sup>(١)</sup>، ولا ينتقل هذا التحريم - إجماعاً - إلى بناتهن وأخواتهن... الخ.

والدليل على تحريم نساء النبي ﷺ على المؤمنين جميعاً بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى هو قوله تعالى في السورة نفسها: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُذَوُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾<sup>(٢)</sup> والدليل على أنه يجب توقيرهن وتعظيمهن، كما توقر الأم الحقيقية - هو قوله تعالى في مكان آخر من السورة نفسها ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنَّ أَتَقِينَّ﴾.

وهذه الأمومة لا توجب ميراثاً كأمومة التبني، وجاز تزويج بناتهن، ولا يجعلن أخوات للناس، ولا أخواتهن أخوال للمؤمنين وخالاتهم، فقد تزوج الزبير أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم جميعاً وهي أخت السيدة عائشة أم المؤمنين، ولم يقل: هي خالة المؤمنين، ولا يقال لمعاوية

(١) الأحزاب: الآية ٥٣.

(٢) حاشية الصاوي على الجلالين (٢٦٩/٣) بتصرف، ط. دار الفكر، بيروت.

وأمثاله: خال المؤمنين. وهل هن أمهات الرجال والنساء، أم هن أمهات الرجال خاصة؟ على قولين:

ف قيل: ذلك عام في الرجال والنساء، وقيل: هو خاص للرجال؛ لأن المقصود بذلك إنزالهن منزلة أمهاتهم في الحرمة، حيث يتوقع الحل، والحل غير متوقع بين النساء، فلا يحجب بينهن بحرمة، وقد روي أن امرأة قالت لعائشة: يا أماء، فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، قال ابن العربي: وهو الصحيح. (١)

وقال القرطبي: لا فائدة في اختصاص الحصر في الإباحة للرجال دون النساء، والذي يظهر لي أنهن أمهات الرجال والنساء، تعظيماً لحقهن على الرجال والنساء، يدل عليه صدر الآية: ﴿الَّتِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ وهذا يشمل الرجال والنساء ضرورة: فيكون قوله: ﴿وَأَزْوَاجُهُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ عائداً إلى الجميع. (٢)

وإنما لم يقل سبحانه تعالى: (وهو أب لهم) لاعتبارات ثلاثة: أولها: أنه تعالى وصفه بما هو أشرف من الأبوة وهو الرسالة، حين قال سبحانه تعالى في السورة نفسها: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ﴾، أما أزواجه فنسبهن إلى أشرف ما تدعى به المرأة وهو الأمومة. الثاني: أنه عز وجل جعل صلته بهم أوثق من صلة الوالد بأولاده حين حكم بأنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فقد يتبرأ الأب من ابنه، وقد يتبرأ الابن من أبيه، لكنه لا أحد يتبرأ من نفسه.

(١) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٥٠٨، ١٥٠٩).

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٢٤٥٢).

الثالث: هو أنه تعالى لو قال وهو أب لهم: لحرمت عليه ﷺ جميع المؤمنات، بحكم أبوته لهن، وهذا ليس صحيحاً، وليس مراداً. وأما قوله ﷺ: فيما رواه أبو هريرة وأخرجه أبو داود في سننه<sup>(١)</sup>: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد، أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه» - فقد أريد بالأبوة فيها معنى خاص هو الأستاذية، أو المعلم، أو الهادي، بدليل قوله (أعلمكم)، وأستاذيته ﷺ لجميع المؤمنين بدهية ليست في حاجة إلى بيان، والأستاذ المعلم بمنزلة الوالد كما قال، وهذه - أيضاً - بدهية.

وإنما ساقها ليمهد بذكرها لما بعدها، من نهي عن استقبال القبلة، أو استدبارها عند قضاء الحاجة - وقيده المالكية بأن يكون في الخلاء - ومن هنا نهي عن أن تكون الاستطابة (الاستنجاء) بيمينه!

### المفهوم الخامس: الحفاظ على الأنساب ونسبة المتبنى ومن في حكمه إلى آبائهم؛

لا يُجيز الشرع تحت أي مبرر تغيير الأنساب، وإن بدا للبعض أنه هدف نبيل تحت مسمى التبني الذي أبطله الشرع ولا زال هذا الإطلاق سارياً عند البعض، أو عند كفالة يتيم بحجة تعويضه عن أبويه فينسب إلى العائلة المربية أو الكافلة، وهذا أمر في غاية الخطورة، لأن فيه ضياعاً للأنساب الحقيقية، وإثباتاً لأنساب لا صلة لهم بها، فينتج عن هذا أنه عندما يكبر قد يلتقي بأمه أو أخته أو عمته أو خالته وهو لا يعرفهن فيضيع البر وتقطع الأرحام، والأخطر من هذا قد يتزوج من محارمه وهو لا يدري وهذا أخطر ما يكون.

(١) حديث رقم (٨)، في كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة، تحقيق وضبط الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، ط. المكتبة التجارية (١٩٥٠م).

وفي قوله عز وجل : «وأزواجه أمهاتهم» - تأكيد للمعنى الذي فهمناه من قوله قبله: «النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم»؛ ذلك أن المتبادر من أمومة أزواجه للمؤمنين أن يكون هو أباً لهم، وألا تكون هناك مغالطة في دعاء بعض المؤمنين كزيد إليه. لكن هذا المتبادر لم يُعَفِّ الرسول ﷺ من أن يوجه إليه الأمر بنسبة متبناه لأبيه، وعدم نسبته إلى نفسه. فمع كونه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، ومع أن أزواجه بمنزلة أمهاتهم في التقدير والاحترام - طوِّب بأن يدعى زيدا إلى أبيه، وحكم على تبنيه له بالبطلان.

وإن المؤمنين لأجدر بأن يُطلب منهم أن يدعو المتبنيين إلى آبائهم، وأن يحكم على تبنيهم لهم بالبطلان؛ فإنهم ليسوا أولى بأحد منهم من نفسه، وأزواجهم لسن من سائر المؤمنين بمنزلة الأمهات.

وأما الحكم الثالث - وهو الخاص بأولي الأرحام، والمعبر عنه بقوله تعالى في الآية: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾<sup>(١)</sup>، فهو كالحكم الذي قبله، يؤكد بطلان التبني، ووجوب دعاء الأولاد إلى آبائهم الحقيقيين، إنه تقرير لأولوية أولي الأرحام بعضهم ببعض. وثبوت هذه الأولوية - بكل ما يترتب عليها - معناه بطلان التبني، وبطلان ما يترتب عليه من نتائج. ومن هذه النتائج جواز الخلوة بزوجة المتبني وابنته وأخته، على اعتبارهن أمّاً وأختاً وعمّة، وهكذا. ومنها حرمة التزوج بمن يحرم على المتبني نفسه. ومنها التوارث.

وهذا الحكم - كما بيينه السياق - يؤكد بطلان التبني كما أسلفنا، فمادام الأمر في جميع النتائج التي ذكرناها راجعاً إلى القرابة والرحم الحقيقية، فلا مكان للمتبني إلا حيث تضعه قرابته ورحمه، من أبيه الحق وأمّه التي ولدته، يحرم عليه من النساء محارمه نسباً أو رضاعاً دون

(١) الأحزاب: آية ٦.



غيرهن، ويجوز له أن يخلو بهن لا بسواهن، وهو يرث أقاربه الحقيقيين كما يرثونه، ولا توارث بينه وبين غيرهم.

ولكن الله عز وجل في شرعه لهذا الحكم أو في توجيه أنظار المؤمنين إليه، على أنه هو حكم (الفطرة) لا يقتصر على العبارة التي تقرره، بل يضيف إليها قيدين، هما قوله: «في كتاب الله»، وقوله: «من المؤمنين والمهاجرين».

فأما القيد الأول فالمراد به تقرير أن ذلك الحكم ثابت مقرر في كتاب الله، بمعنى شريعته وحكمه.

وأما القيد الثاني - فنحن نميل إلى اعتباره بياناً لأولي الأرحام، لا للمفضل عليه، فأولو الأرحام الموصوفون بأنهم مؤمنون، أو بأنهم مؤمنون مهاجرون - بعضهم أولى ببعض؛ لأن الرحم وحدها ليست كافية للتوارث والتناصر وما إليهما، إذا اختلف الدين فكان بين أولي الأرحام المؤمن وبين عابد الصنم!

ومن هنا، يعتبر هذا الحكم - أيضاً - تفرعاً على بطلان التبني، فما دام بعض أولي الأرحام أولى ببعضهم الآخر، وما دام الحكم لصلة القرابة لا لغيرها - فالتبني باطل، ويجب أن يدعى المتبنون لأبائهم الحقيقيين، وألا يترتب على التبني شيء مما رتبوه عليه!

لعله قد وضح الآن أن بعض المفسرين قد تكبوا الجادة، عندما فسروا قوله تعالى هنا: ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ ﴾ على أنه إبطال لآثار الأخوة التي كان النبي ﷺ قد عقدها بين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة، فإن هذه الأخوة لم تذكر هنا ولو على سبيل الإشارة، ثم إنها - وهي أثر طيب من آثار الإيمان - لا تُلغى آثارها بهذا الأسلوب، في سياق كهذا السياق!

وقد رتب المفسرون على هذا التفسير دعوى نسخ ما كان في صدر الإسلام من التوارث بالهجرة والموالة في الدين، لكن هذه الدعوى مردودة لأن الموضوع لم يكن فيه حكم شرعي فأبطله هذا الحكم وحل محله. ونضيف هنا أن آثار هذه الأخوة لم تكن مما تعرضت له الآيات السابقة في السورة، فليس من المناسب أن يعتبر هذا الحكم نسخاً لتلك الآثار.

### المفهوم السادس: الحض على الإحسان إلى الأولياء؛

﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَيْهِ أَوْلِيَاءِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴾<sup>(١)</sup>.

فالآية الكريمة وإن أشارت إلى أن الإرث لا يكون إلا لذوي القرابة الحقيقية إلا أنها لا تغلق الباب أمام من يريد الإحسان إلى أوليائه، سواء أكان هذا الإحسان صدقة، أو مواساة، أو هدية، أو وصية، فهي تدع ذلك لمالك المال نفسه، إن شاء أسدى هذا المعروف إلى أوليائه، وإن شاء لم يفعل. غير أن بسط اليد بالمعروف مما حث الله عز وجل عباده عليه، وأعد لفاعله أجرل الثواب. وهو - بعد - لا يختص بأولي القربي، فإن أولياء الإنسان هم ألباؤه ونصراؤه، وهؤلاء يتناولون أولي قرياه وغيرهم، بخلاف الإرث؛ فإن لاستحقاقه أسباباً لابد من توافرها في الوارث، ثم هو فرض محتوم خاص بمال الإنسان، ليس لصاحبه رأي فيه، ولا اختيار.

وكما قالت الآية عقب تقريرها لأولوية أولي الأرحام وأن بعضهم أولى ببعض: «في كتاب الله بمعنى شريعته وحكمه - قالت في فاصلة الآية «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا» والإشارة فيها إلى جميع الأحكام والحقائق المذكورة في الآية. لكن المراد بالكتاب هنا - والله أعلم - هو الكتاب الأول الذي لا يبدل ولا يغير، وهو اللوح المحفوظ، ومعنى الفاصلة: كان ذلك

(١) الأحزاب: آية ٦.

مقضيًا لله، مقدورًا فلا بد أن يتحقق. (١)

## المفهوم السابع: النبي ﷺ - وزوجاته من بعده - هم المثل الأعلى للعادة في تقديم ما عند الله على رغائب الدنيا

روى أكثر المفسرين أن سبب نزول قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُوحَ لَهَا إِن كُنتن تُرَدْنَ الدُّنْيَا وَرَبَّنَّهَا فَنَعَالَمِينَ أَمْتَعَكُنَّ وَأَسْرَحَكُنَّ سَرَحًا جَمِيلًا وَإِن كُنتن تُرَدْنَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَالذَّارُ الْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٢)، أن سبب نزول هذه الآيات مطالبة نساءه ﷺ بمزيد من النفقة، وذلك كما يقول أبو حيان الأندلسي في تفسيره أن أزواجه ﷺ تغايرن وأردن زيادة في نفقة، فنزلت، ولما نصر الله نبيه ﷺ، وفرق عنه الأحزاب، وفتح عليه النضير وقريظة، ظن أزواجه أنه ﷺ اختص بنفائس اليهود وذخائرهم، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحلّي والحلّ، والإماء، والخول، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق، وآمن قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك أزواجهن - فأمره الله تعالى أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن (٣) - ويعلل المفسرون هذا التصرف من أمهات المؤمنين تجاه الرسول ﷺ ومطالبتهن له بزيادة النفقة أنه كان ﷺ يأخذ نفسه وأهله بسيرة شاقة في الزهد، وخشونة العيش، لم نعهد لها شبيهاً في حياة أحد من البشر، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد ﷺ منذ قدم المدينة من طعام البئر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض» (٤)، ولم يكن رسول

(١) تفسير سورة الأحزاب: دكتور مصطفى زيد، ص ٢٠ - ٢٦.

(٢) الأحزاب: آية ٢٨، ٢٩.

(٣) تفسير البحر المحيط (٢١٩/٧)، تحقيق د. أحمد عبد الغنى النجولي الجمل وآخرون، ط ١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، ط. دار الكتب العلمية بيروت، والخول: حشم الرجال وأتباعه.

١٥٦، ١٨٧، ٢٥٥، ٢٧٧). واللفظ للبخاري.

(٤) رواه البخاري في الأيمان (٢٢)، والأطعمة (٢٣، ٢٧)، والرقاق (١٧)، ومسلم في الزهد (٢٠، ٢٥، ٢٢)، والنسائي في الضحايا (٣٧)، وابن ماجة في الأطعمة (٤٨، ٤٩)، والإمام أحمد في المسند (٢/٩٨، ٤٣٤، ٤٤٢/٤، ١٢٨/٦).

الله ﷺ فقيراً مدقماً كما يفهم من ظاهر هذا القول، وإنما كان وجود بما عنده، ويؤثر على نفسه، لأنه اختار هذا الأسلوب ليضرب بذلك المثل لحملة رسالة الحق في أمته، كأنه يقول لنا: يجب أن يكون أداء رسالة الخير فوق مطالب الحياة والعيش، ويجب أن تزهد نفوس أهل البلاغ إلا فيما يقربها إلى الله زُلْفَى، والسيدة عائشة رضي الله عنها التي تروى لنا هذا الحديث الذي يصف هذه الحياة الشاقة، تقول في رواية البيهقي: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام متوالية، ولو شئنا لشبعنا» ولكنه كان يكون المال بين يديه، ويؤثر به ذوي الحاجات، منصرفاً هو إلى غايته، وحياة الرسول ﷺ في هذا الباب مثل لدعاة الخير وحملة الرسالة من بعده، وحين يُشغل دعاة رسالة السماء بحطام الأرض فهم كذبة حين يزعمون أنهم دعاة، والرسول عليه الصلاة والسلام يصف لنا تجرده لدعوة الخير وصفاً رفيعاً، فيقول فيما روته السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من سأل عني، أو سرّه أن ينظر إليّ، فليُنظر إليّ أشعث شاحب، مُشمرّ لم يضع لَبنة على لبة، ولا قَصبة على قَصبة، رُفِع له عَلمٌ فشمرّ إليه، اليوم المِضمار، وغدا السِّباق، الغاية الجنة أو النار» (١)

أرأينا ذلك الأشعث المشمر؟ أرأينا الاندفاع نحو العلم؟ أرأينا الانهماك في المِضمار؟ ذلك هو داع الخير؟ وذلك هو محمد عز وجل .

(١) رواه المنذرى في الترغيب والترهيب (٤٧٧٣) وعزاه للطبراني في الأوسط، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٥٨/١٠).

كان هذا الأسلوب الشاق من شأنه أن يشق على نسائه، فلسن في مرتبة النبوة، وكن يعرفن أن هذا الضرب من الحياة<sup>(١)</sup> قد اختاره الرسول ﷺ اختياراً من تلقاء نفسه للاستعلاء على متاع الحياة الدنيا، ورغبة خالصة فيما عند الله عز وجل، رغبة الذي يملك ولكنه يعف ويستعلي ويختار.. ولم يكن رسول الله ﷺ مكلفاً من عقيدته ولا من شريعته أن يعيش مثل هذه المعيشة التي أخذ بها نفسه وأهل بيته، فلم تكن الطيبات محرمة في عقيدته وشريعته، ولم يحرمها على نفسه حين كانت تقدم إليه عفواً بلا تكلف، وتحصل بين يديه مصادفة واتفاقاً، لا جرياً وراءها، ولا تشهياً لها، ولا انغماساً فيها، ولا انشغالاً بها. ولم يكلف أمته كذلك أن تعيش عيشته التي اختارها لنفسه، إلا أن يختارها من يريد، استعلاء عن اللذائذ والمتاع، وانطلاقاً من ثقلتها إلى حيث الحرية التامة من رغبات النفس وميولها.

ولكن نساء النبي ﷺ كن نساء من البشر، لهن مشاعر البشر، وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن. فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله عز وجل على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين راجعين النبي ﷺ في أمر النفقة، فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا، إذ كانت نفسه ﷺ ترغب في أن تعيش فيما اختاره لها من طلاقة وارتفاع ورضا؛ متجردة من الانشغال بمثل ذلك الأمر، والاحتفال به أدنى احتفال، وأن تظل حياته وحياة من يلودون به على ذلك الأفق السامي الوضيء المبرأ من كل ظل لهذه الدنيا وأوشابها، لا بوصفه حلالاً وحراماً، فقد تبين الحلال والحرام، ولكن من ناحية التحرر والانطلاق والفكك من هواتف هذه الأرض الرخيصة!

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٥١ - ٢٥٢.

ولقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ من مطالبة نسائه له بالنفقة أن احتجب عن أصحابه، وكان احتجاجه عنهم أمراً صعباً عليهم يهون كل شيء دونه، وجاءوا فلم يؤذن لهم. روى الإمام أحمد بإسناده عن جابر رضي الله عنه قال: أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن على رسول الله ﷺ والناس بيابه جلوس، فلم يؤذن له، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له، ثم أذن لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فدخلا، والنبي ﷺ جالس وحوله نساؤه، وهو ﷺ ساكت. فقال عمر رضي الله عنه لأكلمن النبي ﷺ لعله يضحك. فقال عمر رضي الله عنه يا رسول الله، لو رأيت بنت زيد - امرأة عمر - فسألتني النفقة أنفاً فوجأت عنقها! فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذ، قال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة!» فقام أبو بكر رضي الله عنه إلى عائشة ليضربها، وقام عمر رضي الله عنه إلى حفصة، كلاهما يقولان: تسألان رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟! فنهاهما رسول الله ﷺ، فقلن نساؤه: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده. قال: وأنزل الله عز وجل الخيار، فبدأ بعائشة - رضي الله عنها - فقال: «إني أريد أن أذكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك» قالت: ما هو؟ قال: فتلا عليها: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ...﴾ الآية. قالت عائشة رضي الله عنها: أفيك أستأمر أبوي؟ بل أختار الله تعالى ورسوله ﷺ: وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال ﷺ: «إن الله عز وجل لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً، لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها» (١)

وفي رواية البخاري بإسناده عن أبي سلمة بن عبد الرحمن: أن عائشة رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ - أخبرته أن رسول الله ﷺ جاءها حين أمره الله تعالى أن يخير أزواجه. قالت: فبدأ بي رسول الله ﷺ فقال:

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (١٤٥٦٩) (٣/٣٢٨). ومسلم في الطلاق (١٤٧٥، ١٤٧٨، ١٤٧٩). واللفظ للإمام أحمد.

«إني ذاكر لك أمراً فلا عليك أن لا تستعجلي حتى تستأمرني أبويك» - وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه - قالت: ثم قال: «إن الله قال: يا أيها النبي قل لأزواجك» إلى تمام الآيتين. فقلت له: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإنني أريد الله ورسوله والدار الآخرة»<sup>(١)</sup>

لقد جاء القرآن الكريم ليحدد القيم الأساسية للحياة. هذه القيم التي ينبغي أن تجد ترجمتها الحية في بيت النبي ﷺ وحياته الخاصة، وأن تتحقق في أدق صورة وأوضحها في هذا البيت الذي كان - وسيبقى - منارة للمسلمين وللإسلام حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ونزلت آيتا التخيير تحددان الطريق، فإما الحياة الدنيا وزينتها، وإما الله ورسوله والدار الآخرة، فالقلب الواحد لا يسع تصورين للحياة، وما جعل الله عز وجل لرجل من قلبين في جوفه.

وقد كانت نساء النبي ﷺ قد قلن: والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده، فنزل القرآن الكريم ليقرر أصل القضية. فليست المسألة أن يكون عنده أو لا يكون. إنما المسألة هي اختيار الله ورسوله والدار الآخرة كلية، أو اختيار الزينة والمتاع، سواء كانت خزائن الأرض كلها تحت أيديهن أم كانت بيوتهن خاوية من الزاد، وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة اختياراً مطلقاً بعد هذا التخيير الحاسم، وكن حيث توهلن مكانتهن من رسول الله ﷺ، وفي ذلك الأفق العالي الكريم اللائق ببيت الرسول العظيم، وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ فرح بهذا الاختيار.

ونحب كما يقول الأستاذ سيد قطب أن نقف لحظات أمام هذا الحادث نتدبره من بعض زواياه:

(١) رواه البخاري في التفسير (٤٧٨٥، ٤٧٨٦)

إن هذا الحادث يحدد التصور الإسلامي الواضح للقيم، ويرسم الطريق الشعوري للإحساس بالدنيا والآخرة. ويحسم في القلب المسلم كل أرجحة، وكل لجلجة بين قيم الدنيا وقيم الآخرة، بين الاتجاه إلى الأرض والاتجاه إلى السماء. ويخلص هذا القلب من كل وشيجة غريبة تحول بينه وبين التجرد لله سبحانه تعالى، والخلوص له وحده دون سواه.

هذا من جانب ومن الجانب الآخر يصور لنا هذا الحدث حقيقة حياة رسول الله ﷺ والذين عاشوا معه واتصلوا به، وأجمل ما في هذه الحقيقة أن تلك الحياة كانت حياة إنسان، وحياة ناس من البشر، لم يتجردوا من بشريتهم ومشاعرهم وسماتهم الإنسانية. مع كل تلك العظمة الفريدة البالغة التي ارتفعوا إليها، ومع كل هذا الخلوص لله والتجرد مما عداه. فالمشاعر الإنسانية والعواطف البشرية لم تمت في تلك النفوس، ولكنها ارتفعت، وصفت من الأوشاب. ثم بقيت لها طبيعتها البشرية الحلوة، ولم تعوق هذه النفوس عن الارتفاع إلى أقصى درجات الكمال المقدر للإنسان.

وكثيراً ما نخطئ نحن حين نتصور للنبي ﷺ ولصحابته الكرام رضوان الله عليهم صورة غير حقيقية، أو غير كاملة، نجردهم فيها من كل المشاعر والعواطف البشرية، حاسبين أننا نرفعهم بهذا، وننزهم عما نعدّه نحن نقصاً وضعفاً!

وهذا الخطأ يرسم لهم صورة غير واقعية، صورة ملفعة بهالات غامضة لا نتبين من خلالها ملامحهم الإنسانية الأصيلة. ومن ثم تنقطع الصلة البشرية بيننا وبينهم، وتبقي شخوصهم في حسنا بين تلك الهالات أقرب إلى الأطياف التي لا تلمس ولا تتماسك في الأيدي! ونشعر بهم كما لو كانوا خلقاً آخر غيرنا.. ملائكة أو خلقاً مثلهم مجرداً من مشاعر البشر وعواطفهم على كل حال! ومع شفافية هذه الصورة الخيالية فإنها تبعدهم عن محيطنا، فلا نعود نتأسى بهم أو نتأثر، يأساً من إمكان التشبه بهم،



أو الاقتداء العملي في الحياة الواقعية. وتفقد السيرة بذلك أهم عنصر محرك، وهو استجاشة مشاعرنا للأسوة والتقليد. وتحل محلها الروعة والانبهار، اللذان لا يُنتجان إلا شعوراً مبهماً غامضاً سحرياً ليس له أثر عملي في حياتنا الواقعية. ثم نفقد كذلك التجاوب الحي بيننا وبين هذه الشخصيات العظيمة، لأن التجاوب إنما يقع نتيجة لشعورنا بأنهم بشر حقيقيون، عاشوا بعواطف ومشاعر وانفعالات حقيقية من نوع المشاعر والعواطف والانفعالات التي نعانيها نحن. ولكنهم هم ارتقوا بها وَصَفَوْهَا من الشوائب التي تخالج مشاعرنا.

وحكمة الله واضحة في أن يختار رسله من البشر، لا من الملائكة، ولا من أي خلق آخر غير البشر، كي تبقى الصلة الحقيقية بين حياة الرسل وحياة أتباعهم قائمة، وكى يحس أتباعهم أن قلوبهم كانت تعمرها عواطف ومشاعر من جنس مشاعر البشر وعواطفهم، وإن صفت ورفقت وارتقت. فيحبوهم حب الإنسان للإنسان، ويطمعوا في تقليدهم، تقليد الإنسان الصغير للإنسان الكبير.

وفي حادث التخيير نقف أمام الرغبة الطبيعية في نفوس نساء النبي ﷺ في المتاع؛ كما نقف أمام صورة الحياة البيتية للنبي ﷺ ونسائه رضي الله عنهن، وهن أزواج يراجعن زوجهن في أمر النفقة! فيؤذيه هذا، ولكنه لا يقبل من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما أن يضربا عائشة وحفصة على هذه المراجعة. فالمسألة مسألة مشاعر وميول بشرية، تصفي وترفع، ولكنها لا تخمد ولا تكبت! ويظل الأمر كذلك حتى يأتيه أمر الله بتخيير نسائه. فيخترن الله ورسوله والدار الآخرة، اختياراً لا إكراه فيه ولا كبت ولا ضغط، فيفرح قلب الرسول ﷺ بارتفاع قلوب أزواجه إلى هذا الأفق السامي الوضيء.

ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة في قلب رسول الله ﷺ وهو يحب عائشة حباً ظاهراً، ويحب لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التي يريد لها الله له ولأهل بيته، فيبدأ بها في التخيير، ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد؛ فيطلب إليها ألا تعجل في الأمر حتى تستشير أبيها - وقد علم أنهما لم يكونا يأمرانها بفراقه كما قالت - وهذه العاطفة الحلوة في قلب النبي ﷺ لا تخطئ عائشة رضي الله عنها من جانبها في إدراكها، فتسرهما وتحفل بتسجيلها في حديثها. ومن خلال هذا الحديث يبدو النبي ﷺ إنساناً يحب زوجه الصغيرة، فيحب لها أن ترتفع إلى أفقه الذي يعيش فيه، وتبقى معه في هذا الأفق، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة في حسه، والتي يريد لها له ربه - عز وجل - ولأهل بيته.

كذلك تبدو عائشة رضي الله عنها إنسانة يسرها أن تكون مكيئة في قلب زوجها، فتسجل بفرح حرصه عليها، وحبها لها، ورغبته في أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى، فتبقى معه على هذا الأفق الوضيء، ثم نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك وهي تطلب إليه ألا يخبر أزواجه الأخريات أنها اختارته حين يخبرهن! وما في هذا الطلب من رغبة في أن يظهر تقردها في هذا الاختيار، وميزتها على بقية نساءه، أو على بعضهن في هذا المقام! وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر في رد رسول الله ﷺ وهو يقول لها: «إن الله تعالى لم يبعثني معنفاً، ولكن بعثني معلماً ميسراً. لا تسألني واحدة منهن عما اختارت إلا أخبرتها». فهو لا يود أن يحجب عن إحدى نساءه ما قد يعينها على الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، بل يقدم العون لكل من تريد العون، كي ترتفع على نفسها، وتتخلص من جواذب الأرض، ومغريات المتاع.

هذه الملامح البشرية العزيزة ينبغي لنا ونحن نعرض السيرة ألا نطمسها، وألا نهملها، وألا نقلل من قيمتها. فإدراكها على حقيقتها هو

الذي يربط بيننا وبين شخصية الرسول ﷺ وشخصيات أصحابه رضي الله عنهم برباط حي، فيه من التعاطف والتجاوب ما يستجيش القلب إلى التأسى العملي، والافتداء الواقعي.<sup>(١)</sup>

### المفهوم الثامن: تصرفات أمهات المؤمنين في بيت النبوة لا يذهب عنه جلال النبوة، ولا يחדش فيه آداب الرسالة:

إذا كانت نفوس زوجات الرسول ﷺ وأمهات المؤمنين تنزع أحياناً إلى التخفف من القسوة التي كان يأخذ الرسول ﷺ بها في عيشه، ويطلبون منه الزيادة في النفقة فإنه لا يعني هذا أنهن طالبن رسول الله ﷺ بعدما فتح الله عليه ذخائر بني قريظة والنضير بألوان من ترف الحياة ومتعتها، وأن يكن كنساء كسرى وقيصر، فإن أمهات المؤمنين كن أعرف الناس بالفروق بين زعامة قيصرية أو كسروية، وتاريخ جديد للبشرية يصنعه ذلك الأشعث المشمر كما قال هو عن نفسه في الحديث الذي ذكرناه سابقاً الذي كنّ يعشن في أحضانه، صلوات الله وسلامه عليه. كما لا يعني هذا أن حياة الرسول ﷺ وحياة أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن كانت حياة - كما يصورها البعض - تملؤها مداعبات الكواعب، ودلال الحسان النواهد، وتملؤها أيضاً مؤامرات الضرائر، وأحاديث الغيرة التي كانت تشتط بهن كما يزعم البعض، حتى تخرج بهن عن حدود الشريعة، وآداب الإسلام، وإذا كنا نقول ذلك فإننا لا نزعم في نفس الوقت أن نساء النبي معصومات، ولا نزعم أنهن لم يقعن تحت تأثير الضعف البشري الذي هو جزء من طبيعة البشر، ولا تنفي عنهن الغيرة، ولا التطلع أحياناً إلى شيء من بسط العيش، بل نؤكد ذلك، ولكن نقول: إن الغيرة التي كانت تحدث من زوجات الرسول ﷺ لم تكن لتتغلغل إلى أعماقهن، بل كانت تقف عند الحدود التي تقضي بها قواعد الدين والعدل، وأن الأمر لم يكن ليدخل في باب الخصومات

(١) في ظلال القرآن (٢٨٥٤/٥ - ٢٨٥٧).

الحزبية، كما يحلو لبعض كتّاب التاريخ الإسلامي من الإفرنج أن يصفوها، ولعل ما يرد على هؤلاء ما رأينا من صور الوفاق الرائع بين الضرائر، وتقانيهن في إرضاء زوجهن رسول الله ﷺ.

وأؤكد أن الغيرة والسطحية، والتطلع المحدود إلى بسط العيش، كان يحدث أحياناً في منزل الوحي، وكان مثله لا يُذهب عن هذا البيت جلال النبوة، ولا يخدش فيه آداب الرسالة<sup>(١)</sup>.

### المفهوم التاسع: إعظام حرمة النبي والنهي عن إيذائه، وإيذاء أهل بيته وأصحابه:

في قول الله عز وجل ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلُوبٌ لَّا رُوحَ لَهَا إِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أَسْرِعْتُمْ سِرًّا جَمِيلًا ﴿٣٩﴾ وَلَئِن كُنتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. حث واضح على منع إيذاء النبي ﷺ أو مضايقته، ولو من أقرب الناس إليه، وفيها أدب عال لبيت النبوة الطاهر، وتسام لمستوى الأنبياء، وترفع عن حطام الدنيا، وتربية لنساء النبي ﷺ على الزهد والعفة والخلق السامي، وإعظام الله ورسوله ﷺ.

ومن تمام إعظام حقه ﷺ، وعدم إيذائه إعظام حرمة أزواجه، وعدم إيذائهن أو الزواج منهن بعد وفاته، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبْدَانًا ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾، فذكر الرسول ﷺ هنا مشعر بتوبيخ من تحدثهم نفوسهم بإيذائه، إذ يكون كفراناً بنعمة الرسالة الواجب شكرانها.

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٥١ - ٢٥٤ بتصرف.

كما أن فيه أيضاً تحريم الله عز وجل نكاح أزواج رسول الله ﷺ من بعده، وجعل لهن حكم الأمهات، والمسلم لا يتزوج أمه. وهذا من خصائصه ﷺ تمييزاً لشرفه، وتبهيهاً على علو مرتبته ﷺ.

قال الشافعي رحمه الله: وأزواجه ﷺ اللاتي مات عنهن لا يحل لأحد نكاحهن، ومن استحل ذلك كان كافراً لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ وقد قيل: إنما منع من التزوج بزوجاته؛ لأنهن أزواجه في الجنة، وأن المرأة في الجنة لآخر أزواجها. قال حذيفة لامرأته: إن سرك أن تكوني زوجتي في الجنة إن جمعنا الله فيها فلا تزوجي من بعدي؛ فإن المرأة لآخر أزواجها. (١)

واختلف العلماء في حال زوجاته ﷺ بعد موته هل يبقين أزواجاً له ﷺ أو زال النكاح بالموت؟

قال ابن العربي: وبقاء الزوجية أقول، لقول النبي ﷺ «ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة» (٢)

وقد ورد في بعض ألفاظ الحديث «ما تركت بعد نفقة عيالي وأهلي» (٣) وهذا اسم خاص بالزوجية؛ لأنه أبقى عليهن النفقة مدة حياتهن لكونهن نساء، وحرمن على غيره، وهذا هو معنى بقاء النكاح، وإنما جعل الموت في حقه عز وجل لهن بمنزلة المغيب في حق غيره، لكونهن أزواجاً له في الآخرة قطعاً - كما أسلفنا - بخلاف سائر الناس؛ لأن الرجل لا يعلم كونه مع أهله في دار واحدة. فربما كان أحدهما في الجنة والآخر في النار، فهذا انقطع السبب في حق الخلق وبقي في حق النبي ﷺ. (٤)

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٩).

(٢) رواه البخاري في الوصايا (٣٧٧٦، ٣٠٩٦، ٦٧٢٩)، ومسلم (١٧٦٠)، والإمام أحمد (٩٩٧٣، ٩٩٨٢، ٧٣٠١).

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره (٨/١٧٨، ١٤/٢٢٩).

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٣/١٥٧٩)، والجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٩، ٢٥٠٠).

وقد قال عمار رضي الله عنه - في خطبة له بالكوفة - عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «إني لأعلم أنها زوجته في الدنيا والآخرة» (١) فهذا دليل على أن زوجاته رضي الله عنهم هن زوجاته في الدنيا والآخرة.

وقال عز وجل: ﴿كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا ما كان من سببي ونسبي﴾ (٢)

### إيذاء الرسول أو نكاح أزواجه من بعده من الكبائر؛

في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ بيان أن أذية رسول الله ﷺ أو نكاح أزواجه من بعده من الذنوب الكبائر ولا ذنب أعظم منه (٣) لأن أمرهما عظيم، وخطبهما هائل، لا يقادر قدره، لما فيه من إيذاء الرسول الكريم ﷺ، وهتك حرمة حبيبه ﷺ.

قال أبو السعود: وفي هذا من تعظيم الله عز وجل لشأن رسوله ﷺ، وإيجاب حرمة حياً وميتاً، ما لا يخفى، ولذلك بالغ تعالى في الوعيد، حيث قال: ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ أي: إن الله عز وجل عالم بكل ما بدا وما خفي، وما كان وما لم يكن، لا يخفى عليه ماضٍ انقضى، ولا مستقبل آت، فهو سبحانه يعلم ما يخفيه الإنسان من المعتقدات والخواطر المكروهة، ويجازيه عليها، وفي هذا توبيخ ووعيد لمن يضمّر السوء في مخاطبة أزواج النبي ﷺ وأزواج المؤمنين أيضاً. (٤)

(١) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٧٢، ٧١٠٠، ٧١٠١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٧٣٨)، وقال عنه: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: منقطع، والبيهقي في السنن الكبرى (٦٣/٧)، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٣٤/٢)، وابن سعد في طبقاته (٤٦٣/٨)، والهيثمى في مجمع الزوائد (١٧٣/٩)، وانظر المطالب العلية (٤٠٢٠، ٤٠٢١، ٤٢٥٨).

(٣) الجامع لأحكام القرآن السابق.

(٤) التفسير المنير (٩٣/٢٢).

## من آذى الرسول ﷺ استحق اللعنة:

في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾. بيان أن من يؤذي الله ورسوله يستحق اللعنة والطرده من رحمة الله عز وجل في الدنيا والآخرة، وله عذاب محقر مؤلم في نار جهنم، وإيذاء الله عز وجل يكون بالكفر ونسبة الصحابة والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، كقول اليهود: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾<sup>(١)</sup>.  
 ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>، وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾<sup>(٣)</sup>، وقول المشركين «الملائكة بنات الله، والأصنام شركاؤه».

وجاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم، يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار»<sup>(٤)</sup>

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم، يقول: يا خيبة الدهر، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أقلبُ ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما»<sup>(٥)</sup>. هكذا جاء هذا الحديث موقوفاً على أبي هريرة في هذه الرواية. وقد جاء مرفوعاً عنه بلفظ آخر عند مسلم أيضاً: «يؤذيني ابن آدم يسبُّ الدهر، وأنا الدهر، أقلبُ الليل والنهار»<sup>(٦)</sup>

وقال عكرمة: معناه بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وغيرها، وقد قال ﷺ: «لعن الله المصورين»<sup>(٧)</sup>.

(١) المائدة: آية ٦٤.

(٢) التوبة: آية ٣٠.

(٣) التوبة: آية ٣٠.

(٤) رواه البخاري (٤٨٢٦، ٦١٨٢، ٦١٨١، ٧٤٩١)، ومسلم (٢٢٤٦) واللفظ للبخاري.

(٥) رواه مسلم (٢٢٤٦).

(٦) رواه مسلم (٢٢٤٦).

(٧) ذكره النووي في الأذكار (٣١٤)، والقرطبي (٢/٢٥٠٤).

وأما أذية رسول الله ﷺ فهي كل ما يؤذيه من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً.

أما قولهم: فساحر، شاعر، مجنون، كاهن، وأما فعلهم: فكسر رباعيته، وشج وجهه يوم أحد، وبمكة إلقاء السُّلى على ظهره وهو ساجد، إلى غير ذلك.

وقال ابن عباس: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتخذ صفية بنت حُيي، ومن إذاية الرسول ﷺ أيضاً الطعن في تأمير أسامة بن زيد.

روى البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ بعثاً وأمّر عليهم أسامة بن زيد، فطعن الناس في إمرته، فقام رسول الله ﷺ فقال: «إن تطعنوا في إمرته فقد كنتم تطعنون في إمرة أبيه من قبل، وأيمُّ الله إن كان لخليقاً للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليّ، وإن هذا لمن أحب الناس إليّ بعده»<sup>(١)</sup>. وهذا البعث - والله أعلم - هو الذي جهزه رسول الله ﷺ مع أسامة، وأمّره عليهم، وأمره أن يغزو «أبني» وهي القرية التي عند مؤتة، الموضع الذي قتل فيه زيد أبوه مع جعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة، فأمره أن يأخذ بثأر أبيه، فطعن من في قلبه ريب في إمرته، من حيث إنه كان من الموالى، ومن حيث إنه كان صغير السن، لأنه كان إذ ذاك ابن ثمان عشرة سنة، فمات النبي ﷺ وقد برز هذا البعث عن المدينة، ولم ينفصل بعد عنها، فنفذه أبو بكر بعد رسول الله ﷺ.

وفي هذا الحديث دلالة على جواز إمامة المولى، والمفضول على غيرهما ما عدا الإمامة الكبرى، ويؤكد أنه أن رسول الله ﷺ قدّم سالماً مولى أبي حذيفة على الصلاة بقُبا، فكان يؤمهم وفيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وغيرهم من كبار قريش.

(١) رواه البخاري (٤٢٥٠)، ومسلم (٢٤٦٢)، والإمام أحمد (٤٧٠١، ٥٨٨٨)، وابن حبان (٧٠٥٩). وقال عنه الترمذي: حسن صحيح.



وأطلق الله عز وجل إيذاء الله ورسوله وقيد إيذاء المؤمنين  
والمؤمنات، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً. وأما إيذاء  
المؤمنين والمؤمنات فمنه.. ومنه. (١)

### ومن إيذاء النبي إيذاء أهل بيته وأصحابه:

قال ﷺ: «مَنْ آذَى عَمِّي - أَي الْعَبَّاسَ - فَقَدْ آذَانِي فَإِنَّمَا عَمُّ الرَّجُلِ  
صِنُّ أَبِيهِ» رواه الترمذي وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. (٢)

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن شأس الأسلمي - وكان  
من أصحاب الحديبية - قال خرجت مع علي إلى اليمن فجعاني في سفري  
ذلك حتى وجدت في نفسي عليه فلما قدمت أظهرت شكايته في المسجد  
حتى بلغ ذلك رسول الله ﷺ فدخلت المسجد ذات غدوة ورسول الله ﷺ  
في ناس من أصحابه فلما رأني أمدني عينيه يقول حدد إلي النظر حتى  
إذا جلست قال يا عمرو والله لقد آذيتي قلت أعود بالله أن أؤذيك يا رسول  
الله قال بلى من آذى علياً فقد آذاني. (٣)

وهذا الأمر ينسحب على كل أهل بيته وقرباته ﷺ فأيذاؤهم إيذاء

له. وكذلك إيذاء أصحابه ﷺ يؤذيه، لأنهم هم الذين آووه ونصروه،  
وجاهدوا معه حتى بلغ رسالته، فكان يحبهم ويحبونه، وأوصى بهم ونهى  
عن إيذائهم روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمر أن عمر بن الخطاب  
رضي عنه خطب الناس بالجابية فقال قام فينا رسول الله ﷺ مثل مقامي

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٥٠٤).

(٢) رواه الترمذي، حديث رقم (٣٦١٩).

حديث رقم (٩٢٢٥)، والحاكم في المستدرک، حديث رقم (٣٥٧).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده حديث رقم (١٥٣٩٤) والترمذي، حديث رقم (٤٥٩٦)، وابن حبان في صحيحه،

حديث رقم (٧٠٤٩).

فِيكُمْ فَقَالَ: «اسْتَوْصُوا بِأَصْحَابِي خَيْرًا»<sup>(١)</sup>، وفي رواية ابن ماجه، قال: «احفظوني في أصحابي»<sup>(٢)</sup>.

**النهي عن إيذاء المؤمنين بغير ما اكتسبوا:**

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا كَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

إن إيذاء المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا بالأقوال أو الأفعال القبيحة بهتان وإثم واضح، ومن أنواع الأذى: التغيير بحسب مذموم، أو حرفة مذمومة، أو شيء يثقل عليه إذا سمعه.

أخرج ابن أبي حاتم من حديث السيدة عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «أرأيت الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم» ثم قرأ هذه الآية<sup>(٣)</sup>، وأخرج عن قتادة في هذه الآية: «إياكم وأذى المؤمن، فإن الله يحوطه ويغضب له»<sup>(٤)</sup>.

**المفهوم العاشر: الرغبة في الدار الآخرة لا يعني أن نترك عمارة الدنيا لغيرنا:**

قول الله تعالى: ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَازِئِمَةً إِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْتُمْ أُمْتِعْتَكُمْ وَأَسْرَحَكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وقع فيه الأمر بعد النداء، وإن سبق الأمر بالنداء فيه دلالة على كمال العناية بهذا الأمر، من حيث كان النداء تنبيهاً، وإيقاظاً، وتهيئة للعقل والحس، حتى يتلقى هذا

(١) هو جزء من حديث طويل رواه الإمام أحمد في مسنده برقم قال الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح رجاله ثقات رجال الشيخين.

(٢) رواه ابن ماجه حديث رقم (٢٣٥٤)، قال البوصيري (٥٣/٢): هذا إسناد رجاله ثقات. ورواه أيضاً النسائي في الكبرى، حديث رقم (٩٢٢٥)، والحاكم في المستدرک، حديث رقم (٣٥٧).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٥١٨/٢).

(٤) جامع البيان (٢٣١/١٠).

الأمر تلقياً واعياً، وقد كثر هذا الأسلوب في كتاب الله تعالى للعناية بهذه الأوامر، وبثها في النفوس، وهي يقظة واعية... وشيء آخر في أساليب النداء في القرآن، هو حرص القرآن على إيقاظ الإنسان، وبعث وعيه، واستثارة حسه، وشعوره، وملكاته، ونفي الغفلة والركود والجمود، وكل ما هو من هذا الباب عن حياة هذا الإنسان الذي سخر الله عز وجل له كبريات آياته في ملكوت الأرض والسماء.

وشيء آخر في هذا الأمر هو صرف الكلام عن مخاطبة أزواج النبي ﷺ خطاباً مباشراً في هذا المقام اللأئي يُخَيَّرَن فِيهِ بَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ ﷺ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ وَالْحَيَاةِ الدُّنْيَا، حتى يكون الخيار خياراً خالصاً يُتْرَكُ فِيهِ الأَمْرُ لِمَحْضِ إِرَادَةِ الْمُخَيَّرِ وَفِكْرِهِ، فقد يكون في إقبال الله عز وجل عليهن بالخطاب ما يحبب إليهن اختيار الله ورسوله، ولهذا قدّم في الاختيار قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾، على قوله: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، وإرادة الحياة الدنيا وزينتها جاء في هذا المقام مقابلاً لإرادة الله ورسوله والدار الآخرة، وهذا لا يعني أن إرادة الله ورسوله تعني أن نترك الدنيا لغيرنا، وأن ندع عمارة الأرض، وأن نعيش على هامش الحياة، أجراء عسفاء، كيف والخيرية فينا ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>. ولن تكون الخيرية في أمة مغلوبة، وفي مجموعة من الجهلة والغوغاء. وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسُوا نَصِيبَكُمْ مِنَ الدُّنْيَا﴾<sup>(٢)</sup>

(١) آل عمران: آية ١١٠.

(٢) القصص: آية ٧٧.

ونحن نقف هنا قليلاً لنلقي بعض الضوء على أشياء نرى من الضروري أن تكون واضحة في وعي ناشئة المسلمين، ذلك هو أن إرادة الحياة الدنيا التي يُزهد القرآن فيها ليست هي الرغبة في الانتفاع بما أودع الله سبحانه تعالى في هذا الكون مما يعود على الإنسان بالسعادة والرفاهية والتقدم، أي: ليست هي الرغبة في عمارة الكون، وتطوير حياة الإنسان المادية والمعنوية، في سلم الحضارة والرفق، بل الإسلام يحض على هذا حضاً، ويحث عليه حثاً، وليس مما يدخل في حيز التزهيد في الحياة الدنيا، ويراه جزءاً من الدين، فإن الله الذي أمرنا أن نضرب في الأرض، وسخر لنا ملكوتها، وسخر لنا الشمس والقمر والنجوم، لا يرضى إلا أن تتطلق عقولنا وأيدينا في هذا الكون، تفتش فيه عن أسرار نعم الله، وأسرار آياته، وإنه بمقدار ما نبذل من الجهد في هذا الكون، وبمقدار ما نكتشف من مطاوي النعم التي تعود على الإنسان من أسرار هذا الوجود، يكون وعينا لآيات القرآن الكريم التي ترشدنا إلى تكريم الإنسان، واستغلاله، وتسخير الأرض، والسماء والنجوم والشمس والقمر، كل ذلك لهذا الإنسان، وبهذا يصبح درس الكيمياء والطبيعة والفلك والرياضة والتشريح والبيولوجي والفضاء دروساً دينية، كدرس التوحيد، والفقه، والتفسير، وبهذا يكون البحث العلمي في دولة الإسلام فرضاً من فروض الدين، وتكون مراكز هذه الأبحاث دور عبادة كمعاهد الفقه والتفسير والتوحيد، والمساجد، وحافز البحث والكشف في هذه المراكز حافز ديني، والهجرة إليه هجرة لله ولرسوله، فعلماء الكون والطبيعة هنا عابدون يشيع في وجوههم الخير والظهور والنور، وقبّلتهم هي الله ثم صالح الإنسان.

أما إرادة الحياة الدنيا وزينتها التي يُزهد فيها القرآن الكريم، فهي الانغماس في الملاذ والشهوات الحيوانية التي تضاد إنسانية الإنسان، وتنزل به ولا ترتفع، هي البهيمية المعطلة لطاقت الإنسان، وكلمة الدنيا

- هنا - وصف من الدنو والالتصاق بالتراب، والأرض والجسدية والطين، والانصراف وراء الشهوات، ولم يكن للقرآن الكريم أن يذم الحياة أو يُزهد فيها، لأن دعوة القرآن الكريم هي دعوة الحياة، لأن الله عز وجل جعل آدم في الأرض خليفة، وخلافة الله لا تكون في حياة ذميمة، وأن الجد في الدنيا جد في عمارة الكون، وهو من أفضل ما يُعبد الله عز وجل به، بشرط دوام الصلة بالله، والتسليم له، والاحتساب عنده.

قال تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِمَّنْ أَفْحَيْنْتَهُ﴾<sup>(١)</sup>، والحياة صفة من صفات الجلال سبحانه، فهو الحي القيوم، وإنما يزهد القرآن الكريم كما قلنا في الحياة الدنيا الهابطة، وحين نقول الانغماس في الشهوات، وملذات الجسد، والنفوس المادية، والمظلمة، لا نريد بذلك سقطات الجنس، وندس لذاته فحسب، كما يتبادر إلى الأذهان عند ذكر هذه العبارات، وإنما نريد به كل انحراف عن جادة الأخلاق، والقيم الإنسانية العليا، التي أكّدها الأديان كلها، فهؤلاء الانتهازيون الذين يركضون وراء أنانيتهم، ويدورون في فلك نفوسهم الضيقة، وأهوائهم الخاصة، هم مُرْتَضِخُونَ في هذا الخيال، ومثلهم أولئك المحافظون الذين لا يضربون على أيديهم، ولا يجتهدون في تطهير الجماعة الإنسانية من دنسهم وأنانيتهم، في حدود فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن المسلم لا تبرأ ذمته عند الله إذا حفظ القيم الإنسانية والأخلاق القرآنية في حياته فحسب، وإنما تبرأ ذمته إذا كان مع ذلك حارساً عليها، ضارباً على أيدي العابثين بها، هو في الأولى عبد من عباد الله، وهو في الثانية واحد من جنود الله، وكل ذلك تحكمه الضوابط الشرعية وليست غوغائية العامة<sup>(٢)</sup>.

(١) الأنعام: آية ١٢٢.

(٢) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٤٤ - ٢٤٧

## التزهيد في الدنيا وفي زينتها:

قول الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ إنما هو تزهيد في زينتها هي، أي: زينة الدنيا الهابطة التي مر بياننا لها، وليس تزهيدا في زينة الحياة مطلقا، لأن الزينة في دين الله ليست حراماً، وقد أنكر القرآن الكريم بأسلوب قوى تحريم زينة الحياة، نجد ذلك في نبذة هذا الأسلوب الظاهر: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾<sup>(١)</sup>.

وزينة الله زينة مضافة إليه سبحانه، فهي الزينة التي أصلها الطهر، والنقاء، والقرآن الكريم يخاطب البشرية كلها، ويأمرها بأن تأخذ زينتها، فيقول: ﴿يَبْنَیْءَ آدَمَ حُدُوًّا زَيْنَتَكَ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾<sup>(٢)</sup> وفيه إشارة إلى أن ارتياد المساجد والكون عندها من مظاهر الزينة، والإقبال على الحياة من الأخيار الأطهار الذين وفروا لأنفسهم حياة طيبة كريمة تجلها الزينة، وترفع قيمها العندية عند بيوت الله، وطلب مرضاته، وابتغاء وجهه.

ولفظ (تُرِدْنَ)<sup>(٣)</sup> في قوله سبحانه: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ يكمن فيه سر التزهيد في الدنيا، والانحراف عن الدين عند خلوص الهمم والإرادة إليها، لأن الإنسان في هذه الحالة سوف يقصر نظره ويتركز على الأرض والطين، فلا يستشرف إلى غيرها من القيم العليا، والآفاق المضيئة، التي تلهمه النقاء والطهر، وتمده بالوعى المتفتح، وتخرج به من دائرة الأنانية الضيقة، والفرديّة العفنة، إلى الأفق الإنساني الأعلى، وأؤكد أن القرآن الكريم لا يُزهد المسلم في الدنيا، بمعنى أنه يأمره بأن يكرهها ويوليها ظهره، بل القرآن الكريم يأمره أمراً علوياً حاسماً بأن يطمأ

(١) الأعراف: آية ٣٢

(٢) الأعراف: آية ٣١

(٣) الإرادة معناها: أن يتجه الهمم كله، وأن تتجه النفس بكليتها إلى الحياة الدنيا وزينتها

بأقدامه مناكب الأرض، وأن يخرج منها كل طيب من الرزق المشتهى، وكل زينة، ورياش، وأن يُعَدَّ فيها الغلبة والقوة، التي يرهب بها عدو الخير والحق وإنسانية الإنسان، وهل يكون لك بنفض اليدين من الدنيا والانصراف عنها، والتغنى بأناشيد الموت والفناء؟ وحين نقرأ في كتب الإسلام عبارات التجرد إلى الله، وطلب ما عنده، وخلوص القلب والنفس إليه، يحسن بنا أن نقف قليلاً لنحرر فهمنا لهذه الأفكار، وإياك أن يلتبس في ذهنك أن هذه دعوة إلى الهروب من الحياة، والانجذاب الأعمى نحو الموت، وإنما يجب أن نفهم أن المراد بالتجرد إلى الله هو عمارة هذا الوجود، وتحقيق معنى خلافة الله في هذه الأرض، والكد بالعقل واليد، جرياً وراء التفقه في آيات الله، بالبحث في أسرار القدرة في الأرض والسماء، والكواكب التي تسبح في هذا الفضاء، أما الهروب من الدنيا، والركض نحو الفناء، فلسبية وإبطال، وليس منه شيء في كتابنا، ولا في سنة نبينا ﷺ، ولا في سيرة أئمة هذا الدين، والذي في الدين أن غمس اليد في جوف الأرض، والعمل في مناجمها، وصبغ اليد في استخراج دقاتها، أبرّ عند بعض الفقهاء من صلاة النافلة (١).

### المفهوم الحادي عشر: ترك حرية الاختيار لزوجات النبي ﷺ فيه إعلاء لشأنهن وإظهار لمكانتهن:

نلاحظ في كلمة «تعالين» المذكورة في قوله سبحانه: ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعَنَّ وَأُسْرِحَنَّ سَرًا جَمِيلًا﴾ أنها لا تفيد الأمر بالإقبال فحسب، وإنما تفيد إقبالا فيه سمو وارتفاع، كما تفيد أيضاً الخلوص والاندفاع، كأنه قال: أقبلن غير صاغرات، وأقبلن بمحض إرادتكن واختياركن، على حد قولهم: أقبل يُخَاصِمُنِي، وذهب يكلمني، وقام يهددني. فالتعبير في هذا يفيد أن الفاعل منصرف إلى الفعل انصرافاً كاملاً، بمحض إرادته واختياره. قال صاحب

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٤٧، ٢٤٨.

اللسان: وقالوا في النداء: تعال، أي: أَعْلُ، ولا يُستعمل في غير الأمر، وقال الراغب: و«تعال»، قيل: أصله أن يُدعى الإنسان إلى مكان مرتفع، ثم جعل للدعاء إلى كل مكان، قال بعضهم: افعل كذا غير صاغر، تشریفاً للمفعول، وعلى ذلك قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

ويشير الأزهري إلى خروجها في الاستعمال عن الأصل الذي هو الدعاء إلى مكان مرتفع، فيقول العرب في النداء للرجل: تعال، وللإثنين: تعاليا، وللرجال: تعالوا، وللمرأة: تعالي، وللنساء: تعالين، ولا يبالون أن يكون المدعو في مكان أعلى من مكان الداعي، أو مكان دونه.

وهذا المعنى في سياقنا يؤكد لأزواج النبي ﷺ حرية الاختيار، ويدفع عنهن كل خاطر من خواطر الإغراء، أو التهديد، أو الإرغام، فكأنه يضاف إلى ما قلناه في سر قوله: «قل لأزواجك»، وعدم توجيه الخطاب من المولى إليهن مباشرة، ويضاف إلى هذا، أي إلى تأكيد حرية الاختيار، تقديم المتاع على التسريح، لأن التسريح هو الطلاق، والتمتع إعطاء المتعة، وتقديم المتاع إلى التسريح يكاد يكون ضرباً من الإغراء، وقد جاء في الآيات المقابلة: ﴿وَلِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فذكر: «أَجْرًا عَظِيمًا» قد أعدّه ذو الجلال بنفسه، وهو وعد أي وعد، ولم يذكر في اختيار الدنيا وزينتها وعيها: أي: لم يقل: «فإن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فإن الله أعد لهن عذاباً عظيماً»، وذلك لشدة الاحتياط والمحافظة على حرية الاختيار، وقد أشار إلى هذا المعنى العلامة الألوسي، فقال: وتجريد الشرطية الأولى عن الوعيد للمبالغة في تحقيق معنى التخيير، والاحتراز عن شائبة الإكراه، قيل: وهو السر في

(١) آل عمران: آية ٦١.

(٢) آل عمران: آية ٦٤.



تقديم التمتع على التسريح. وعلينا أن نُحکم فهم هذا حتى نستيقن أنه لا إكراه في دين، ولا إكراه في طاعة، وأن سبيل الله أرفع شأنًا من أن يكره أحداً إليه، وإنما الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة حتى تكون الطاعة مصحوبة بالإقبال الحي والقلب الحي<sup>(١)</sup>.

### كيفية تخيير النبي ﷺ لأزواجه:

اختلف العلماء في كيفية تخيير النبي ﷺ لأزواجه على قولين:

**الأول:** أن النبي ﷺ خيرهن بإذن الله تعالى في البقاء على الزوجية أو الطلاق،

فاخترن البقاء معه، قالت عائشة ومجاهد وعكرمة، والشعبي وابن شهاب وربيعة.

**الثاني:** إنما خيرهن بين الدنيا فيفارقهن، وبين الآخرة فيمسكنهن؛

لتكون لهن المنزلة العليا كما كانت لزوجهن؛ ولم يخيرهن في الطلاق؛ ذكره الحسن وقتادة. ومن الصحابة رضي الله عنهم جميعاً عليّ فيما رواه عنه أحمد بن حنبل أنه قال: لم يُخَيَّر رسول الله ﷺ نساءه إلا بين الدنيا والآخرة.

قال القرطبي رحمه الله بعد ذكره للقولين السابقين: قلت: القول الأول أصح، لقول عائشة رضي الله عنها لما سئلت عن الرجل يخير امرأته فقالت: قد خيرنا رسول الله ﷺ أفكان طلاقاً! في رواية: فاخترناه فلم يعده طلاقاً.

ولم يثبت عن رسول الله ﷺ إلا التخيير المأمور بين البقاء والطلاق، لذلك قال: «يا عائشة إنني ذاكرك أمراً فلا عليك ألا تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك...» الحديث<sup>(١)</sup>. ومعلوم أنه لم يرد الاستئمار في اختيار

(١) من أسرار التعبير القرآني.

الدنيا وزينتها على الآخرة. فثبت أن الاستثمار إنما وقع في الفرقة، أو النكاح، والله أعلم.<sup>(٢)</sup>

### الإحسان المطلوب هو الدوام عليه من غير رجوع؛

الإحسان في الفعل يكون بوجهين:

**أحدهما: الإتيان به على أكمل الوجوه.**

**الثاني:** الدوام عليه من غير رجوع، فكأنه قال: قل لهن من جاء بهذا الفعل المطلوب منكن كما أمر به، وتمادى عليه إلى حالة الاحترام بالمنية فهذا له أفضل الجلالة والإكرام. وذلك بين في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾<sup>(٣)</sup> إلى آخر الآية، فهذا هو المطلوب، وهو الإحسان.<sup>(٤)</sup>

### المفهوم الثاني عشر: معالجة الأخلاق وسلوك النساء من أعضل القضايا وأخطرها:

في قول الله تعالى: ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ مِنَ يَاتِ مِنْكَ بِفَحِيصَةٍ مِّنْ بَيْنَةٍ يُضَعَّفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ خطاب من الله سبحانه تعالى إلى أمهات المؤمنين بلا واسطة، وقد قال الله عز وجل في الآية الأولى ﴿يٰۤاَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ فخطابهن بواسطة النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك مؤذن بخطورة الأمر الذي جاء الخطاب من أجله، فإن موضوع هذا الخطاب يعالج قضية من أعضل القضايا التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية، وهي قضية الأخلاق وسلوك النساء، ولذلك آثر هنا لفظ النساء، ولم

(١) سبق تخريجه.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٧٣).

(٣) الأحزاب: آية ٣١.

(٤) المرجع السابق (٣/١٥٣٢).

يُذَكَّرْنَ بلفظ الأزواج، كما قال هناك: (قُلْ لَأَزْوَاجِكُمْ) القضية هنا قضية نساء الأرض،... والفاحشة التي يضاعف العذاب لهن من أجلها من المحال أن تقع في بيت النبوة، والكلام وارد على سبيل الفرض، والتقدير، مبالغة في التفسير من هذه الفاحشة، ومبالغة في بيان خطرهما، وهو كلام يُلَوِّح بسوط العذاب، ويبلغ النعمة والغضب، على أرباب الخطيئة في الأرض.

والآيات الكريمة فيها قرع عنيف، وطرد لأشباح الوثنية، وتقديس الإنسان، ونقاء الجماعة المسلمة من فكرة الأسر المقدسة التي شققت بها المجتمعات، والتي أثقلت كاهل الإنسان في آحاد طويلة، فأهل بيت النبي ﷺ يُعاقبون عقابين، وكان أهل هذا البيت رضوان الله عليهم يعرفون طبائع الناس، ويعرفون قيمة هذه الآيات في كتاب الله، ويعلنون في أمة الإسلام هذا المبدأ السماوي الذي قرره الله في شأنهم، ويقطعون في نفوس المؤمنين كل خاطر من خواطر التنزيه، أو التعالي لهذا البيت الطاهر، إخلاصاً منهم للرسالة، وفقها للدعوة، ومطاردة لأشباح الوثنية التي تقدس الإنسان<sup>(١)</sup>.

قال رجل لزين العابدين رضي الله عنه: إنكم أهل البيت مغفور لكم، فغضب غضبة الحق وقال: نحن أحرى أن يجري فينا ما أجرى الله تعالى في أزواج النبي ﷺ من أن نكون كما نقول: إنا نرى لمحسننا ضعفين من الأجر، ولمسيئنا ضعفين من العذاب.. وقرأ هذه الآية.

### المفهوم الثالث عشر: فضل أمهات المؤمنين على غيرهن من النساء:

في قول الله تعالى في حق من تأت من زوجات الرسول ﷺ (بفاحشة مبينة) وحاشاهن أن تأت واحدة منهن بمثل ذلك ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ يُفْحِشُهُ مُبِينَةً يَضَعَفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٣٦٩.

إشارة إلى فضل أمهات المؤمنين، لأنه كلما أوغل الأسلوب في المبالغة بالوعيد لمن يرتكب جرماً أو إثماً دل ذلك على علو قدر من يتهددهم الله عز وجل بهذا الوعيد.

ومرجع ذلك إلى أن عقوبة الإثم تتأثر متأثراً واضحاً بأقدار فاعليها، فكلما صعد في درج الفضل والكمال، كان هويه إلى المعصية أوضح، وهو بالعقاب والزجر أولى.

### جزاء زوجات الرسول ﷺ في حالتها المعصية والطاعة ضعف جزاء غيرهن:

قول الله عز وجل : ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَّفَ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٢﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ۖ يُطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۚ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِن آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١).

هذه الآيات الكريمة نادى الله سبحانه تعالى فيها نساء النبي ﷺ في أولها، وفي وسطها. ناداهن في أولها ليقرر لهن أن جزاءهن - في حالتي المعصية والطاعة - ضعف جزاء غيرهن؛ لأن المعصية منهن - لو وقعت إحداهن في المعصية لا قدر الله - فيها أشد الجحود والكفران بنعم الله عز وجل عليهن وما أكثرها، وفيها إيذاء لرسول الله ﷺ وما أعظمه جرماً عند الله عز وجل، ولأن طاعتهن لله تبارك وتعالى فيها شكر لأنعمه، وفيها إرضاء له ولرسوله. ثم هن بحكم عشرتهن الدائمة للرسول ﷺ أهل

(١) الأحزاب: الآيات ٣٠ - ٣٤.

لأن يقتدى بهن في طاعتهن وفي معصيتهن، ومن هنا يضاعف العذاب لمن تعصى الله ورسوله منهن، وتجزى المطيعة منهن أجرين على طاعتها...

### اختلاف حقيقة الوضع الديني والاجتماعي لنزوات الرسول ﷺ عن سائر النساء:

أما النداء الثاني لنساء النبي ﷺ في الآيات الكريمة فقد قرر الله عز وجل بعده حقيقة الوضع الديني والاجتماعي لهن، بالنسبة لسائر النساء. إنهن لسن كأحد من النساء إذا اتقين الله، وحرصن على رضا رسوله، فقد أتاحت لهن فرص لم ينلها غيرهن، هي فرصة مشاركة الرسول الكريم في حياته، والاهتداء بهديه عن كذب. وفرصة الانتساب إليه، وما في هذا الانتساب من تشريف لهن، وارتفاع بمنزلتهن. وفرصة تنزل الوحي عليه في بيوتهن، وسماعهن قبل غيرهن للحكم التي يتلوها من كتاب الله، أو يبين بها ما يوحى إليه منه.

### نساء الرسول ﷺ مميزات عن بقية النساء:

في قول الله عز وجل: ﴿يُنِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ﴾ ﴿بيان أن زوجات الرسول ﷺ مميزات عن بقية النساء، وهو كونهن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمداً ﷺ ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه الصلاة والسلام في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه: «لست كواحد منكم»<sup>(١)</sup> وعند الهيثمي في المجمع «لست كأحدكم»<sup>(٢)</sup> كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة. (٣)

(١) رواه البخاري في كتاب الصوم الحديث (١٩٦١).

(٢) مجمع الزوائد (٢٢٢/٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٢٠٨/٢٥).

## نساء النبي لسن كغيرهن من النساء:

قول الله تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ﴾ ذهب المفسرون في تحديد معناه إلى مذهبين:

**الأول:** المراد: ليس كل واحدة من نساء النبي ﷺ كشخص واحدة من النساء، أي: من نساء عصرهن، أي: أن كل واحدة من نساء النبي ﷺ أفضل من كل واحدة منهن، لما امتازت بشرف الزوجية لرسول الله ﷺ، وأمومة المؤمنين، فأحد باق على كونه وصفاً لمذكر، إلا أن موصوفه محذوف، ولا بد من اعتبار الحذف في جانب المشبه، كما أشير إليه بالتقدير، أي: لشخص واحد، وإذا كانت كل واحدة منهن أفضل من كل واحدة من نساء عصرها، فإن ذلك لا ينقص من فضل السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ وأخواتها رضوان الله عليهن أجمعين، لكونهن بنات رسول الله ﷺ.

## والثاني يقول - كما يقرر الزمخشري -: المراد بقوله «لَسُنَّ كَأَحَدٍ

من النساء» لسن كجماعة واحدة من جماعات النساء، أي: إذا تقصيت أمة النساء جماعة جماعة لم يوجد بينهن جماعة واحدة تساويكن في الفضل والسابقة، وليس في الآية دلالة على أن كل واحدة منهن أفضل من كل واحدة من نساء عصرها، لأن المعتبر هنا جماعة نساء النبي ﷺ لا واحدة واحدة، و«أَحَدٍ» جاء في سياق النفي، فاستوى فيه المذكر والمؤنث، والواحد وما وراءه. (1)

(1) من أسرار التعبير القرآني ص 177، 178 بتصرف.

## حث زوجات الرسول ﷺ على الاستمرار على تقوى الله وعدم الخضوع في القول:

قوله: ﴿إِنَّ أَتْقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ فيه تهيج لزوجات الرسول ﷺ بالاستمرار على ما هن عليه من تقوى الله عز وجل ، وعدم الخضوع في القول، وذلك لأنهن مبرئات عن التخضع بالقول، وملاينة الحديث للغرباء، ووراء ذلك ففي هذا القول نهي مؤكد لنساء المسلمين عن الخضوع والملاينة مع الرجال الأجانب، وإذا كان الله عز وجل نهي النساء عن الخضوع في القول، والملاينة مع الرجال الأجانب فإن هذا النهي ينسحب أيضاً على الرجال، فعلى الرجال ألا يخضعوا لغير زوجاتهم، أما مع زوجاتهم فيلينا في القول معهن، وعلى المرأة أن تخضع في القول لزوجها.

## المفهوم الرابع عشر: المنهج السلوكي الذي رسمه الله عز وجل لأمهات المؤمنين ليكن قدوة لغيرهن

قال تعالى: ﴿يَنْسَاءَ النَّبِيِّ لَسُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْنَ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَأَذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ (١).

في هذه الآيات الكريمات يبين الحق جل وعلا المنهج السلوكي الذي رسمه لأمهات المؤمنين، وفرض عليهن اتباعه، في النواهي والأوامر التي وجهها إليهن.

وأول ما يفرضه هذا المنهج عليهن هو ألا يرققن الكلام، ولا يلن فيه، ولا ينطقن به خنثاً مريباً، إذا كن يتحدثن مع غير رسول الله ﷺ، وغير محارمهن من الرجال؛ فإن حديث المرأة إذا كان بصوت هامس، وحين يشبه

(١) الأحزاب: الآيات ٣٢ - ٣٤.

أن يكون مسارة - يُعَرِّضُهَا فِي نَظَرِ الْمَرَضِيِّ مِنَ الرِّجَالِ لِأَنَّ يَسِيئُوا الظن بها . فينزلوها عن المرتبة التي هي فيها . فكيف إذا كانت مكانتها بين النساء هي أعلى مكانة تصل إليها امرأة؟ كيف إذا كانت إحدى نساء النبي ﷺ؟ حقيقة كان الرجال الذين تتحدث إليهم نساء النبي من الصحابة، وكانوا على درجة من الطهر والشرف تليق بصحبتهم للرسول ﷺ، كما كانوا أعرف بطهر أزواج النبي ﷺ وبعدهن عن كل ما يريب !..

وحقيقة كان نساء النبي ﷺ على يقين من أنه ليس بين الرجال من يقاربه، فضلاً عن أن يساويه فيما تطمح إليه المرأة، أي امرأة: سمو مكانة، وقوة شخصية، وكمال رجولة، فلا يعقل أن يحاولن إثارة رجل غيره بطريقة أو بأخرى...

لكن هذا كله لم يعفهن من أن يوجه إليهن الله عز وجل قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾؛ فإن الآيات ترسم لنساء النبي ﷺ المنهج السلوكي، وما ينبغي أن يشرع للمرأة منهج في السلوك لا تكون هذه المادة من مواده. ثم إن المجتمع الإسلامي رغم سلامته لا يخلو من منافقين قلوبهم مريضة، فأولى كل مجتمع آخر بالنسبة لغير أزواج النبي من النساء، وهذا المنهج ليس مقصوراً على نساء النبي ﷺ؛ فإن كل مسلمة مطالبة بأن تلتزمه وتسير على هداه.

ولا يعني توجيه النهي - في الآيات - إلى نساء النبي ﷺ أنهم قد أخطأوا قبل أن يوجه إليهن؛ فإن له في أسلوب القرآن الكريم نظائر كثيرة: من بينها ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ (١)، ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ (٢) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

(١) يونس: آية ١٠٦.

(٢) الشعراء: آية ٢١٣.



كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ إِنَّهُ الْكُفْرُ وَالْإِيْثْمُ يُرْجَعُونَ ﴿١﴾، ﴿وَلَا تَكُوْنُ مِنَ الْمَشْرِكِيْنَ﴾ (٢).

والخطاب في جميعها موجه إلى رسول الله ﷺ، وهو الداعي إلى التوحيد فلا يتصور منه الوقوع في الشرك من قريب أو بعيد! ...

وثاني ما يفرضه المنهج السلوكي لأزواج النبي ﷺ هو هذا الأمر الذي توجهه إليهن الآية: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أيضاً يتعلق بكلامهن، غير أنه يعالج موضوع هذا الكلام، بعد أن عالج النهي قبله طريقتهن في إلقائه.

إنهن قد نهين في المادة الأولى عن أن يَنْكَسِرْنَ وَيَلِنَّ وهُنَّ يتكلمن؛ حتى لا يطمع أحد فيهن. ثم أمرن في المادة الثانية بالألا يتناولن من الموضوعات في حديثهن إلا ما يتعارفه الخلق الكريم، والمجتمع السليم، ولا ينكره. وبالمادتين كليهما يَسْلَمُ كَلَامُهُنَّ وَيُقْبَلُ موضوعاً وطريقة أداء، فلا يؤخذ عليهن خروج عما يفرضه الأدب الرفيع في الموضوع، ولا انحراف عما تحتمه الصرامة وقوة الشخصية في طريقة الأداء! ...

إن القول المعروف هو القول المسموح به دون غضاضة، ومنه الواجب كذكر الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتلاوة القرآن الكريم، والاستغفار والتوبة. ومنه المباح كالكلام الذي تفرضه ضرورات الحياة مع كل إنسان، ويحتاج إليه الناس عادة في معاملاتهم المشروعة. وقد يطلبه الشرع دون إلزام به كإلقاء التحية، وكلمات المواساة إذا كثر قائلوها، وكلمات التهنئة.

وبدهي أن من القول ما يحرمه الشارع ويعاقب عليه، كالكلام الذي يغتاب به المسلم غيره، والكلام الذي يوقع به بين مسلم وآخر، والكلام الكذب، وشهادة الزور، والشتم، والسب، والقذف، وإفشاء الأسرار التي أوْتَمِنَ عليها. وهذا الكلام وما يماثله أبعد ما يكون عن أن يوصف بأنه

(١) القصص: آية ٨٨.

(٢) الأنعام: آية ١٤.

قول معروف، فتجنبه إذن مما يجب على كل مسلمة، وعلى نساء النبي ﷺ ورضي عنهن بالأولى ..!

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾: أمرهن - أي أمر زوجات الرسول ﷺ - بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والمرأة تتدب إذا خاطبت الأجانب، وكذا المحرمات عليها بالمصاهرة إلى الغلظة في القول من غير رفع صوت؛ فإن المرأة مأمورة بخفض الكلام، وعلى الجملة، فالقول المعروف: هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.<sup>(١)</sup>

وثالثة المواد التي يحتمها المنهج السلوكي على أمهات المؤمنين، وعلى غيرهن من نساء المسلمين بمقتضى إسلامهن - هي أن يلزمن بيوتهن، فلا يخرجن منها إلا لضرورة، كزيارة أبويها، والاستشفاء، والصلاة الجامعة في المسجد، وعبادة المرضى لمواساتهم، وزيارة المقابر للاتعاظ بالموتى، والسفر برفقة محرم لأداء فريضة الحج.

وحين يخرجن من بيوتهن مضطرات، خروجاً مسموحاً لهن به - يجب أن يكن محتشمت مستورات، فلا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، ولا يتزين ويعمدن إلى إبداء مفاتهن، والآيات تطالبهن بهذا كله في المادة الرابعة من مواد المنهج السلوكي الذي ترسمه لهن، حيث يقول الله عز وجل فيها: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ تَبْرُجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾

وقد فُسر التبرج بالتبختر والتكسر في المشي، وبإظهار الزينة وما تُستدعى به شهوة الرجل، ولبس الثياب التي تصف جسدهن، أو تشف عنه لرقتها وشفافيتها، وبإبداء المحاسن كالجيد والقلائد والقرط، فكل ذلك مما يشمل النهي؛ لما فيه من المفسدة والتعرض للكبائر<sup>(٢)</sup>.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٢٤٧٦).

(٢) محاسن التأويل للقاسمي (١٣/٤٨٤٩).

أما الجاهلية الأولى فمن بين ما قيل في بيان المراد بها - ولعله من أصح - أنها القديمة مطلقاً دون تقييد بزمن، ويضيف الزمخشري<sup>(١)</sup> أنها لهذا هي التي يقال لها الجاهلية الجهلاء، من الزمن الذي ولد فيه إبراهيم أو ما قبله، إلى زمن عيسى. أما الجاهلية الأخرى فهي ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

ومن بين ما قيل أيضاً أنها جاهلية الكفر قبل الإسلام. أما الجاهلية الأخرى فهي جاهلية الفسوق والفجور في الإسلام، وبعضه ما روي من أن رسول الله ﷺ قال لأبي ذر لما عير رجلاً بأمه - وكانت أعجمية -: «إنك امرؤ فيك جاهلية» وقد أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية.<sup>(٢)</sup>

والمرد بالنهي عن التبرج بذلك القيد هو النهي عن أحداث جاهلية في الإسلام تشبه جاهلية الكفر قبله.<sup>(٣)</sup>

وبعد نهيهم عن الخضوع في القول، وأمرهم بأن يقلن قولاً معروفاً، وبأن يستقررن في بيوتهن، ويكنن فيها وقورات خفريات، وبعد نهيهم أيضاً عن التبرج لما فيه من الإثارة المفسدة - تجيء المادة الخامسة من مواد المنهج السلوكي لأمهات المؤمنين في صورة الأمر الإلهي بإقامة الصلاة، حيث يقول عز وجل: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ﴾

وإقامة الصلاة ليست مفروضة على نساء النبي وحدهن، فكل مؤمن ومؤمنة مطالب على سبيل الحتم والإلزام بإقامة الصلاة، حتى اعتبر ترك الصلاة من الكفر الذي لا جزاء عليه - إن استتيب التارك فلم يتب

(١) الكشاف (٥٣٧/٣).

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب المعاصي من أمر الجاهلية، الحديث (٣٨). (٢٥٤٥، ٦٠٥٠)، ومسلم الحديث (١٦٦١).

(٣) تفسير القاسمي (٤٨٤٩).

- إلا القتل، وهذا هو ظاهر قوله ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»<sup>(١)</sup>، وقوله: «العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر»<sup>(٢)</sup>، وهو مذهب الإمام أحمد رحمته الله. أما الأئمة الثلاثة: أبو حنيفة ومالك والشافعي فقد ذهبوا إلى أن ترك الصلاة من أكبر الكبائر، لكنه ليس كفراً مادام تاركها يعتقد بوجوبها. وإذا كانوا قد اتفقوا على أن حكمه أن يستتاب ثلاثة أيام، فإن تاب وإلا قتل - فقد اتفقوا كذلك على أنه يقتل حداً، لا كفراً كما يقول الإمام أحمد.

من هنا كانت عناية القرآن الكريم بالصلاة، فقد وردت فيه نحو مائة مرة، حثاً على إقامتها، ووصفاً للمؤمنين بأنهم يقيمونها، ووعيداً للذين يتركونها، وتبييناً لمكانتها في الإسلام، ولأثرها في تربية إرادة المسلم، وفي تطهيره من أدران الخطايا، وفي السمو به إلى حيث ينتهي بفضلها عن الفحشاء والمنكر، حياءً من الله!

وقد فرض الله عز وجل على المسلمين والمسلمات في كل يوم وليلة خمس صلوات، ووقّت لكل منهما وقتاً لا يجوز تأخيرها عنه، وحكم على هذا التأخير دون ضرورة قاهرة بأنه من الكبائر. ثم جعل أوقات هذه الصلوات الخمس مستغرقة لوقت اليقظة كله، موزعة عليه بحيث يبدأ وينتهي بها، ولا يخلو ما بين البدء والنهاية من صلوات تذكّر بالله، ويرتفع فيها المسلم فوق هذه الحياة.

ولعل هذه الغاية السامية هي السر في أن الأمر بالصلاة والثناء على الذين يؤدونها قد التزمت فيها - في كل موضع ورد فيه أحدهما تقريباً - مادة الإقامة لها، أو المحافظة أو الدوام عليها، أو الاستعانة بها بالصبر،

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان (٨٢).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٢١)، وابن ماجه (١٠٧٩)، والإمام أحمد في المسند (٢٤٦/٥). والبيهقي في السنن الكبرى

(٢٦٦/٢). والحاكم في المستدرک (٧.٦/١).

أو الخشوع فيها، غير أن مادة الإقامة أكثرها وروداً، فقد استعملت في أكثر من خمسين موضعاً، على حين وردت الاستعانة في موضعين، والدوام في موضع واحد، والمحافظة في أربعة مواضع، واستعمل الخشوع في موضع واحد. وكل من الخشوع، والمحافظة والدوام، والاستعانة يحقق معنى الإقامة، من حيث ما يراد بها، فهو اختلاف في التعبير لا يترتب عليه فرق كبير في المعنى المراد.

وبوحي من هذا المعنى قيل بحق إن المؤمن إما أن يكون في صلاة، وإما أن يكون في انتظار صلاة، فهو عندما يدخل وقت فريضة من الفرائض الخمس يسارع إلى الوقوف بين يدي ربه: في مناجاة كلها تدبر وخشوع، وفي دعاء كله إيمان وثقة، وفي امتثال كله إجلال ورهبة، فهكذا فقط يعرف الإسلام صلاة المسلم: يعرفها إحساساً عميقاً بالوقوف بين يدي الله، وانقطاعاً تاماً إلى مناجاته، وتمثلاً حياً لجلاله، واستغراقاً كاملاً في دعائه!

والمؤمن عندما يفرغ من إقامة هذه الفريضة من فرائض الصلاة، لا ينسى أنه بعد ساعات قليلة سيدخل وقت الصلاة التي بعدها، فيفزع إليها ليبدأ بها رحلته العلوية من جديد. وإنه ليستحي من ربه، ولا يغفل عن ذكره، فكيف يجروء على ارتكاب معصية وهو منتظر أن يلقي ربه؟ كيف يجروء على أن يلقي الله في صلاته، وعلى أن يناجيه ويدعوه، وهو مرتكب لفحشاء أو لمنكر؟

ومن أن الصلاة تشغل وقت اليقظة كله أداءً وانتظاراً، ومن أنها هي النفثة الصادقة التي يتوجه بها المؤمن إلى خالقه ورازقه، والرحلة التي تسمو بها نفسه مرات في كل يوم إلى حيث الطمأنينة الحقة. ومن أنها هي العون الذي يستعين به المؤمن - كل مؤمن - على ما يواجهه من كرب، والملجأ الذي يفر إليه كلما ضغطته الحياة في قسوة. من هذا كله - كان

قول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه في وصف عناية رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة»<sup>(١)</sup>.

وأما المادة السادسة من مواد المنهج السلوكي الذي ترسمه الآيات لنساء النبي صلى الله عليه وسلم - فيصورها قوله عز وجل لهن: ﴿وَأَتَيْنَ الزَّكَاةَ﴾ وإيتاء الزكاة ليس مفروضاً على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وحدهن؛ كإقامة الصلاة - في كونه دعامة من الدعائم الخمس التي يقوم عليها الإسلام. ومن هنا يندر أن تجد في القرآن الكريم أمراً بإقامة الصلاة لا يقترن به الأمر بإيتاء الزكاة.

وقد ورد الأمر بإيتاء الزكاة، والثناء على الذين يؤتونها في أكثر من ثلاثين آية من القرآن الكريم، وفي أكثر من عشرين سورة. وجاء فيه الوعيد الشديد للذين لا يؤتونها، حتى لقد وضعهم الله عز وجل بين المشركين، والذين يكفرون بالآخرة، وينكرون البعث، حيث قال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>

وقد أطلق الشارع على إعطاء حق المال اسم الزكاة لأمرين يتصل كلاهما بالاستعمال اللغوي لها، ذلك أنها في اللغة تطلق على معنيين: أولهما النماء، وثانيهما الطهر. يقال: (زكا يزكو زكاءً وزكوا نما، كأزكى - وزكاه الله تعالى وأزكاه - والرجل: صلح وتتعّم، فهو زكى من أزكياء - والزكاة صفوة الشيء، وما أخرجته من مالك لتطهره به - وزكى كرضى نما وزاد كتزكى..)<sup>(٣)</sup>.

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٨٨/٥). ط. الأميرية، وأبو داود في كتاب الصلاة، باب وقت قيام النبي صلى الله عليه وسلم من الليل.

(٢) فصلت: ٦، ٧.

(٣) القاموس المحيط للفيروزآبادي (٤/٣٣٩).

والقرآن الكريم صريح في أن الزكاة تطهر مخرجها، فإله عز وجل يقول: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾<sup>(١)</sup>، ذلك أن إيتاءها يطهر النفس من رذيلة الشح، ومن الذنوب، أما النماء فهو يرجع إلى أنها تزيد رصيد المسلم الذي يواظب على إيتائها من الأعمال الصالحة، وتبارك له في ماله الذي أخرجها منه، بعد أن طهره بأداء حق الفقير والمسكين فيه.

وواضح أن الحكمة من فرضيتها - مع ما فيها من تطهير للنفس، وتممية للمال - هي إصلاح المجتمع؛ لما في إخراجها من التكافل الاجتماعي بين الغني والفقير، ومن التعاون على ما فيه خير المجتمع وسلامته، ومن هنا تذكر بعد الصلاة حيث اجتمعتا في القرآن والسنة؛ لأن الصلاة تنظم صلة الإنسان بربه، وتنظيم هذه الصلة يسبق بطبيعته تنظيم صلوات الناس بعضهم ببعض، في مجتمع متكافل متضامن، وهو ما تكفله الزكاة.

وإذا كان المبدأ الذي تقوم عليه الزكاة هو مصلحة الفقير، بتحريره من عبودية الحاجة - فإنه ليبدو عجباً أن يقول ابن العربي في حكمتها: (وحكمتها التطهر من الأدناس، ورفع الدرجة، واسترقاق الأحرار)<sup>(٢)</sup>، ذلك أن في الزكاة توزيعاً للثروة، وقضاء على الإقطاع، وإشاعة لروح المودة بين الناس غنيهم وفقيرهم. وغير ممكن - والحال هذه - أن يحس فقير بأن أخذه للزكاة يسلبه حرته، أو ينقص منها، وبخاصة إذا كان الذي يقوم بتحصيل الزكاة وتوزيعها هو الحاكم ورجاله كما هو الشأن فيها، وأن الفقير يأخذها بصفقتها حقاً له وليس منحة من أحد!

ومن أجل أن المال شقيق الروح، وأن الحرص عليه والشح به طبيعيان في النفس البشرية - حث الله كثيراً على إيتاء الزكاة، ومدح الذين يؤدونها.

(١) التوبة: آية ١٠٣

(٢) فتح الباري (٢/٢٠٧).

وأكد الرسول ﷺ هذا في أحاديث كثيرة، ثم قاتل أبو بكر رضى الله عنه الذين امتنعوا أيام خلافته عن أدائها، وقال في ذلك كلمته المأثورة: «والله لو منعوني عَنَاقًا كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها»<sup>(١)</sup>.

وينبغي أن يكون مفهوماً أنه ليس معنى أمر نساء النبي ﷺ - وجميع النساء المؤمنات - بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة أن يقتصرن من الطاعة على هاتين الفريضتين؛ فإن عليهن من الطاعة المطلقة لله ولرسوله ما على كل مسلم منها. وهذا هو موضوع المادة السابعة من مواد المنهج السلوكي الذي رسمته لهن الآيات، وإنها لتصوره بقولها: ﴿وَأَطِئْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾.

ونحن نجد في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين أمراً بالطاعة لله ورسوله، أو بالطاعة لرسوله، فإن طاعة الرسول طاعة لله بنص قوله تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾<sup>(٢)</sup>.

كما نجد وعداً مؤكداً بالأجر والثواب العظيم على الطاعة لله ورسوله في كثير من الآيات، ووعيداً شديداً بالعذاب المهين لمن يعصي الله ورسوله في كثير من الآيات أيضاً... وهذا طبيعي مادام الإسلام الكامل هو الطاعة المطلقة لله ورسوله، ومادام العصيان لأوامر الله ورسوله ومخالفتها هو الفسوق، أو الكفر إن كان الموضوع هو توحيد الله، أو الإيمان بالكتب والرسول، أو بالبعث بعد الموت...

وإذا كان كل مؤمن مأموراً أمراً حاسماً بأن يطيع الله ورسوله، فأولى أن يوجه هذا الأمر إلى نساء النبي ﷺ ورضي عنهن، ذلك أنهن بوصفهن من آل بيت النبي ﷺ، وبوصفهن ألصق المؤمنين به، وأكثرهم اطلاعاً على عباداته ومعاملاته وأخلاقه وما يشرع الله للناس فيها - جديرات بأن

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٩، ١٤٥٦، ١٤٥٧)، ومسلم الحديث (٢٠)، والإمام أحمد في المسند (١١٧).

وابن حبان (٢١٦).

(٢) النساء: آية ٨٠.



يقتدي بهن سائر المؤمنين، وأن يعتبروا كل ما يقع منهن من أعمال أموراً مشروعة: مأموراً بها، أو مأذوناً فيها. ولو أن معصية وقعت من أحدهن، لاحتمل ذلك أن يعتبرها بعض المسلمين من الطاعة، وأن يعتبرها فريق منهم آخر من المباحات، وكانت السند لهؤلاء وأولئك في أن يرتكبوها دون إحساس بالخطأ، أو بالوقوع في المعصية!

من أجل هذا يقول الله عز وجل تعقيباً على ما في الآيات من مواد المنهج السلوكي: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ والرجس لغة: القذر، والمأثم، وكل ما استقذر من العمل، والعمل المؤدي إلى العذاب، والشرك، والعقاب، والغضب.<sup>(١)</sup>

أما المراد به في استعمال القرآن الكريم فقد يكون هو الشرك، كما في قوله تعالى ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ﴾<sup>(٢)</sup>.

وقد يكون هو الشيطان، كما روى ابن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: ﴿ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾<sup>(٣)</sup>، وقد فسر في هذه الآية بالعذاب أيضاً، ومثلها الآية الأخرى: ﴿ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾<sup>(٤)</sup>.

وقد يكون هو السخط كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ قَدِّعْ عَلَيَّكُمْ مِنْ رَيْبِكُمْ رِجْسٌ وَعَضْبٌ ﴾<sup>(٥)</sup>، عن ابن عباس: سخط وغضب.

وقد يكون هو النجس والخبائث، كما في قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ فَأَعْرَضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَنَهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾<sup>(٦)</sup>

(١) القاموس المحيط (٢١٩/٢) باب السين فصل البراء..

(٢) الحج: آية ٣٠.

(٣) الأنعام: آية ١٢٥.

(٤) يونس: آية ١٠٠.

(٥) الأعراف: آية ٧١.

(٦) التوبة: آية ٩٥.

يأمر المؤمنين بأن يعرضوا عن المنافقين، ولا يقبلوا اعتذارهم الذي يوثقونه بأيمانهم الكاذبة؛ لأنهم خبث بخبث بواطنهم واعتقاداتهم، ومصيرهم في الآخرة جهنم، جزاءً على ما ارتكبوا من الآثام والخطايا، وعلى كفرهم الذي يضمرونه.

وقد يكون هو المحرم لخبائثه من المطاعم والمشروبات، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (١).

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (٢). وقد يكون هو الشك (٣). كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (٤). وهو في آيتنا يراد به الذنوب والآثام؛ فقد استعير للدلالة عليها، من حيث إن المقترف للقبائح يتلوث عرضه بها ويتدنس، كما يتدنس البدن بالأقذار.

فأما التطهير فالمراد به تخليتهن من كل ما يعاب، والنأي بهن عن مواطن الريبة، والسمو بهن على الدنيا، وتوفيقهن إلى ما يحفظ مكانتهن، وذلك بأن يرزقهن التقوى والورع، ويصونهن عن التورط في الأخطاء والمخالفات وإن لم يكن معصومات! (٥)

(١) الأنعام: آية ١٤٥.

(٢) المائدة: آية ٩٠.

(٣) تفسير الماوردي (٢٢٣/٣)، ومفردات ألفاظ القرآن مادة (رجس) بتصرف، وزاد المسير ص ١١٢٤.

(٤) التوبة: آية ١٢٥.

(٥) تفسير سورة الأحزاب، د. مصطفى زيد ص ٨٧ - ١٠٤ بتصرف.

## المفهوم الخامس عشر: المسلم مأمور بتأدية الأعمال الصالحة التي تعود بالنفع والصالح على الناس جميعاً:

لما قال الله عز وجل «ومن يقنت» فذكر الخشوع، وتطامن القلب، أردفه سبحانه تعالى بالعمل الصالح، والعمل الصالح لا يُراد به في لسان الشرع والقوم: الصلاة والصيام وأخواتها فحسب، وإنما هو كل عمل يُصلح به صاحبه أمراً من أمور الدنيا التي تعود على المجتمع المسلم خاصة، والمجتمع الإنساني عامة بشيء من النفع والصالح، كالكد في الأرض، وإعداد العُدَّة للدفع عن العدل والخير، ومطاردة الظلم والزيغ والرشوة والباطل والانتهازية، وكل صور الضلالات في المجتمع المسلم، وغير ذلك، وأداء هذا كله طاعة لله، كأداء الصلاة والصوم، ويجب أن يفهم المسلمون معاني الإسلام على وجهها الصحيح، ليتقرر في قلوبهم أن التدين أيضاً اهتمام في حياة الناس، كما أمر الله، وصياغة الدنيا على منهج الوحي، والإسلام لا يزهد في الدنيا، ولا يحقرها، لأنها أصل في تكييف الحياة الآخرة، فمن عمّر في الدنيا، وبنى وزرع الخير في أرض المسلمين وتربة هذا الدين حصد خيراً في الآخرة، العمل الصالح الكد في الأرض، وملؤها بالخير المشرق الطاهر، تعمير الأرض بقلوب تُسبِّح، وأيادٍ طاهرة ندية بماء الوضوء، وأؤكد أن تفسير (العمل الصالح) بالصلاة والصوم والزكاة والحج فحسب تفسير خاطئ يهادن الكسل والتواكل، كما يهادن الضلال والزيغ والباطل، ويميل إلى أنواع من العبادة الهادئة، التي لا تكلف صاحبها أكثر من غسل الوجه واليدين، وترفع عنه مشقة الدعوة إلى الخير، والإلقاء بالنفس والبدن في مشكلات الإنسان، وحياة الناس، وإرواء بذور الخير في تربة الإسلام، والإسلام يقرر أن أفضل أنواع العبادة أشقها على النفس، وإياكم أن ينحرف بكم الفهم، فتتوهموا أننا ننزل بالصلاة والزكاة وأخواتها عن محلها الأسنى في الإسلام، فهي أركان الدين، وقواعده التي بُنى عليها،

وإنما نحارب هذا الفهم الضيق لطاعة الله، والعمل الصالح، والذي أذاعه في الإسلام نظر أعشى، نظر إلى وظيفة الإسلام في ضوء التأثير بوظيفة النصرانية، وهذا قياس خاطئ ترفضه أصول الإسلام، وصريح آيات القرآن، وكان من الثمار المرّة لهذا الفهم الضيق أن وجدنا جهلة المفكرين، وحملة الأقلام المأجورة في هذا الزمن يدعون إلى حصر الإسلام في دائرة أفراد الأسرة، وتخلية الساحة الاجتماعية والسياسية والعقائد، والنظم التي تموج بها ساحة العالمين الشرقي والغربي، تخلية هذا كله للمغامرين السياسيين وغيرهم.

وهذا في تقديرنا إبطال للإسلام، وخلع لربقته من الأعناق، وارتداد عنه مُقْتَع بقناع تافه، والمأساة أن سماسرة هذه الفلسفات، وهذه العقائد، وهذا الفكر يعيشون بأموال المسلمين، ويقفون من الجماعة موقف الموجّه، وقد وضعت بعض النظم إمكانات دولهم التي هي أموال المسلمين في أيديهم، وحاول معهم أن يقنع المسلمين بخطر ما سموه «الإسلام السياسي» وهذه تسمية غربية ربما وضعها اليهود في أفواههم، ولكن كل هذا يزيد المسلمين استمساكاً وتمسكاً، وهذا من حفظ الله لدينه، ومن هنا صار فهم الإسلام فهماً واعياً بصيراً، ودراسة التيارات الفكرية المعاصرة دراسة واعية ناقدة، فرض على الشباب المسلم، الذي يُعِدُّ نفسه لتوجيه قلب الأمة، وصياغة ضميرها، حين يقوم بتربية أبنائها. أقول: إن هذا فرض عين على هذه الجماعة من الشباب، إذا قام به البعض لا يسقط عن الباقين، ويجب أن نعلم أننا لن ندخل الجنة إذا لقينا الله ونحن جهلة صامتون، يُحاط بالإسلام من حولنا ونحن نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، وكأنا مسحورون في تيهاء، من عمى العقل، وضلال القلب، لا لن ندخل الجنة ونحن غادرون، وعلينا الآن إذا أردنا أن نلقى الله مسلمين أن نبدأ في وضع خطة لتربية عقولنا ونفوسنا، حتى لا نعيش أيضاً على هامش الدنيا، تلك الحياة التي

يأنف منها الرجل الكريم، وكأننا «نَيْمٌ» أعني تلك القبيلة التي قذعها هذا الشاعر اللقن بعار الأبد، وذُلُّ الدهر، حين قال فيها (من الوافر):

ويُقضى الأمر حين تغيب تيم      ولا يستأذنون وهم حضور

وباختصار.. علينا أن نُعد أنفسنا لنشارك في بناء الحياة.

السر في تقديم الوعيد على الوعد:

هذا، ويقول الإمام البقاعي في سر تقديم آية الوعيد على آية الوعد: «ولما قدم درء المفسد الذي هو من باب التخلي، أتبعه جلب المصالح الذي هو من طراز التَّحَلِّي، وفي هذا أن الإسلام يعني بطهارة القلب، واليد التي يُعدُّ لتعمير الأرض، والعمل الصالح، حتى تكون عمارة لا دنس فيها ولا ضلال»<sup>(١)</sup>

تمكن المرأة من بلوغ الغاية التي يبلغها الرجال في القنوت الذي هو من أعمال القلب بخلاف عمل الجوارح.

وينظر الإمام البقاعي<sup>(٢)</sup> إلى الفرق بين لفظ «يَقْنُتُ» ولفظ «وَتَعْمَلُ» فيجد الأول قد نظر إلى لفظ (مَنْ) فجاء على التذكير، والثاني قد نظر إلى معنى (مَنْ) فجاء على التأنيث، ويُفسر ذلك بأن القنوت عمل من أعمال القلب، ويمكن للنساء أن يبلغن فيه الغاية التي يبلغها الرجال، فلذلك جيء به بضمير المذكر الذي لحظ لفظ (مَنْ)، أما العمل الذي هو من عمل الجوارح، فإن طاقة المرأة فيه لا تبلغ طاقة الرجل، فهي مهما عالجت من العمل، وشقت على نفسها فيه فلن تبلغ نهاية ما يبلغ الرجل، الذي يشق على نفسه، ولذلك جاء في فعل العمل بالتأنيث، ليشير إلى هذه الحقيقة، وهذا تدقيق في الفهم لو نقلناه إلى مجالات شرح النصوص لكان لنا منه

(١) نظم الدرر للبقاعي (٣٤١/١٥).

(٢) السابق ص ٣٤٢.

منهج، أما قراءة حمزة بالياء في الفعلين (يَقْنُتْ، يَعْمَلْ) فإنها حثُّ لهن على منازل الرجال، ليبلغن في العمل الطاقة، وهذه لفظة ذكية، وإن غَضِبَ منها بعض المتتورين الذين ينافقون الحضارة والمرأة، ويزعمون أن الله تعالى فطرها على مثل ما فطر الرجل، ولا أجهل أن من بين النساء من تسبق كثيراً من متخلفي الرجال، في ميادين مختلفة، بل إنني أجد في ميدان عملي بعض الطالبات أقدر على فهم اللغة وعلومها، التي قالوا عنها إنها صعبة، من كثير من الطلاب، ولكن الكثرة في النبوغ والتفوق، يظل لواءه في يد الرجل، وضعف المرأة عموماً لا يخطئه الرجل البصير الذي تتاح له معرفة مستوياتهن الثقافية والاجتماعية العالية، وكان علماء اللغة صادقين في فهم الفطرة، حين هُذِّوا إلى أن التأنيث يعطي معنى اللين والرخاوة، كما أن التذكير يعطي معنى القوة والصلابة ويذكر المفسرون أن القرآن الكريم يجيء بأوصاف آلهة الوثنيين على صفة التأنيث أحياناً ، كقوله: ﴿ هَلْ هُنَّ كَكَشَفْتُ صُرُوءٍ ﴾<sup>(١)</sup> ليضعفها ويعجزها زيادة تضعيف وتعجيز، لأن الأنوثة من باب اللين والرخاوة، كما أن الذكورة من باب الشدة والصلابة، وتراهم يقولون: إنه يقال في وصف المولى سبحانه «عَلام» ولا يقال: علامة، وإن كان العلامة - بالتاء - أبلغ، وذلك لصيانة الرب عن شبهة التأنيث.<sup>(٢)</sup>

### المقابلة بين القنوت والعمل الصالح وبين الإتيان بالفاحشة المبينة:

القنوت في قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ يفيد معنى الخشوع المطلق، والخضوع الكامل، الذي تخبت فيه القلوب لله وتلين، ومن مظاهر هذه الحالة النفسية طول الصمت، والسكوت، وقد يظهر هذا المعنى الذي هو التظامن المطلق لله سبحانه، في الوقوف بين يدي الله

(١) الزمر: آية ٢٨.

(٢) دراسة تحليلية لسورة الأحزاب ص ٢٧٢ - ٢٧٦ بتصرف.

عز وجل ، والقيام للصلاة، وقد يظهر هذا في التضرع اللاهف، والدعاء الحزين، ولهذا نلاحظ نوعاً من المقابلة الخفية بين قوله: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ﴾؛ لأن الإتيان بالفاحشة المبينة الظاهرة في جهارة وتبجح، لا يكون إلا من قلب غليظ جاف خال من معاني الخضوع والخشية والقنوت.

وفي تقييد القنوت بقوله «الله» - عز وجل - معنى يدعو إلى هذا القنوت، ويُلقى عليه فيضاً من نور الجلال والحب والميل، ينساب من لفظ الجلالة، ومن لألائه المشرق الوضاء، وذكر «الرسول» ﷺ عقب لفظ الجلالة في سياق الخشوع والطاعة، تقدير لرسول الله ﷺ، ورفع لمنزلته، وكأن خشيته جزء من خشية الله عز وجل .

وانظر إلى المقابلة الحسنة الواضحة بين قوله سبحانه: ﴿يُنْسَأَ الَّذِي مَنَ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾

انظر إلى سياق الوعيد، وسياق الوعد، وكيف تزاومت الكلمات الشديدة والمخيفة في الآية الأولى، فجاءت فيها: الفاحشة المبينة، وما لها من وقع بشع، وقوله (العذاب) وما وراءه من إيجاع وتكليل وإهانة، وقوله: (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ) وما يفيد من تراكب ألوان العذاب ومضاعفاتها التي لا تتناهي، وما وراء ذلك من غضب ممدود، ثم انظر إلى الكلمات الوضيئة في سياق الوعد، تجد القنوت، وما وراءه من شفافية باصرة وضّاحة، والله والرسول وما وراء ذلك من سكينة القلب، وقرار النفس، ثم تجد العمل الصالح، والرزق الكريم، وكلها كلمات تبعث في النفس معاني الرضا، والطمأنينة، وتملاً القلب شعوراً بالخير والأمل، ثم انظر الفرق بين قوله في جزاء الفاحشة: (يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ) ببناء الفعل

للمجهول، وإشارة وراء هذا البناء أن العذاب يسقط على هذه النفس من حيث لا تدري، وكأنها تُرجم به من وراء الغيب، ثم قال في جزاء القنوت والعمل الصالح: ﴿ تُوْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ فأسند الإتيان إلى ذاته الشريفة، ليكون إتياناً جذاً، وعطاءً وفراً، وماذا تقول في عطاء تمتد به يد الوجود كله من عطائها، وانظر إلى قوله في آية الوعيد: ﴿ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ وكيف كانت هذه الجملة كأنها دمدمة في هذا الوعيد، فمضاعفة العذاب والنكال يسير على المنتقم العزيز<sup>(١)</sup>، ويقول البقاعي في هذه الجملة: «وهي عبارة ناظرة إلى مقام الجلال والكبرياء والعظمة»<sup>(٢)</sup>

ثم قابل هذا في الوعد ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمَ رِزْقًا كَرِيمًا ﴾، وانظر إلى هذا الرزق الكريم الذي أعده صاحب الجلال والكبرياء والعظمة والسلطان، أعدّه بذاته وجلاله، وتأمل ما وراء ذلك من التقدير والتكريم، ثم قل: لماذا لم يقل: يضاعف لها الثواب ضعفين؟ كما قال هناك: «يضاعف لها العذاب ضعفين»؟ لتعلم أن وراء ذلك رمزاً عظيماً<sup>(٣)</sup>. فإن مضاعفة الثواب - كما قال الألوسي - ليست خاصة بأهل بيت النبوة، وذلك بخلاف مضاعفة العذاب فإنها خاصة بهم، فلو قال: يضاعف لها الثواب ضعفين، لم يكن ذلك ظاهراً في التكريم، لأن الله يضاعف ثواب الصالحين جميعاً، ولهذا جاء قوله: ﴿ تُوْتِيهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ ﴾ للدلالة على هذه الخصوصية، وفيه أيضاً إشارة إلى أن الله عز وجل يعطي الأجر الوفير مرة، ثم يستأنف العطاء الوفير مرة ثانية، وهذا دال على التكريم الجميل، وفي كلمة «الأجر» رمز آخر إلى الإعزاز والتكريم، وكأن ما يأخذن من هذا الوفر ليس عطاءً، وإنما هو أجر مستحق لهن، على طيب ما قدّمن من الخير.<sup>(٤)</sup>

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٧٠، ٢٧١.

(٢) نظم الدرر (٢٤١/١٥).

(٣) من أسرار التعبير القرآني ص ١٧٢.

(٤) روح المعاني للألوسي (٣٠٢/٢٢) بتصرف.



## المفهوم السادس عشر: قرار المرأة في البيت سكن للزوج وتنشئة للأجيال الصالحة:

قوله سبحانه «وَقَرْنَ» في قوله عز وجل ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ بفتح القاف مأخوذ من قَارَ يَقَارُ إذا اجتمع، ومنه القارة لاجتماعها، والمعنى حينئذ: اجتمعن أنفسكن في البيوت، أي: ليكن هذا البيت وأعماله، من راحة زوج مكدود، ورعاية طفولة، هدفاً لأنفسكن، تجتمعن حوله، لا تريم عنه نفوسكن ولا تحول.

وقرأ الأكثر<sup>(١)</sup> «وَقَرْنَ» بكسر القاف من (وَقَرَّ يَقِرُّ)، كَوَعَدَ يَعِدُ، إذا سكن وثبت، وأصله من الوقر وهو الحمل، ويقال لما يحطه الحمار والبغل: وقِرَّ، ولما يحمله البعير: وَسَقَّ - بفتح الأول. وقالوا: أوقر البغل والحمار، أي: حمل عليهما وقراً، وأوقرت النخلة إذا أثقلها حملها، وقالوا: أوقره الدِّينَ، أي: أهَمَّهُ وَأَجْهَدَهُ، وقالوا في ذى الحِلْمِ والأناة والرزانة: وقور، فلحظوا فيه معنى الثقل، والقرار.

قال ابن منظور في اللسان<sup>(٢)</sup>: وقوله: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ هو من الوقار، وهذا يعني أنه أمر للنساء بالتحلي بالرزانة، والحلم والوقار في بيوتهن وبين ولائدهن، ليكنَّ ملهمات بسلوكهن وحياتهن.

### على المرأة ألا تخرج من بيتها إلا لحاجة:

في قول الله تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ أمر لأمهات المؤمنين بالقرار في بيوتهن، ولا يخرجن منها إلا لحاجة، لكن ليس هذا الأمر أمراً بالقرار مطلقاً، وتحريماً للخروج، فقد ثبت أنهن - أي: زوجات رسول الله ﷺ - كن يخرجن مع رسول الله ﷺ بعد نزول الآية الكريمة، في الحج والعمرة،

(١) الدر المنصون (٢٠/٩ - ١٢٤).

(٢) لسان العرب مادة (وقر) (٤٣٣٢/٢)، ط. مؤسسة الأعلمی للمطبوعات، ط. أولى (١٤٢٦ هـ/٢٠٠٥ م).

وكذلك صحبن رسول الله ﷺ في الغزوات، ولم يفهم أحد من الصحابة أن هذه الآية أمر يَحْبِسُ النساء في البيوت، وقد ورد في تاريخ الإسلام أن نُسَيْبَةَ بنت كعب المازنية - وكانت من فضليات الصحابيات المؤمنات - قتلت دون رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ورمت من ورائه بالقوس، حتى أصابها اثنا عشر جرحاً، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، وينادي الرسول ﷺ ولدها ويقول: «يا ابن أم عمارة، أمك أمك، اعصب جرحها، بارك الله عليكم من أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان.

كما ورد أيضاً أن الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما خرجت مع طلحة والزبير لما سمعت بانضمام قتلة عثمان إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنهم أجمعين، لتعمل على جمع شمل المسلمين، ووَاد الفتنة التي أثارها رجال من أهل الضلالة، ولم يكن خروجها لقتال عليّ كرم الله وجهه وإراقة دماء المسلمين.

فليس الأمر بالقرار في البيوت حبساً مطلقاً، وإبعاداً لها من ميادين الحياة خارج البيت، وإنما هو إشارة إلى أن رسالتها الكبرى هي البيت، تحتضن فيه ناشئة الأمة، وتُدَكِّي روح الطفولة بالخير، وتُنقِّي كيانها، وتنشئها في أحضان الوضاعة والنور، وتعطي طفولة الإنسان حقها من الرعاية والحفظ.

وليس ذلك هضماً للمرأة، ولا تجاهلاً لأهميتها في الوجود، وإنما هو تكريم لها من حيث كلّفها بأدق عمل في حياة البشرية، وهو صنع الإنسان نفسه، ولو أحسنت أداء هذا الواجب، وقَدّمت لأمتها جيلاً نقياً طاهراً واعياً قادراً، لكان ذلك أسرع في تغيير الحياة، والرقى بها من كل جهد آخر. (١)

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٨٢، ٢٨٤.

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي في هذا الشأن: «وصفوة القول أن خروج المرأة من البيت لم يُحْمَد في حال من الأحوال، وخَيْرُ الهَدْي لها في الإسلام أن تلتزم بيبتها كما تدل عليه آية وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ» دلالة واضحة، ولكنه لم يُشَدَّد الإسلام في هذا الباب تشديداً لكون خروج المرأة من بيتها قد يكون من اللازم في بعض الأحوال، كأن لا يكون لها قيم من الرجال، أو تضطر إلى العمل خارج البيت لخصاصة في الأسرة، أو ضالة معاش القيم، أو عجزه، أو سبب آخر من هذا القبيل، فكل هذه الأوضاع والأحوال قد جعل لها في القانون مندوحة ومتسعا، وجاء في الحديث «قد أذن الله لَكُنَّ أَنْ تَخْرُجْنَ فِي حَوَائِكُنَّ»<sup>(١)</sup>، ولكن مثل هذا الإذن قد مُنَحَّتْهُ المرأة مراعاة للأحوال والضروريات فحسب، لا يُغَيَّرُ شيئاً من القاعدة الرئيسية في نظام الاجتماع الإسلامي، وهو أن دائرة عمل المرأة هي البيت، وليس الإذن بخروجهن منه إلا رخصة وتيسيراً، فيجب ألا يُحْمَل على غير معانيه ومقاصده»

ويقول في موضع آخر: «إنه يجب أن يتاح للمرأة كل الفرص التي تستطيع بها أن تنمي كفاءتها ومواهبها الفطرية، في حدود النظام الاجتماعي بأكثر ما أمكنها، وتقوم بنصيبها من العمل لتعمير التمددين على أحسن وجه ممكن، ويجب أن يكون من الممكن الميسور لها أن تبلغ أعلى مدارج النجاح والرفي، ويجب مع ذلك أن يكون كل رقيها ونجاحها من حيث هي امرأة، إذ ليست محاكاتها للرجال من حقوقها الواجبة، وليس مما ينفع التمددين، أو المرأة نفسها أن تُهَيَّأ وتُعدَّ لتحمي حياة الرجال، ولا هي تستطيع أن تتجح في ذلك النمط من الحياة»

ويقول الأستاذ العقاد رحمه الله: «ولا تحسب أن المجتمع الإنساني ناج من مشكلاته المعقدة في سياسة الأمة، وسياسة البيت، وسياسة الحياة

(١) رواه البخاري في النكاح (٥٢٣٨).

الفردية، حيث يثوب إلى هذا التقسيم الطبيعي الذي لا محيص عنه، فيعمل الرجال عمل الرجال، ويعمل النساء عمل النساء، وتقام دولة المرأة في البيت، ودولة الرجال في معترك الحياة».

ويقول: «وسياسة الدولة كلها ليست بأعظم شأنًا، ولا بأخطر عاقبة من سياسة البيت، لأنهما عدلان متقابلان، عالم العراك والجهاد، يقابله عالم السكينة والاطمئنان، وتديبير الجيل الحاضر يقابله تديبير الجيل المقبل، وكلاهما في اللزوم وجلالة الخطر سواء».

ويقول الشيخ محمد حسنين مخلوف: والحكمة في هذا الأمر ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أن ينصرفن إلى رعاية شؤون بيوتهن، وتوفير وسائل الحياة المنزلية التي هي من خصائصهن، ولا يحسنها الرجال، وإلى تربية الأولاد في عهد الطفولة وهو من شأنهن، وقد جرت السنة الإلهية بأن أمر الزوجين قسمة بينهما، فالرجال أعمال من خصائصهم لا يحسنها النساء، وللنساء أعمال من خصائصهن لا يحسنها الرجال، فإذا تعدى أحد الفريقين عمله، اختل النظام في البيت والمعيشة. (١)

ويقول صاحب الظلال: والبيت هو مثابة المرأة التي تجد فيها نفسها على حقيقتها كما أرادها الله تعالى.. ولكي يهيئ الإسلام للبيت جوه السليم، ويهيئ للفراخ الناشئة فيه رعايتها، أوجب على الرجل النفقة، وجعلها فريضة، كي يتاح للأم من الجهد ومن الوقت، ومن هدوء البال ما تشرف به على هذه الفراخ الزغب، وما تهيء به للمثابة نظامها وعطرها وبشاشتها.

فالأم المكدودة بالعمل للكسب، المرهقة بمقتضيات العمل، المقيدة بمواعيده، المستغرقة الطاقة فيه. لا يمكن أن تهب للبيت جوه وعطره، ولا يمكن أن تمنح الطفولة النابتة فيه حقها ورعايتها. وبيوت الموظفات

(١) صفة البيان في تفسير القرآن (١٨٢/٢) لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف.

والعاملات ما تزيد على جو الفنادق والخانات، وما يشيع فيها ذلك الأرج الذي يشيع في البيت. فحقيقة البيت لا توجد إلا أن تخلقها امرأة، وأرج البيت لا يفوح إلا أن تطلقه زوجة، وحنان البيت لا يشيع إلا أن تتولاه أم. والمرأة أو الزوجة أو الأم التي تقضي وقتها وجهدها وطاقاتها الروحية في العمل لن تطلق في جو البيت إلا الإرهاق والكلال والملال.

«وإن خروج المرأة لتعمل كارثة على البيت قد تبيحها الضرورة، أما أن يتطوع بها الناس وهم قادرون على اجتنابها، فتلك هي اللعنة التي تصيب الأرواح والضمائر والعقول، في عصور الانتكاس والشور والضلال»<sup>(١)</sup>

فأما خروج المرأة لغير العمل. خروجها للاختلاط ومزاولة الملاهي، والتسكع في النوادي والمجتمعات.. فذلك هو الارتكاس في الحمأة الذي يرد البشر إلى مراتع الحيوان!

ولقد كان النساء على عهد رسول الله ﷺ يخرجن للصلاة غير ممنوعات شرعا من هذا. ولكنه كان زمن فيه عفة، وفيه تقوى، وكانت المرأة تخرج إلى الصلاة متلفعة لا يعرفها أحد، ولا يبرز من مفاتها شيء.. ومع هذا فقد كرهت السيدة عائشة رضي الله عنها لهن أن يخرجن بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ففي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ ثم يرجعن متلفعت بمروطهن ما يعرفن من الغلس»<sup>(٢)</sup>. وفي الصحيحين أيضاً أنها قالت: «لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهن من المساجد، كما منعت نساء بني إسرائيل»<sup>(٣)</sup>!

(١) عن كتاب السلام العالمي والإسلام، فصل سلام البيت ص ٥٤، ٥٥. دار الشروق.

(٢) صحيح البخاري: المواقيت (٢٧)، والأذان (٦٣، ٦٥)، ومسلم في المساجد (٢٢٢)، وأبو داود في الصلاة (٨)، والنسائي في المواقيت (٢٥)، والسهو (١٠١).

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (١٦٣)، ومسلم في الصلاة (١٤٤)، وأبو داود في الصلاة (٥٣)، والترمذي في الجمعة (٣٦)، ومالك في الموطأ في القبلة (١٥).

فماذا أحدث النساء في حياة عائشة - رضي الله عنها-؟ وماذا كان يمكن أن يحدثن حتى ترى أن رسول الله ﷺ كان مانعهن من الصلاة؟ ماذا بالقياس إلى ما نراه في هذه الأيام؟<sup>(١)</sup>

### النهي عن التبرج والانكشاف والتكسر:

في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَبْرَجْنَ وَلَا يَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾<sup>(٢)</sup> نهى حاسم لأمهات المؤمنين عن التبرج والانكشاف والتكسر، لأن هذا التبرج مظهر من مظاهر الجاهلية، وهذا النهي وإن كان موجهاً لزوجات الرسول الكريم ﷺ الطاهرات العفيفات فهو موجه إلى وجوب تطهير المجتمع المسلم من عوائد الجاهلية، ومطاردة كل مظهر من مظاهرها في حياة المسلمين، وفي توجه النهي لأمهات المؤمنين فائدة جلية هي الإشارة إلى أن هذه الجاهلية قد تَتَقَنَّعَ وتلبس ثوب الزور، حتى يقع فيها الخيار من حيث لا يشعرون، بل ويدافع عنها هؤلاء الذين صيغت عقولهم صياغة غير إسلامية، ويتحمسون للدعوة إليها، وخصوصاً ما يتعلق بالحجاب وقضايا المرأة.

ويسوقون التبريرات لدعواهم هذه محاولين بذلك إقناع النساء بالتخلص من الحياء، وإلقاء ما دعى إليه الإسلام خلف ظهورهن، من حشمة المرأة، وسيرها على غرار قول الله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾<sup>(٣)</sup>

لكن مهما قيل من تبريرات لدفع المرأة إلى التبرج والتزين فإن الإسلام يرفضها، لأن المرأة المتبرجة تصبح بتبرجها مرمى العيون الجائعة، فتستثير الغرائز فيمن يراها، فيشتتها كل عرييد، وتزني بها كل عين،

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٨٥٩، ٢٨٦٠).

(٢) النور: آية ٢١.

والإسلام يرفض أن تكون هذه الحيوانية وهذه الجسدية المسعورة خلقاً من أخلاق المسلمات، لأنه يرفع إنسانية المسلمة بآدابه وأخلاقه، فوق مرتبة الحيوانية الدنسة الهابطة. ويكافح الإسلام حيوانية الشهوة في المجتمع المسلم، ويغلق دونها كل باب.

فقد ورد في الحديث القدسي: «النظرة سَهْمٌ من سهام إبليس مسمومة، فمن تركها من خوف الله أثابه الله جل وعز إيماناً يجد حلاوته في قلبه»<sup>(١)</sup>

وورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من مسلم ينظر إلى محاسن امرأة ثم يغض بصره إلا أخلف الله له عبادة يجد حلاوتها...»<sup>(٢)</sup>

ويدعو الرسول عليه الصلاة والسلام إلى حفظ الجوارح من الدنس والفساد، ويُنَفِّر النفوس المؤمنة من فاحشة العين والأذن واللسان والأطراف فيقول: «إن الله كتب على ابن آدم حفظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفسُ تمنى وتشتهي، والفرج يُصدِّق ذلك أو يكذبه»<sup>(٣)</sup>.

### **المفهوم السابع عشر: المحافظة على الصلاة والزكاة تربية للنفس وتدريب لها على التركيز والوعي والعطاء والتضحية:**

في إقامة الصلاة بالمحافظة على سنتها وفضائلها، وأخذ النفس بالمحافظة على دقائقها في اليوم خمس مرات درس نافع في تربية النفس على الدقة الواعية، والإتقان البصير، ولأمر أراده الله تفرقت أوقاتها،

(١) رواه الحاكم في المستدرک (٧٩٤٥) (٣١٤/٤) وقال عنه: صحيح الإسناد. وقال الذهبي: إسحاق واه. والقضاعي في مسند الشهاب (٢٩٢، ٢٩٣). وانظر مجمع الزوائد (١٧٦/١، ٢٨٨/٥، ٦٣/٨)، والترغيب والترغيب (٢٨٣٨).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٦٤/٥)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٨٣٩).

(٣) رواه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٣)، وفي القدر (٦٦١٢)، ومسلم في القدر (٢٦٥٧)، واللفظ له، وأبو داود في

النكاح (٢١٥٢)، وانظر الترغيب والترهيب (٢٨٤٥)

وتخللت ساعات العمل اليومي ليكون ذلك تدريباً على التركيز والوعي، يشمل ساحة المجتمع المسلم كله، في مختلف مجالات نشاطه، ولهذا المعنى في لفظ الإقامة، قالوا: إن كل موضع من مواضع مدح الصلاة، والحث عليها جاء بلفظ الإقامة مثل: ﴿ الْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ ﴾<sup>(١)</sup>، ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾<sup>(٢)</sup>. ولم يقل: «المصلين» إلا في المنافقين، وقالوا أيضاً: إن المصلين كثير، والمقيمين لها قليل.

وفي الأمر بإيتاء الزكاة في قوله سبحانه تعالى لزوجات الرسول ﷺ ﴿ وَعَاتِبَنَ الزَّكَاةَ ﴾ ليس المغزى منه إخراج القدر المعلوم من المال بشروط معلومة هو إطعام فقراء المسلمين، وحمل معدمهم على الجماعة الموسرة فحسب، وإن كان هذا المعنى جليلاً، ومظهراً من مظاهر التكافل والتضامن الإنساني الرفيع في المجتمع المسلم، وإنما يُقصد به مع ذلك تدريب النفس المالكة للثروة على العطاء والتضحية، وتطهيرها من الشح، وداء الطمع، وكلما زادت الثروة زاد هذا القدر المحدود من الزكاة، ليكون مقابلاً لما عساه يتجسد من خلأئق الحرص والمنع والشح وغيرها، مما يتولد في ظل زيادة المال.<sup>(٣)</sup>

وفي قوله سبحانه: ﴿ وَأَقَمْنَا الصَّلَاةَ وَعَاتِبَنَ الزَّكَاةَ ﴾ فيه توجيه إلى تطهير النفس وتنقيتها من شوائب الشهوة والهوى، وإرشاد إلى ما يستعان به على المحافظة على حدود الدين، ومطاردة هواجس الشر، ووسوسة الشيطان، فإن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي وسيلة من أصح الوسائل، وأصدقها في تربية الباطن النظيف، وخلق الشفافية الروحية التي تؤهل النفس لقبول أمر الله، وتؤهل القلب للوجل، والخوف والانكفاف عن ما يستوجب عقابه، وقد جربها الناس فوجدوها صادقة

(١) النساء: آية ١٦٢.

(٢) البقرة: آية ٢٧٧.

(٣) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٩٣، ٢٩٤.



في هذا الباب، لأنها ذكر، وذكر الله أكبر من هواجس الشر، ووسوسات الشياطين، وجاء الأمر بالصلاة بعد النهي عن التبرج معطوفاً عليه للإشارة إلى أن عدم إظهار الزينة، وعدم الملاينة في القول ليس وحده مقصود الشرع، وإنما لا بد أن يكون وراء هذا الحجاب نقاء وطهارة ووضاءة، ونظافة وخلو من كل دنس. والصلاة الصحيحة درس في توجيه العزيمة والهمة والكيان كله إلى الله، ابتغاء وجهه خاصة، وكأن ذكر الصلاة هنا وفيها معنى الخلوص المطلق لله، يقول: ليكن هذا الحجاب استجابة لأمر الله، لا مداهنة، ولا رياء، وليكن كالصلاة التي لا تتجه بها المسلمة إلا إلى الله، وبهذا يبرأ المجتمع من نفاق الحجاب، ومن دنس يكون وراء النقاب، وتخلص مظاهر الدين للدين نفسه، وليس لألا عيب مسرح السياسة، ويكون الدين لله.

وشيء آخر وراء هذا العطف، فالصلاة التي هي في الإسلام عماد الدين، وسناده، والتي هي فرق بين المؤمن والكافر، والتي لعن الرسول ﷺ تاركها، وجارَ تاركها، جاءت في السياق مقرونة بالنهي عن التبرج، وكأن صيانة المجتمع من دنس الفحشاء هو ركن في إقامة كيان الأمة، كما أن الصلاة ركن من أركان الإسلام، والوقوف بين يدي الله، والتجرد الكامل له سبحانه، ينفث في نفس المسلم قوة من روح الله، حين يتدرب في مواقف الصلاة المتعددة، على قصد وجهه سبحانه تعالى وحده لا شريك له، وذلك يعطي مسلمة العصر دفعا قويا في مواجهة ضلالات الجاهلية التي تغري بالدنس والتبرج، وتزور من العفاف والحجاب. (1)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ معنى عام يدخل فيه ﴿ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ ﴾ كما يدخل فيه ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ وغيره مما تقدم، فكأنه ذكر هذه الأشياء جميعاً مرة ثانية، وفي هذا التكرار الخفي

(1) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٩٠، ٢٩١.

توكيد وثبتت لهذه المعاني في القلوب، وله مزية في فضل الكلام وفصاحته، يعني أن آخر الكلام قد عاد إلى أوله، واتصل به اتصال الكل بجزئه، ثم إن ذكر طاعة الله بعد هذه الأوامر والنواهي، له مغزى جليل هو الإشارة إلى فلسفة الإسلام في إقامة السلوك، وتحديد الواجبات والآداب، وتكوين نظام الاجتماع في الأمة الإسلامية، على أساس من طاعة الله ورسوله، وتربية المهابة في القلوب.<sup>(١)</sup>

### المفهوم الثامن عشر: تكريم الله عز وجل لأهل بيت نبيه ﷺ:

وقوله سبحانه تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ ﴿١﴾ تكريم بالغ من الله عز وجل لأهل بيت نبيه الأطهار، من حيث أن الله عز وجل الذي في قبضته ملكوت السموات والأرض يريد لهذا البيت أن يذهب عنه كل ما تعافه النفس، ويأنفه الطبع، ويريد كذلك أن يطهرهم بذاته العلية، تطهيراً مؤكداً نقياً، وفي هذا الأسلوب الجليل مزايا منها ما يلي:

١- حذف حرف النداء في قوله سبحانه: ﴿أهل البيت﴾ وهو مشعر بالتقريب، والتكريم، فكأن أهل البيت في حضرة الملك القدوس، وفي المكانة المتسامية، يُخَاطَبُونَ خطاب القُرْبِ والملاطفة.

٢- أداة القصر التي صُدِّرت بها الجملة الشريفة، وهي تفيد الكلام قدراً من التوكيد وكأن المعنى: ما يريد الله إلا أن يُذْهِبَ عنكم الرجس أهل البيت، فمراد الله جل جلاله قد انحسر في إذهاب الرجس عن أهل البيت وتطهيره، وليس هناك مراد وراء ذلك في شأن من شؤون الخلق، أي: أن الله سبحانه قد أقبل على أهل هذا البيت إقبالاً كاملاً، وهذه زيادة في التكريم، ومبالغة في إظهار عظيم العناية والرعاية، ويصح أن يكون المراد بهذا القصر قصر مراد الله سبحانه تعالى على إذهاب

(١) السابق: ص ٢٩٤، ٢٩٥.

الرجس والتطهير، لا على العنت والتضييق، فهذه الشرائع لا يراد بها وضع قيود ثقيلة. وإرهاقكم بتكاليفها، وإنما يراد بذلك إذهاب الرجس عنكم، والتطهير، وجاء القصر بـ «إنما» التي تفيد أن ما تدخل عليه كأنه شيء مقرر ومعلوم، لا يسع أحداً أن ينكره لشهرته وذيوعه، وكأن قصر مراد الله سبحانه تعالى على إذهاب الرجس عن هذه الجماعة، وتطهيرها أمر معلوم لا يدفعه دافع، ولا يخالف فيه عاقل، وناهيك عما وراء هذا من التكريم.

٣- إسناد أفعال الجملة كلها إلى الله، فهو الذي يريد، وهو الذي يُذهب الرجس عنهم، ويُنقى قلوبهم ونفوسهم بيده القادرة، وهو الذي يطهرهم بنفسه تطهيراً، وفيها تكريم ما بعده تكريم.

٤- ومنها التعريف باللام في قوله «البيت» وهو يفيد أنه بيت متعالم مشهور، لا ينصرف الذهن إلى غيره، والإضافة في قوله: «أهل البيت» تفيد التعظيم والتشريف، أي: يا أهل هذا البيت القائم في العالمين رمز الهداية والرشاد والتطهير والنور. أما موقع هذه الجملة من الكلام السابق فقد جاءت مفصولة عنها، لأنها واقعة منها موقع التعليل والبيان، فكل ما تقدم من أوامره ونواهيها لا يراد به إلا إذهاب الرجس والتطهير، فهي شرائع وُضعت لمصلحة هذه الجماعة، ولحفظها من الرجس الذي يُستعمل أساساً في معنى الاضطراب والقلق، فالمولى سبحانه تعالى شرع آداب السلوك في المجتمع المسلم ليظهر هذا المجتمع من الاضطراب والقلق والتمزق والاختلاط الذي يدمر الكيان الاجتماعي حين تشيع فيه الفاحشة، وحين تتحلل نساؤه من ضوابط الأخلاق والدين والآداب التي تقدمت كلها من النهي عن ملاينة الخطاب، والأمر بالقول المعروف، والنهي عن التبرج من شأنها أن تُضفي على حياة الجماعة شيئاً من القرار حين تتحقق، وأن تكون حياة الجماعة بدونها مضطربة، فزعة،

قلقة، مختلطة، وكذلك الشأن في إقامة الصلاة، فهي سكونة وهدوء، وإيتاء الزكاة التي تكسر جوع الفقراء، وتقى المجتمع شر أحقاد تتولد في جود الشُّحِّ والأنانية والتفاوت الطبقي... وهكذا يقع نفي الرجس والاضطراب هذا الموقع الحسن.<sup>(١)</sup>

٥- لما استعار للمعصية الرجس، استعار للطاعة الطهر، ترغيباً لأصحاب الطباع السليمة والعقول المستقيمة في الطاعة، وتنفيراً لهم عن المعصية، فقال: «ويطهركم» أي: يفعل في طهركم بالصيانة عن جميع القاذورات الحسية والمعنوية فعل المبالغ فيه، وزاد ذلك عظماً بالمصدر فقال «تطهيراً».

٦- لما ذكر ما سبق إلى أن ختم بالتطهير أتبعه بالتذكير بما أنعم سبحانه به مما أثره التطهير من التأهيل لمشاهدة ما يتكرر من تردد الملائكة بنزول الوحي الذي هو السبب في كل طهر ظاهر وباطن، فقال مخصصاً من السياق لأجلهن رضي الله عنهن، منبهاً لهن على أن يبوتهن مهابط الوحي، ومعادن الأسرار: «واذكرن» أي: في أنفسكن ذكراً دائماً، واذكرنه لغيركن على جهة الوعظ والتعليم.

٧- ولما كانت العناية بالمتلو بيّنها بإسناد الفعل إليه لبيان أنه عمدة الجملة فقال بانياً للمفعول «ما يتلى» أي: يتابع ويوالى ذكره والتخلق به، وأشار لهن إلى ما خصهن منه من الشرف فقال: «في بيوتكن» أي: بواسطة النبي ﷺ الذي خيركن «من آيات الله» الذي لا أعظم منه.<sup>(٢)</sup>

### المراد بأهل البيت:

وهنا نقف وقفة قصيرة عند أهل البيت؛ لتبيين المراد بهم، وشمولهم لنساء النبي وأدلته.

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٩٥، ٢٩٦.

(٢) نظم الدرر (١٥/٣٤٦، ٣٤٧).

ونرى أولاً أن ننبه على أن (أهل البيت) قد نصبت في الآية لأنها منادى، أو على المدح، وهي على كلا الإعرابين قد جاءت في سياق الخطاب لنساء النبي ﷺ، فهن داخلات في أهل البيت، لا مجال لإنكار دخولهن فيهم، ولا للشك فيه!..

إن نساء النبي ﷺ هن سبب نزول هذه الآيات، فدخلوهن في أهل البيت موضع اتفاق بين جميع المفسرين، إما وحدهن على قول، وإما مع غيرهن على قول آخر هو الصحيح. (وأما قول عكرمة إنها نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، ومن شاء باهله في ذلك - فإن كان يريد به أنهن كن سبب النزول دون غيرهن فصحيح، وإن كان يريد أنهن المراد لا غيرهن، وأنه لا يدخل معهم أحد فليس صحيحاً؛ لما ثبت عن النبي ﷺ في أحاديثه أن المراد بأهل البيت أعم من نسائه)<sup>(١)</sup>

روى مسلم عن حصين بن سبرة، عن زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه» ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي».

فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس (رضي الله عنهم) قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم.<sup>(٢)</sup>

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨٣/٣).

(٢) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم (٣٦). (٢٤٠٨).

وقد أورد هذا الحديث ابن كثير، وعقب عليه برواية أخرى أوردتها مسلم أيضاً، وفيها: «فقلت له: من أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا. وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر، ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها. أهل بيته أصله وعصبته الذين حرّموا الصدقة بعده».

ثم قال ابن كثير: (هكذا وقع في هذه الرواية، والأولى أولى، والأخذ بها أخرى. وهذه الثانية تحتمل أنه أراد تفسير الأهل المذكورين في الحديث الذي رواه، إنما المراد بهم آله الذين حرّموا الصدقة بعده. أو أنه ليس المراد بالأهل الأزواج فقط، بل هن مع آله، وهذا الاحتمال أرجح، جمعا بينها وبين الرواية التي قبلها، وجمعا أيضاً بين القرآن والأحاديث) (١)

كذلك أورد ابن جرير حديثاً بروايات كثيرة أن رسول الله ﷺ دعا علياً وفاطمة والحسن والحسين، فألقى عليهم كساء وقال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي، فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً» لكن رواياته الكثيرة يقتصر بعضها على هؤلاء مرة، ويضم بعضها الآخر إليهم زوجه أم سلمة، وبعضها يضم إليهم وائلة، وبعضها ينسب إلى رسول الله ﷺ أنه قال بعد أن أدخلهم معه في مرطه الرجل من شعر: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ ولم يقل: اللهم هؤلاء أهل بيتي...» (٢)

ولكن هذا الحديث لم يصححه الشيخان فلم يخرجاه، فلا اعتبار لما رتبه بعضهم عليه من ثبوت الإمامة والعصمة لعلي رضي الله عنه، وهم الشيعة. قال ابن المطهر الحلي منهم: وفي هذه الآية دلالة على العصمة مع التأكيد بلفظ (إنما)، وإدخال اللام في الخبر، والاختصاص في الخطاب بقوله: «ويطهركم تطهيراً» وغيرهم ليس بمعصوم... الخ» (٣)

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨٦/٢) بتصرف.

(٢) جامع البيان للطبري (٢٩٦/١٠ - ٢٩٨)، ط. دار الكتب العلمية، لبنان، ط. أولى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

(٣) منهاج السنة لابن تيمية (٢٠/٤)، ط. بولاق سنة ١٣٢٢هـ، وتفسير القاسمي (٤٨٥١/١٢).

وقد تولى الرد عليه الإمام ابن تيمية رحمه الله في (منهاج السنة) حيث قال:

ليس في هذا دلالة على عصمتهم ولا إمامتهم. وتحقيق ذلك في مقامين:

**أحدهما:** أن قوله ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>(١)</sup> كقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، وكقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾<sup>(٣)</sup>، وكقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٤)</sup> **والله يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا** **﴿٢٧﴾**<sup>(٤)</sup>. فإن إرادة الله في هذه الآيات متضمنة لمحبة الله لذلك المراد، ورضاه به، وأنه شرعه للمؤمنين، وأمرهم به، ليس في ذلك أنه خلق هذا المراد، ولا أنه قضاه وقدره، ولا أنه يكون لا محالة. والدليل على ذلك أن النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية قال: «اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا»، فطلب من الله لهم إذهاب الرجس والتطهير. فلو كانت الآية تتضمن إخبار الله بأنه قد أذهب عنهم الرجس وطهرهم - لم يحتج إلى الطلب والدعاء.

وهذا على قول القدرية أظهر؛ فإن إرادة الله عندهم لا تتضمن وجود المراد، بل قد يريد ما لا يكون، ويكون ما لا يريد. فليس في كونه تعالى مريدا لذلك ما يدل على وقوعه.

وهذا الراضي وأمثاله قدرية، فكيف يحتجون بقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ على وقوع المراد؟، وعندهم أن الله

(١) الأحزاب: آية ٣٣.

(٢) المائدة: آية ٦.

(٣) البقرة: آية ١٨٥.

(٤) النساء: الآيتان ٢٦، ٢٧.

قد أراد إيمان من على وجه الأرض، فلم يقع مراده؟ وأما على قول أهل الإثبات، فالتحقيق في ذلك أن الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادة شرعية دينية تتضمن محبته ورضاه، وإرادة كونية قدرية تتضمن خلقه وتقديره... الأولى مثل هؤلاء الآيات. والثانية مثل قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ، لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(١)</sup>. وقول نوح عليه السلام: ﴿وَلَا تَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. وكثير من المثبتة والقدرية يجعل الإرادة نوعاً واحداً، كما يجعلون الإرادة والمحبة شيئاً واحداً. ثم القدرية ينفون إرادته لما بين أنه مراد في الآيات التشريعية؛ فإنه عندهم كل ما قيل إنه مراد، فلا يلزم أن يكون كائناً. والله قد أخبر أنه يريد أن يتوب على المؤمنين وأن يطهرهم، وفيهم من تاب وفيهم من لم يتب، وفيهم من تطهر، وفيهم من لم يتطهر. وإذا كانت الآية دالة على وقوع ما أراده من التطهير وإذهاب الرجس، لم يلزم بمجرد الآية ثبوت ما ادعاه. ومما يبين ذلك أن أزواج النبي ﷺ المذكورات في الآيات، والكلام في الأمر بالتطهير بإيجابه، ووعد الثواب على فعله والعقاب على تركه. قال تعالى: ﴿يَلْبَسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾<sup>(٣)</sup>، إلى قوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾<sup>(٤)</sup>. فالخطاب كله لأزواج النبي ﷺ، ومعهن الأمر والنهي والوعد والوعيد. لكن لما تبين ما في هذا من المنفعة التي تعمهن وتعم غيرهن من أهل البيت، جاء التطهير بهذا الخطاب وغيره ليس مختصاً بأزواجه، بل هو متناول لأهل البيت كلهم، وعلي وفاطمة والحسن والحسين أخص من غيرهم بذلك، ولذلك خصهم

(١) الأنعام: آية ١٢٥.

(٢) هود: آية ٢٤.

(٣) الأحزاب: آية ٢٠.

(٤) الأحزاب: آية ٣٣.



النبي ﷺ بالدعاء لهم. وهذا كما أن قوله: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مَحِبًّا الْمَطَهَّرِينَ ﴾<sup>(١)</sup> نزلت بسبب مسجد قباء، لكن الحكم يتناوله ويتناول ما هو أحق منه بذلك، وهو مسجد المدينة، وهذا يوجه ما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ: أنه سئل عن المسجد الذي أسس على التقوى فقال: «هو مسجدي هذا»<sup>(٢)</sup>. وثبت عنه في الصحيح أنه: «كان يأتي قباء كل سبت ماشياً وراكباً»<sup>(٣)</sup>، فكان يقوم في مسجده يوم الجمعة، ويأتي قباء يوم السبت، وكلاهما مؤسس على التقوى. وهكذا أزواجه، وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم أخص بذلك من أزواجه، ولهذا خصهم بالدعاء.

وقد تنازع الناس في آل محمد من هم؟ فقيل: أمته، وهذا قول طائفة من أصحاب محمد ومالك وغيرهم. وقيل: المتقون من أمته، ورووا حديثاً «آل محمد كل مؤمن تقى» رواه الخلال، وتَمَّام في (الفوائد) له. وقد احتج به طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم. وهو حديث موضوع. وبنى على ذلك طائفة من الصوفية أن آل محمد هم خواص الأولياء، كما ذكر الحكيم الترمذي، والصحيح أن آل محمد هم أهل بيته وهذا هو المنقول عن الشافعي وأحمد، وهو اختيار الشريف أبي جعفر وغيرهم. لكن هل أزواجه من أهل بيته؟ على قولين هما روايتان عن أحمد:

أحدهما: أنهم لسن من أهل البيت، ويروى هذا عن زيد بن أرقم. والثاني - وهو الصحيح - أن أزواجه من آله. فإنه قد ثبت في الصحيحين<sup>(٤)</sup> عن النبي ﷺ أنه علمهم الصلاة عليه: (اللهم صل على

(١) التوبة: آية ١٠٨.

(٢) صحيح مسلم كتاب الحج الحديث (٤١٥).

(٣) صحيح البخاري كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب من أتى مسجد قباء كل سبت حديث (٦٤٧).

وصحيح مسلم كتاب الحج حديث (٥١٥).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء الحديث (٣٣٦٩)، ومسلم في كتاب الصلاة، الحديث (٤٠٧).

محمد وأزواجه وذريته) ولأن امرأة إبراهيم من آله وأهل بيته، وأمرأة لوط من آله وأهل بيته، بدلالة القرآن، فكيف لا يكون أزواج محمد من آله وأهل بيته؟ ولأن هذه الآية تدل على أنهم من أهل بيته، وإلا لم يكن لذكر ذلك في الكلام معنى.

وأما الأتقياء من أمته فهم أولياؤه، كما ثبت في الصحيح أنه قال: «إن آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالح المؤمنين»<sup>(١)</sup> فبين أن أولياءه صالح المؤمنين.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَظَهَّرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾<sup>(٢)</sup>

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال «وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنا إِخْوَاننا» قالوا: أو لسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: «أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد»<sup>(٣)</sup>. وإذا كان كذلك، فأولياؤه المتقون بينه وبينهم قرابة الدين والإيمان والتقوى. وهذه القرابة الدينية أعظم من القرابة الطبيعية، والقرب بين القلوب والأرواح أعظم من القرب بين الأبدان، ولهذا كان أفضل الخلق أولياؤه المتقون. وأما أقرابه ففيهم المؤمن والكافر، والبر والفاجر. فإن كان فاضل منهم كعلي رضي الله عنه، وجعفر، والحسن، والحسين - ففضلهم بما فيهم من الإيمان والتقوى، وهم أولياؤه بهذا الاعتبار لا بمجرد النسب، فأولياؤه أعظم درجة من آله، وإن صُلِّي على آله تبعاً لم يقتض ذلك أن يكونوا أفضل من أوليائه الذين لم يصل عليهم؛ فإن الأنبياء والمرسلين هم من أوليائه، وهم أفضل من أهل بيته، وإن لم يدخلوا في الصلاة معه تبعاً، فالمفضول قد يختص بأمر ولا يلزم أن يكون أفضل من الفاضل. ودليل ذلك أن أزواجه

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب الحديث (٢٣١٥)، ومسلم في كتاب الإيمان، الحديث (٢٦٦).

(٢) التحريم: آية ٤.

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الطهارة، الحديث (٣٩).

هم ممن يصلَّى عليه، كما ثبت ذلك في الصحيحين. وقد ثبت باتفاق الناس كلهم أن الأنبياء أفضل منهن كلهن. فإن قيل: فهب أن القرآن لا يدل على وقوع ما أريد من التطهير وإذهاب الرجس، لكن دعاء النبي ﷺ بذلك يدل على وقوعه، فإن دعاءه مستجاب - قيل: المقصود أن القرآن لا يدل على ما ادعاه بثبوت الطهارة وإذهاب الرجس، فضلاً عن أن يدل على العصمة والإمامة. وأما الاستدلال بالحديث فذاك مقام آخر.

ثم نقول في المقام الثاني: هب أن القرآن دل على طهارتهم، وعلى ذهاب رجسهم، كما أن الدعاء المستجاب لا بد أن يستحق معه طهارة المدعو لهم وإذهاب الرجس عنهم، لكن ليس في ذلك ما يدل على العصمة من الخطأ. والدليل عليه أن الله لم يرد بما أمر به أزواج النبي ﷺ ألا يصدر من واحدة منهن خطأ؛ فإن الخطأ مغفور لهن ولغيرهن. وسياق الآية يقتضي أنه يريد ليذهب عنهم الرجس الذي هو الخبث كالفواحش، ويطهرهم تطهيراً من الفواحش وغيرها من الذنوب. والتطهير من الذنب على وجهين، كما في قوله: ﴿وَيَا بَكَ فَطَهِّرْ﴾<sup>(١)</sup>.

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ﴾<sup>(٢)</sup>. فإنه قال فيها: ﴿يَنْسَأَ النَّبِيُّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُمْ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾<sup>(٣)</sup>. والتطهير من الذنب إما بالأفعال العبد، وإما بأن يتوب منه، كما في قوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾<sup>(٤)</sup>. ما أمر الله به من الطهارة ابتداء وإرادة، فإنه يتضمن نهي عن الفاحشة، لا يتضمن الإذن فيها بحال. لكن هو سبحانه ينهي عنها، ويأمر من فعلها بأن يتوب منها. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه كان يقول:

(١) المدثر: آية ٤.

(٢) الأعراف: ٨٢، النمل: آية ٥٦.

(٣) الأحزاب: آية ٣٠.

(٤) التوبة: آية ١٠٣.

«اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، واغسلني بالثلج والماء والبرد. اللهم نقني من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس»<sup>(١)</sup>

وفي الصحيحين أنه قال لعائشة رضي الله عنها في قصة الإفك قبل أن يعلم النبي ﷺ براءتها، وكان قد ارتاب في أمرها، فقال: «يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب - تاب الله عليه» وبالجملة لفظ (الرجس) أصله القدر، ويراد به الشرك. كقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾<sup>(٢)</sup>، ويراد به الخبائث المحرمة كالمطعومات والمشروبات، كقوله: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خنزير فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾<sup>(٤)</sup>. وإذهاب ذلك إذهاب لكه. ونحن نعلم أن الله أذهب عن أولئك السادة الشرك والخبائث. ولفظ (الرجس) عام يقتضي أن الله يذهب جميع الرجس؛ فإن النبي ﷺ دعا بذلك.

وأما قوله: (وَطَهَّرَهُمْ تَطْهِيراً) فهو سؤال مطلق بما يسمى طهارة. وبعض الناس يزعم أن هذا مطلق، فيكتفي فيه بفرد من أفراد الطهارة، ويقول مثل ذلك في قوله: ﴿فَاعْتَرُوا بِأُولَى الْأَبْصَارِ﴾<sup>(٥)</sup> - ونحو ذلك - والتحقيق أنه أمر بمسمى الاعتبار الذي يقال عند الإطلاق. كما إذا قيل: أكرم هذا، أي: اعمل معه ما يسمى عند الإطلاق إكراماً. وكذلك ما يسمى

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان، باب ما يقول بعد التكبير، حديث (٤٥٤)، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، الحديث (١٤٧).

(٢) الحج: آية ٣٠.

(٣) الأنعام: آية ١٤٥.

(٤) المائدة: آية ٩٠.

(٥) الحشر: آية ٢.

عند الإطلاق اعتباراً. والإنسان لا يسمى معتبراً إذا اعتبر في قصة، وترك ذلك في نظيرها. وكذلك لا يقال: هو (طاهر) أو (مُتَطَهَّر) أو (مُطَهَّر) إذا كان متطهراً من شيء، متنجساً بنظيره<sup>(١)</sup>. ولفظ (الطاهر) كلفظ (الطيب) قال تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾<sup>(٢)</sup>. كما قال: ﴿الْغَيْثِثُ لِلْغَيْثِثِ وَالْغَيْثُوثُ لِلْغَيْثِثِ﴾<sup>(٣)</sup>. وقد روي أنه قال لعمار: «اأذنوا له، مرحباً بالطيب المطيب»<sup>(٤)</sup>.

وهذا أيضاً كلفظ (المتقي)، ولفظ (المزكي). قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾<sup>(٥)</sup>. وقال: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾<sup>(٦)</sup>، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾<sup>(٧)</sup>. وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾<sup>(٨)</sup>.

وليس من شرط المتقين ونحوهم ألا يقع منهم ذنب، ولا أن يكونوا معصومين من الخطأ والذنوب، فإن هذا لو كان كذلك لم يكن في الأمة مُتَّقٍ، بل من تاب من ذنوبه دخل في المتقين، كما قال: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا أَنْهَوْنَ عَنْهُ نَكَّرْنَا عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾<sup>(٩)</sup>.

فدعاء النبي ﷺ بأن يطهرهم تطهيراً كدعائه بأن يزيكهم ويشيبهم ويطيبهم ويجعلهم متقين، ونحو ذلك، ومعلوم أن من استقر أمره على ذلك

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٧٧٩)، والترمذي (٢٧٩٨). وقال عنه: حسن صحيح. وانظر صحيح ابن ماجة للألباني (١٤٦).

(٢) النور: آية ٢٦.

(٣) النور: آية ٢٦.

(٤) رواه الترمذي في المناقب (٢٤)، وابن ماجة في المقدمة (١١)، والإمام أحمد في المسند (١٠٠/١، ١٢٢، ١٢٦، ١٣٠، ١٣٨).

(٥) الشمس: الآيات ٩، ١٠.

(٦) التوبة: آية ١٠٣.

(٧) الأعلى: آية ١٤.

(٨) النور: آية ٢١.

(٩) النساء: آية ٢١.

فهو داخل في هذا، لا تكون الطهارة التي دعا بها بأعظم مما دعا به لنفسه، وقد قال: «اللهم طهّرني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد»<sup>(١)</sup>، فمن وقع ذنبه مغفوراً أو مكفراً فقد طهّره الله منه تطهيراً، ولكن من مات متوسخاً بذنوبه فإنه لن يطهر منها في حياته. وقد يكون من تمام تطهيرهم صيانتهم عن الصدقة التي هي أوساخ الناس.

والنبي ﷺ إذا دعا بدعاء أجابه الله سبحانه تعالى بحسب استعداد المحل، فإذا استغفر للمؤمنين والمؤمنات لم يلزم ألا يوجد مؤمن مذب؛ فإن هذا لو كان واقعاً لما عذب مؤمن، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يغفر الله تعالى لهذا بالتوبة، ولهذا بالحسنات الماحية، ويغفر الله عز وجل لهذا ذنوباً كثيرة، وإن واحدة بأخرى. وبالجملة فالتطهير الذي أراه الله، والذي دعا به النبي ﷺ ليس هو العصمة بالاتفاق، فإن أهل السنة عندهم لا معصوم إلا النبي ﷺ.

والشيعة يقولون: لا معصوم غير النبي ﷺ والإمام. فقد وقع الاتفاق على انتفاء العصمة المختصة بالنبي ﷺ والإمام عن أزواجه وبناته وغيرهن من النساء، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون التطهير المدعو به للأربعة متضمناً للعصمة التي تختص بالنبي ﷺ والإمام عندهم، فلا يكون من دعاء النبي ﷺ له بهذا - العصمة، لا لعلي ولا لغيره؛ فإنه دعا بالطهارة لأربعة مشتركين لم يختص بعضهم بدعوة، وأيضاً فالدعاء بالعصمة من الذنوب مُمتنع على أصل القدرية، بل وبالتطهير أيضاً؛ فإن الأفعال الاختيارية التي هي فعل الواجبات وترك المحرمات عندهم غير مقدورة للرب، ولا يمكنه أن يجعل العبد مطيعاً ولا عاصياً، ولا مُتطهراً من الذنوب ولا غير متطهر، فامتنع على أصلهم أن يدعو لأحد بأن يجعله فاعلاً للواجبات تاركاً للمحرمات، وإنما المقدور عندهم قدرة تصلح للخير والشر، كالسيف الذي

(١) رواه مسلم في الصلاة (٢٠٤)، والنسائي في الغسل (٤/٣)، والإمام أحمد بن حنبل (٤/٣٥٤، ٣٨١).

يصلح لقتل المسلم والكافر، والمال الذي يمكن إنفاقه في الطاعة والمعصية. ثم العبد يفعل باختياره إما الخير وإما الشر بتلك القدرة. وهذا الأصل يبطل حجتهم، والحديث حجة عليهم في إبطال هذا الأصل، حيث دعا النبي ﷺ بالتطهير. فإن قالوا: المراد بذلك أنه يفض لهم ولا يؤاخذهم كان ذلك أدل على البطلان من دلالة على العصمة.

فتبين أن الحديث لا حجة لهم فيه بحال على ثبوت العصمة. والعصمة مطلقاً التي هي فعل المأمور وترك المحذور، ليست مقدورة عندهم لله، ولا يمكنه أن يجعل أحداً فاعلاً لطاعة ولا تاركاً لمعصية، لا لنبي ولا لغيره، فيمتنع عندهم أن من يعلم أنه إذا عاش يطيعه باختيار نفسه، لا بإعانة الله وهدايته، وهذا مما يُبين تناقض قولهم في مسألة العصمة كما تقدم. ولو قدر ثبوت العصمة، فقد قدمنا أنه لا يشترط في الإمام العصمة، والإجماع على انتفاء العصمة في غيرهم، وحينئذ فتبطل حجتهم بكل طريق»<sup>(١)</sup>

وقد آثرنا أن ننقل عن ابن تيمية هذا النص كاملاً، بالرغم من طوله؛ لأن مسألة الاستدلال بالآية على الإمامة والعصمة مسألة بالغة الخطر، فإن فيها تحميلاً للآية ما لا تحتمله بحال، ولا تدل عليه من قريب ولا بعيد، وفيها فوق هذا خروج على مبدأ مقرر ينبغي ألا يكون موضع رأي، وألا يكون محلاً لاجتهاد قد يخطئ وقد يصيب، وهذا المبدأ هو الوقوف بالآيات عندما تدل عليه دون تكلف، ولا انحراف بها عما أنزلت لتقرره، وإنه إذا كان فريق من المفسرين يقصر ما تدل عليه الآية على حسب نزولها - فلا أقل من أن يعتبر سبب النزول داخلاً دخولاً أولاً فيما تدل الآية عليه، وهو ما يقرره ويؤكدته جمهور المفسرين الذين يرون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. أما أن يهمل سبب النزول، ولا تعتبر الآية دالة

(١) منهاج السنة لابن تيمية (٢٠/٤ - ٢٤)، ط. بولاق سنة ١٣٢٢هـ. وتفسير القاسمي (١٢/٤٨٥١ - ٤٨٥٩).

عليه، مما يوحي بأن له حكماً آخر غير الحكم الذي تقرره الآية - فهذا ما يستكره المفسرون بجملتهم ولا يفترقون في الحكم عليه. لا تدل الآية إذن على حصر أهل البيت في علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين رضي الله عنهم جميعاً، فإن سياقها صريح في النص على دخول النساء فيهم، ومن ثم نقرر بحق أن الآية لم تتعرض للإمامة من قريب أو بعيد.

كذلك لا تدل الآية على عصمة أهل بيت الرسول ﷺ من الخطأ، وإلا ففيم كان دعاء النبي ﷺ لهم بعد نزول الآية؟ وفيم كانت الأوامر والنواهي التي وجهت في الآيات إلى نساء النبي ﷺ وهن من أهل البيت؟ وفيم كان الوعيد لهن بمضاعفة العذاب، ثم الوعد بالأجر المضاعف، حين يأتين بفاحشة، وحين يقننن؟

وأخيراً.. ففيم كان تذكيرهن بما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة؟ وما السر في أن هذا التذكير لم يجيء في الآيات إلا بعد تقرير أن الله يريد لهن أن يذهب الرجس عنهن، وأن يطهرهن تطهيراً؟

إن الله عز وجل يقول في ختام هذه الآيات التي تخاطب نساء النبي ﷺ ﴿ وَأذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ فيأمرهن بذكر نعمته عليهن، حيث جعلهن من أهل بيت النبوة، وجعل بيوتهن مهبط الوحي، ومشرق النور الذي يملأ الآفاق. وذكر هذه النعمة مقتض لشكرها بطبيعة الحال، وإنما يكون هذا الشكر بالعمل بما تشرعه من أحكام في العبادات والمعاملات، ومن آداب في الأخلاق والسلوك<sup>(١)</sup>، وقد انصب الأمر بالذكر على ما يتلى في بيوتهن، من آيات الله والحكمة، وجمهور المفسرين جرى على أن المراد بآيات الله كتابه الكريم، والمراد بالحكمة سنة رسول الله ﷺ<sup>(٢)</sup>، والقاضي البيضاوي وأبو السعود

(١) تفسير سورة الأحزاب ص ١١٤، ١١٥.

(٢) جامع البيان للطبري، المجلد العاشر ص ٢٩٩، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ط. أولى (١٤١٢هـ/١٩٩٢م)، وتفسير القرآن العظيم (٤٨٦/٢)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢٤٧٩/٢)، ومفاتيح الغيب (٢١٠/٢٥).



يذهبان إلى أن المراد بآيات الله والحكمة القرآن فقط، قال البيضاوي: «من الكتاب الجامع بين الأمرين، وهو تذكير بما أنعم الله عليهن، من حيث جعلهن أهل بيت النبوة، ومهبط الوحي، وما شاهدن من برحاء الوحي، بما يوجب قوة الإيمان، والحرص على الطاعة، حتّى على الانتهاء والالتزام بما كلفن به»<sup>(١)</sup>. وقال أبو السعود: «من الكتاب الجامع بين كونه آيات الله البينة، الدالة على صدق النبوة، بنظمه المعجز، وكونه حكمة مُنطويةً على فنون العلم والشرائع»<sup>(٢)</sup>.

**المفهوم التاسع عشر: تذكير أمهات المؤمنين بما يتلى في بيوتهن، وهو تذكير أيضاً للأمة جميعاً بذلك.**

في قول الله: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾<sup>(٣)</sup> يلاحظ أنه قال سبحانه تعالى: (وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ) ولم يقل: واذكرن ما ينزل في بيوتكن، فأثر التلاوة على النزول؛ لأن التلاوة تشمل القرآن كله، وفي وسع كل إنسان أن يكررها، ويزيد منها، ويحافظ على قدر كبير منها طالما هو حي، أما النزول في بيوتهن فلا يشمل جميع الآيات؛ لأن قدراً غير قليل منها أنزل على النبي ﷺ وهو خارج بيوت نساءه، ثم لأنه لا يتكرر، ولا يمكن أن يزيد إنسان فيما أنزل. وتذكر ما يتلى في بيوت النبي ليس خاصاً بمن في منزل الوحي، ولا بمن في زمنه، وإنما شيء يعم المسلمين جميعاً، في كل عصر ومصر، ويشير موقع الآية في هذا السياق إلى أن ذكره يكشف أمام بصائرکم ضباب الضلال الذي يذهب بكم في هُنَيَّاتِ الطَّرِيقِ.<sup>(٣)</sup>

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل (ص ٥٥٧) طبع دار الجبل.

(٢) إرشاد العقل السليم (١٠٢/٧)، ط. دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٣) تفسير القاسمي (٤٨٥٩/١٢) بتصرف. وروح المعاني (٢٢/٢٠، ٢١) بتصرف، ومن أسرار التعبير القرآني ص

وبنى الفعل (يُتَلَّى) للمجهول ولم يسم فاعله، لتشمل التلاوة كل تلاوة في بيوتهن، كان رسول الله ﷺ - أو كان جبريل - هو التالي، أو كن هُنَّ التاليات، أو كان التالي مسلماً من المسلمين دون تعيين، فإن الذكر منصب على المتلو، دون علاقة بتاليه.

ويختتم الله عز وجل الآية الكريمة بهذه الفاصلة: (إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا) وقد فسرها ابن كثير بقوله: أي: (ذا لطف بكن، إذ جعلكن في البيوت التي تتلى فيها آيات الله والحكمة - وهي السنة - خبير بكن إذ اختاركن لرسوله أزواجاً)<sup>(١)</sup>، وقال الفخر الرازي في تفسيرها: (إشارة إلى أنه خبير بالبواطن، لطيف، فعلمه يصل إلى كل شيء، ومنه اللطيف الذي يدخل في المسام الضيقة، ويخرج من المسالك المسدودة)<sup>(٢)</sup> ونرى نحن أن هذه الفاصلة وقد جاءت في ختام الآيات التي تخاطب نساء النبي ﷺ، تشير إلى سعة علم الله ودقته، وعظم خبرته، فهي كالتبويه لنساء النبي ﷺ بأن استجابتهن لما تضمنته الآيات التي تخاطبهن من أوامر ونواه، ونصائح وعظات - لن يغيب شيء منها عن علم الله، ولن يخفي عليه، فسيجازيهن عليه بقدر ما يخلصن في استجابتهن له، على أن تُؤتَى المحسنة منهن أجرها مرتين، ويضاعف العذاب لمن تخطئ أو تعصي منهن، كما قررت الآياتن الأوليان في هذه الآيات من آيات الخطاب)<sup>(٣)</sup>

**المفهوم العشرون: نسبة البيوت إلى النساء فيه حث على العناية بها.**

الإضافة في قوله سبحانه تعالى «بيوتكن» من قوله عز وجل : ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ تفيد ما قاله الفقهاء: أن من بنى بيتاً لزوجته وأقبضها

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨٦/٣).

(٢) مفاتيح الغيب (٢١٠/٢٥).

(٣) تفسير سورة الأحزاب للدكتور مصطفى زيد (١١٧، ١١٨).

إياه، كمن وهب زوجته بيتاً وسلمه إليها، أي: يصير ملكاً لها في الحالين، فالبيوت كأنها ملك للنساء، وهذا حث لهن على العناية بالبيوت، والحفاظ عليها، وقد احتجوا لهذا بأن نساء النبي ﷺ ملكن بيوتهن بعد وفاته عليه السلام، ولو كانت بيوت نسائه ملكاً له لآل ملكها إلى بيت المال بعد وفاته، لأنه ﷺ لا يورث، لقوله ﷺ «نحن معاشر الأنبياء لا نورث»<sup>(١)</sup>

والثابت أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ استأذن عائشة في دفنه في حجرتها، وكذلك الحسن بن علي رضي الله عنهما، ولو كانت حجرتها لبيت مال المسلمين لكان لعمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ التصرف من غير إذنها، ولا استأذن الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ الورع ابن مروان لأنه كان يحكم المدينة، وصاحب الرأي في بيت مالها. (٢)

### المفهوم الحادي والعشرون: الرِّفْعَةُ يُوصَلُ إِلَيْهَا بِضِدِّهَا:

لما كان سياق الآيات الكريمة للإعراض عن الدنيا، وكانت الحكمة منفرة عنها أشار سبحانه تعالى بختام الآية الكريمة إلى أنها مع كونها محصلة لفوز الأخرى جالبة لخير الدنيا، فقال مؤكداً ردعاً لمن يشك في أن الرفعة يوصل إليها بضدها ونحو ذلك مما تضمنه الخبر من جليل العبر: «إن الله» أي: الذي له جميع العظمة (كان) أي: لم يزل (لطيفاً) أي: يوصل إلى المقاصد بوسائل الأضداد (خبيراً) أي: يدق علمه عن إدراك الأفكار، فهو يجعل الإعراض عن الدنيا جالباً لها على أجمل الطرائق، وأكمل الخلائق، وإن رغمت أنوف جميع الخلائق، ويعلم من يصلح لبيت النبي ﷺ ومن لا يصلح، وما يصلح الناس ديناً ودينياً وما لا يصلحهم، والطرق الموصلة إلى كل ما قضاه وقدره، وإن كانت على غير ما يألفه الناس

(١) فتح الباري (٨/١٢)، والبداية والنهاية (٢/١٥٤، ٤/٢٦٤، ٥/٢٩٠)، وزاد المسير (٥/٢٠٩)، ومسند الربيع بن حبيب (٢/٦٢).

(٢) من أسرار التعبير القرآني ص ٢٨٦.

«من انقطع إلى الله كفاؤه الله كل مؤونة، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها»<sup>(١)</sup>، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾<sup>(٢)</sup>.

ولقد صدق الله سبحانه وعده في لطفه، وحقق بره في خبره، بأن فتح على نبيه ﷺ بعد ذلك خيبر، فأفاض بها ما شاء من رزقه الواسع، وفتح من بعد وفاته ﷺ خلفاؤه الفتوحات الكبار، من بلاد فارس والروم ومصر، وما بقي من اليمن، فعم الفتح جميع الأقطار الشرق والغرب والجنوب والشمال، ومكن أصحاب نبيه ﷺ من كنوز جميع تلك البلاد، وذخائر أولئك الملوك، حتى صار الصحابة رضوان الله عليهم يكيلون المال كيلا، وزاد الأمر، حتى دون عمر رضي الله عنه الدواوين، وفرض للناس عامة أرزاقهم حتى للرُضعاء، وكان أولاً لا يفرض للمولود حتى يُفطم، فكانوا يستعجلون بالفطام، فنادى مناديه: لا تعجلوا أولادكم بالفطام، فإننا نفرض لكل مولود في الإسلام، وفاوت بين الناس في العطاء، بحسب القرب من النبي ﷺ والبعد منه، وبحسب السابقة في الإسلام والهجرة، ونزل الناس منازلهم، بحيث أرضى جميع الناس، حتى قدم عليه خالد بن عرفطة فسأله عما وراءه، فقال: تركتهم يسألون الله لك أن يزيد في عمرك من أعمارهم. فقال عمر رضي الله عنه: إنما هو حقهم، وأنا أسعد بأدائه إليهم، لو كان من مال الخطاب ما أعطيتموه، ولكن قد علمت أن فيه فضلاً، فلو أنه إذا خرج عطاء أحدهم ابتاع منه غنماً، فجعلها سوادكم، فإذا خرج عطاؤه ثانية ابتاع الرأس والرأسين فجعله فيها، فإن بقي أحد من ولده كان لهم شيء قد اعتقدوه، فإني لا أدري ما يكون بعدي، وإني لأعم بنصيحتي كل من طوقني الله أمره. فإن رسول الله ﷺ قال: «من مات غاشاً لرعيته لم يُرح راحة

(١) رواه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٤٦)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٦)، وانظر مجمع الزوائد

(٢٠٢/١٠).

(٢) الطلاق: آية ٣.

الجنة»<sup>(١)</sup>. فكان فَرَضُهُ لأزواج النبي ﷺ اثني عشر ألفاً لكل واحدة، وهي نحو ألف دينار في كل سنة، وأعطى عائشة رضي الله عنها خمسة وعشرين ألفاً لحُبِّ رسول الله ﷺ إياها، فأبَت أن تأخذ إلا ما يأخذه صواحباتها، وروى عن بركة بنت رافع قالت: لما خرج العطاء أرسل عمر رضي الله عنه إلى زينب بنت جحش رضي الله عنها بالذي لها، فلما أدخل إليها قالت: غفر الله لعمر! غيري من أخواتي أقوى على قَسَمِ هذا مِنِّي، قالوا: هذا كله لك «يا أم المؤمنين» قالت: سبحان الله! واستترت منه بثوب. ثم قالت: صبوه واطرحوا عليه ثوباً. ثم قالت لي: أدخلني يدك، واقبضي منه قبضة، فاذهبي بها إلى بني فلان وبني فلان من ذوي رحمها وأيتام لها، فقسمته حتى بقيت منه بقية تحت الثوب، قالت بركة بنت رافع: فقلت: غفر الله لك يا أم المؤمنين، والله لقد كان لنا في هذا المال حق، قالت: فلکم ما تحت الثوب، فوجدنا تحته خمسمائة وثمانين درهما، ثم رفعت يدها إلى السماء فقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعد عامي هذا، فماتت - ذكر ذلك البلاذري في كتاب فتوح البلاد<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم الثاني والعشرون: خطاب أمهات المؤمنين يمتد إلى خطاب نساء الأرض جميعاً:

قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾<sup>(٣)</sup>، قول الله تعالى في هذه الآيات يتصل اتصالاً وثيقاً بما قبلها، فما قبلها من الآيات غرضه تنقية

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١١٦٦).

(٢) نظم الدرر (٣٤٨/١٥ - ٣٥١).

(٣) الأحزاب: آية ٣٥.

الأمة المسلمة، وحفظ المجتمع الإنساني عامة، من وباء الانحراف في سلوك النساء، وإن الآيات السابقة ترسم طريق الحياة الطاهرة، وتذكر أمهات المؤمنين بل والمؤمنات عامة بما يُتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، ثم أورد القرآن الكريم ذلك بقوله: «إن المسلمين والمسلمات» فذكر النماذج والأصناف التي تَعْمُرُ بها الحياة، والتي تُكُونُ المجتمع الإنساني الراقى في صورته النظيفة الطاهرة، وقد انتقل فيها أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين هناك. حيث قلنا: إن الأمر يتجه إلى نساء الأرض جميعاً وراء هذه المخاطبة، وبيّنا أهميتها في أداء المعنى ..

أقول: انتقل أسلوب الحديث من مخاطبة أمهات المؤمنين إلى ذكر المسلمين والمسلمات، وفي هذا إشارة إلى أن المستجيبات لأمر الله يدخلن جميعاً في نعمته، ورحمته، وأنه سبحانه تعالى قد أعد لهن أجراً عظيماً، يستوى في ذلك اللائي عشن في بيت النبوة، مع غيرهن من بنات حواء، وفي هذا الانتقال تأكيد لمعنى إلحاق المؤمنات في المنزلة بأمهات المؤمنين، وإعلاء درج العابدات، والسمو بهن، ولا غرابة في ذلك فإن بعض الصالحين يكونون في معية الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

وهذا معنى جليل في الإسلام حيث يُفتح باب الله لكل من أخلص للحق، ولرسالة الخير، فتساوى المناكب هناك، وتتزاحم الأقدار. وأعتقد أن هذا ليس وصلاً غامضاً، وإنما هو وشيجة بيّنة، ولحمة ظاهرة»<sup>(١)</sup>.

(١) من أسرار التعبير القرآني بتصرف ص ٣٠٢، ٣٠٣.

والآية الكريمة وإن كانت تذكر الأخيار بصفاتهم البارزة، والغالبة عليهم، فإنها أقامت بناءها على نسق من الترتيب أوماً إليه ابن كثير حين قال: «فالإسلام بعده مرتبة يُرْتَقَى إليها وهو الإيمان، ثم القنوت ناشئ عنهما»<sup>(١)</sup>.

وقد وفق صاحب (التفسير القرآني للقرآن) حين بسط ما أجمله ابن كثير في ترتيب هذه الصفات فقال: إن جميع هذه الأوصاف من تدبير الحكيم العليم، وتعالى حكمة الله وجَلَّ علمه أن يجيء تدبير من تدبير الله عن غير حكمة وعلم، فالإسلام الذي جاء بدءاً هو أولى درجات السلم الذي يرقى فيه المرء إلى منازل الشريعة، وهو المدخل الذي يُدْخِل منه إلى دين الله، والإيمان هو العروج بالإسلام إلى موطنه من القلب، والقنوت هو استجابة القلب وتقبله لهذا الإيمان الذي استقر فيه، واطمأن به، والصدق هو نبتة تثبت من بذرة الإيمان في القلب، والصبر هو الغذاء الذي تتغذى منه تلك النبتة حتى تقاوم الآفات التي تعرض لها، وحتى تعطي الثمر المرْجُو منها، والخشوع - وهو الولاء لله، والامتثال لأمره - هو أول ما تفتح من زهر»<sup>(٢)</sup>.

ونلاحظ أن حفظ الفروج جاء في هذا الترتيب المتسامي في درجاته العالية، وذلك لأن حفظ القلب، وضبط الخواطر، وتطهير الكيان النفسي من وسوسات الجنس، والتمثل الصادق لأدب الإسلام، في هذا الباب من الأمور الشاقة، وهذا هو معنى حفظ الفرج في هذا السياق الصاعد، ولا يقدر على هذا الحفظ إلا من صعد في هذا الدرج العالي، وكانت أبرز صفاته أنه رباني، حافظ لا يسنح في أفقه شيطان.

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٨٧/٣).

(٢) التفسير القرآني للقرآن.

والآية الكريمة قد بدئت بـ «إِنَّ» التي للتوكيد، وهذا التوكيد تقرير للوعد، واعتناء به، وتثبيته في نفوس الجماعة، وإغراء لها بالنهوض، والإسراع إلى دائرته، ثم إن فيه تكريماً للمذكورين من حيث عناية الحق جل جلاله بوعدهم، وسوقه في مساق التوكيد.

والآية الكريمة أيضاً بُنِيَتْ على التَّعْدَادِ وذكر الأوصاف، من المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات، وليس في مدلولها تشابك وتراكب، كما في الآية السابقة عليها، واللاحقة بها، فالآية السابقة تتلاحق فيها الأوامر والنواهي، التي تهدف إلى تنقية المجتمع، والآية اللاحقة يتشابك بناؤها ويتداخل.

انظر: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مِؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ (١)، وتأمل نظمها تجده متداخلاً، ونظماً متلاحماً، يظهر ذلك في الاعتراض والشرط المضمن في «إذا» الظرفية، وتقديم خبر «كان» على اسمها، وهذا كله لا يجعل التعبير دانياً ميسوراً، وإنما هو بناء متين متراكب. وآية «إن المسلمين والمسلمات... الخ» ليس بناؤها من هذا النوع، وإنما هي أوصاف تترادف، وذلك واضح وغير محتاج إلى تفصيل، ثم إن ترادف الكلمات في الآية الكريمة هو ترادف يتسامى ويأتي ثانيه عقب أوله، وفيها عطف الإناث على الذكور في كل وصف، ثم عطف الجنسين على الوصف السابق لهما، وهذا نمط من التماسك اللين السهل.

والآية الكريمة بهذا تقدم لنا نمطا من الأساليب تظهر فيها سماحة البناء، وسهولة التركيب، ثم نرى سلطان المزية يعظم فيه، ويعلو إلى حد الإعجاز، إذ ليس الأمر في سمو القول مشروطاً بصعوبة المأتي في التراكيب، وأنه لا فضيلة حتى نجد في الأمر مصنعاً كما قالوا، وإنما

(١) الأحزاب: آية ٣٦.



قد يكون السمو في تسلسل البناء، وليونة الأسلوب، بل قد تكون شدة التماسك مجتمعة في ليونة التراكيب، وسلامة العبارة كما هنا، فالآية لا سبيل فيها إلى تقديم كلمة وتأخيرها، وهذا هو معنى شدة التماسك، ثم إن الأمر فيها يجري على التسلسل والتَّحَدُّر كما نرى في نسقها المتتابع، والآية الكريمة أقيم بناؤها الصوتي على ضرب من التنغيم الذي كأنه يتماوج، وَلَنْصُغَ إِلَى إِيقَاعِ أَصْوَاتِ كَلِمَاتِهَا فِي تَتَابُعِهَا وَتَلَاحِقِهَا، فالمسلمين مثل الْمُؤْمِنِينَ ومثل الصادقين والقانتين والخاشعين، وهكذا كل أوصاف الذكور متناسبة في الإيقاع، والمسلمات والمؤمنات والصادقات والقانتات... إلى آخر الأوصاف التي وصف بها الإناث كلها أيضاً متناسقة في الإيقاع، ثم تداخلت هذه الإيقاعات فجاء «المسلمين» بهذا الصوت الممتد إلى أسفل، وبعده «المسلمات» بهذا الصوت الممتد إلى أعلى، وأردف ذلك بـ «المؤمنين» فعاد الصوت في إيقاعه إلى حالته الأولى التي بدأ بها، ثم جاء «المؤمنات» فرجع به إلى حالته الثانية، وهكذا ظل الصوت إلى نهاية الآية يتماوج بين هذين الإيقاعين الواضحين، وَالَّذِينَ حَدَّدْتَهُمَا كَلِمَاتِ (المسلمين والمسلمات)، ثم إن أجراس هذه الكلمات وما فيها من ترديد لأصوات الحروف التي تتكون منها مادة كل وصف من هذه الأوصاف يتداخل ذلك مع هذا الإيقاع المتماوج، فتولد في الآية رنين مُمَيَّزٌ يبعث في النفس الرهفة والإيحاء والإيقاظ بإيقاعها الشَّجِي، فيسلط عليها تسلطاً استهوائياً عجبياً، فتخف أحلامها، وتترأى أطيافها، مستشرفة نحو السمو إلى مراتب القدس، والمناشدة والتطلع الضارع، لتكون في جملة هذه الصفوة التي أعد الله عز وجل لها مغفرة وأجرًا عظيمًا. (١)

(١) من أسرار التعبير القرآني ص ٢١٩ - ٢٢٤ بتصرف.

## المفهوم الثالث والعشرون: نفي الله عز وجل أبوة النبي ﷺ وأثبت له ما هو أشرف له وأرفق بالمؤمنين

دل قوله سبحانه: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ على أن محمداً ﷺ ليس أباً لزيد بن حارثة، وليس زيد ابناً له حتى تحرم عليه حليلته، ولكنه ﷺ أب لجميع أمته في التبجيل والتعظيم، وأن نساء أمهات للمؤمنين جميعاً، وبالتالي فهن عليهم حرام، وبذلك فقد أذهب الله عز وجل بهذه الآية ما وقع في نفوس المنافقين وغيرهم، واعتراضهم بقولهم: تزوج النبي ﷺ امرأة ابنه؛ وأعلم أن محمداً ﷺ لم يكن أباً لأحد من الرجال المعاصرين له في الحقيقة.

ولم يقصد بذلك أن النبي ﷺ لم يكن له ولد، فقد ولد له من الذكور أربعة أولاد، هم: إبراهيم، والقاسم، والطيب، والمطهر، لكنه ﷺ لم يعيش له ابن حتى صار رجلاً، كذلك الحسن والحسين كانا طفلين ولم يكونا رجلين معاصرين له. وبالتالي، فإن زوجة متبناه تحل له بعد طلاقها، وهذا الحكم ليس خاصاً به ﷺ وحده لكونه نبياً بل ينطبق هذا الحكم عليه بوصفه رجلاً منكم، وبالتالي فكلما ينطبق عليه بوصفه رجلاً منكم ينطبق عليكم أيضاً، من هنا فكما حلت له زوجة متبناه لأنه ليس من صلبه، كذلك يحل لكم جميعاً أزواج أديائكم.

ووصف الله عز وجل الرسول الكريم ﷺ بأنه ﴿ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ليثبت له بوصفه رسولاً ما هو فوق الأبوة، من حيث شفقتة عليهم، ونصيحته لهم، ومن حيث استحقاقه لاتباعهم إياه، ورعايتهم حقوقه، ثم ليثبت له بوصفه آخر النبيين بعثاً أنه لم يترك شيئاً من البيان والإرشاد، إذ لا نبي بعده، فيترك بعض البيان له.

ويمكن توجيه فتح التاء في ﴿ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ بأنه كالتخاتم الذي يختم به الأنبياء، ويتزينون بكونه منهم، وهذا لا ينافي أنه آخرهم بعثاً، بل هو يؤكده، لأنهم إنما يتزينون به بعد أن بعثوا جميعاً.

وهذه الحقيقة التي تقرها الآية الكريمة يشرحها قوله ﷺ الذي أخرجه مسلم وأحمد برواية أبي سعيد الخدري: «مثلي ومثل النبيين من قبلي كمثل رجل بنى داراً، فأتمها إلا لبنة واحدة، فجئت أنا فأتممت تلك اللبنة»<sup>(١)</sup> وقوله عليه الصلاة والسلام الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما برواية جابر: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً، فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»<sup>(٢)</sup>

وقوله ﷺ الذي أخرجه البخاري ومسلم عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله تعالى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»<sup>(٣)</sup>

وقوله ﷺ في الحديث الذي رواه أحمد والترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي» قال: فشق ذلك على الناس، قال: قال: «ولكن المبشرات» قالوا: يا رسول الله وما المبشرات؟ قال: «رؤيا الرجل المسلم وهي جزء من أجزاء النبوة»<sup>(٤)</sup>

(١) رواه مسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، وأحمد في المسند (١١٠٨٢)، واللفظ لأحمد.

(٢) رواه البخاري في المناقب (٢٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، واللفظ للبخاري.

(٣) رواه البخاري في المناقب (٣٥٢٢)، وفي التفسير (٤٨٩٦)، ومسلم في الفضائل (٢٣٥٤)، بزيادة «الذي ليس بعده

نبي» واللفظ للبخاري.

(٤) رواه أحمد في المسند (١٢٨٦٠)، والترمذي (٢٢٧٢) وقال عنه: حسن صحيح غريب، وقال الألباني: صحيح

الإسناد، والحاكم (٣٩١/٤) وصححه.

المفهوم الرابع والعشرون: من خصوصيات الرسول ﷺ ترك الحرية له في القسّم بين نسائه ولكنه كان يعدل بينهن، فأتمته أولى بذلك:

في قول الله عز وجل: ﴿ تَرْجِي مِنْ نِسَاءِ مَنْهِنَّ وَتُعْوِي إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءِ مَنْ أَبْغَيْتَ مَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا تَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ ﴾ (١) تقرير مفاده أن للرسول ﷺ كامل الحرية في أن يضم إليه من شاء من نسائه، وأن يعتزل منهن من شاء اعتزالها دون حرج عليه في هذا وذلك، ودون قيد يضيق عليه دائرة حرّيته، لأن الآية استعملت المشيئة المسندة إليه ﷺ، ومراداً بها ما يرغب فيه من إرجاء أو إيواء، ثم استعملت الابتغاء مراداً به الرغبة فيمن يرغب في إبدائها منهن، واستعملت كلاً من الإرجاء والعزل في أداء المعنى المقابل للإيواء والابتغاء، فنوّعت في التعبير عن كل من المعنيين، ورجعت الأمر كله إلى مشيئة رسول الله ﷺ أولاً وأخيراً، فهو حين يعتزل لا يخالف حكماً فرض عليه، بعد أن فوض الله عز وجل الأمر إليه، فلا يحس إثمًا ولا حرجاً، وحين يضم مدفوع برغبته هو، متفضل بهذا الضم، ومن ثم كان هذا التفويض أقرب إلى أن يرضيهن جميعاً، ويحول بينهن وبين الحزن الذي ينبع عادة من الغيرة والتنافس، ويقر أعينهن فينعمن بهدوء البال، وراحة النفس.

وعلى ذلك فإن القسّم بين الزوجات لم يكن واجباً على النبي ﷺ توسعة عليه في ترك القسّم وإباحة له، وإنما كان مخيراً فيهن، ومع ذلك فقد كان ﷺ يقسم بينهن دون فرض، تطيباً لنفوسهن، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي، وهذا أصح ما يراد بالآية.

وقيل: كان القسّم واجباً على النبي ﷺ ثم نسخ الوجوب عنه بهذه الآية..

(١) الأحزاب: الآية ٥١

قال أبو رزين: كان رسول الله ﷺ قد همّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن آوى: عائشة وحفصة وأم سلمة وزينب، فكان قسمتهن من نفسه وماله سواء بينهن، وكان ممن أرجى سودة وجويرية وأم حبيبة وميمونة وصفية؛ فكان يقسم لهن ما شاء.

فإن قيل: فكيف يقال: إن القسم غير واجب على النبي ﷺ وهو صلى الله عليه وسلم كان يعدل بين أزواجه في القسم، ويقول: هذه قدرتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك، يعني قلبه؛ لإيثار عائشة دون أن يكون يظهر ذلك في شيء من فعله؟

قلنا: ذلك من خلال النبي ﷺ وفضله، فإن الله عز وجل أعطاه سقوطه<sup>(١)</sup>، وكان هو ﷺ مع هذا يلتزمه تطيباً لنفوسهن من أقوال الغيرة التي ربما ترقّت إلى ما لا ينبغي<sup>(٢)</sup>.

ويقول فيما رواه النسائي وأبو داود عن عائشة رضي الله عنها: «اللهم هذه قدرتي فيما تملك ولا أملك» يعني: ميل قلبه؛ لإيثاره عائشة رضي الله عنها، دون أن يكون ذلك ظاهراً في شيء من فعله. وكان في مرضه الذي توفي فيه يطاق به محمولاً على بيوت أزواجه، إلى أن استأذنه أن يقيم في بيت عائشة رضي الله عنها.

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما اشتكى رسول الله ﷺ في بيت ميمونة، فاستأذن أزواجه أن يمرض في بيتها - يعني بيت عائشة - فأذن له»<sup>(٣)</sup>، وفي الصحيح أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: إن كان رسول الله ﷺ ليتفقد، يقول: «أين أنا اليوم،

(١) سقوطه: أي سقوط القسم.

(٢) أحكام القرآن لابن العربي (١٥٦٨/٣).

(٣) رواه البخاري في الوضوء (٤٥)، والأذان (٣٩)، والهيئة (١٤)، والخمس (٤)، والمغازي (٨٣)، والنكاح (١٠٤).

والطب (٢٢)، ومسلم في الصلاة (٩١، ٩٢)، والإمام أحمد (٦، ٣٤، ١١٧، ١٢٨).

أين أنا غدا؟ استبطاء ليوم عائشة رضي الله عنها، قالت: فلما كان يومي قبضه الله بين سَحْرِي ونَحْرِي (١) ﷺ.

### حكم ترك الحرية للرسول ﷺ في القسم:

في قوله الله تعالى: ﴿ذَلِكَ آدَاءُ أَنْ تَقْرَأَ عَيْنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آءَأَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ﴾ بيان الحكمة في التخيير بالقسم، قال قتادة وغيره: أي ذلك التخيير الذي خيرناك في صحبتهن أدنى إلى رضاهن إذ كان من عندنا، لأنهن إذا علمن أن الفعل من الله قَرَّتْ أعينهن بذلك ورضين، لأن المرء إذا علم أنه لا حق له في شيء، كان راضياً بما أوتي منه وإن قل، وإن علم أن له حقا لم يقنعه ما أوتي منه، واشتدت غيرته عليه، وعَظُم حرصه فيه، فكان ما فعل الله لرسوله من تفويض الأمر في أحوال أزواجه أقرب إلى رضاهن معه، وإلى استقرار أعينهن بما يسمح به لهن، دون أن تتعلق قلوبهن بأكثر منه.

هذا وقد عبر الله عز وجل عن كل ذلك بكلمة تبلغ قمة البلاغة ألا وهي كلمة (أدنى) ذلك أن قرءة أعينهن، وعدم حزنهن، ورضاهن، لا تكاد تتحقق لامرأة ما دامت تشاركها في رجلها امرأة أخرى، لكنها تكون أقرب إليها حين تأنس من زوجها اهتماماً بها، وحباً لها، وحرصاً عليها، ولا يحقق ذلك شيء بقدر ما يحققه أن يذهب إليها ليؤنسها، وهي على يقين من أنه كان في وسعه ألا يفعل غير ملوم ولا آثم، من هنا كان التعبير (بأدنى)، ومن هنا كانت البلاغة كل البلاغة فيه» (٢)

فعلى الرجل أن يعدل بين نساته لكل واحدة منهن يوماً وليلة، ولا يُسقط حق الزوجة مرضها ولا حيضها، ويلزمه المقام عندها في يومها

(١) أي: بين جنبي وصدري، والسحر: أطلق على الجنب مجازاً، من باب تسمية المحل باسم الحال فيه، والنحر: الصدر.

(٢) تفسير سورة الأحزاب ص ١٨٨.

وليلتها، وعليه أن يعدل بينهن في مرضه كما يفعل في صحته، إلا أن يعجز عن الحركة، فيقيم حيث غلب عليه المرض، فإذا صح استأنف القسم.

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كانت له امرأتان، يميل لإحدهما على الأخرى، جاء يوم القيامة يُجرُّ أحد شِقِّيهِ ساقطاً أو (مائلًا) شك يزيد<sup>(١)</sup>. ولا يجمع بينهن في منزل واحد إلا برضاهن، ولا يدخل إحداهن في يوم الأخرى وليلتها لغير حاجة، ويجوز عند الأكثرين دخوله لحاجة وضرورة.

قال مالك: ويعدل بينهن في النفقة والكسوة إذا كن مُعْتَدِلَاتِ الحال. ولا يلزم ذلك في المختلفات المناصب. وأجاز مالك أن يفضل إحدهما في الكسوة على غير وجه الميل، فأما الحُبُّ والبغض فخارجات عن الكسب، فلا يتأتى العدل فيهما<sup>(٢)</sup>، وهو المعنى بقوله صلى الله عليه وسلم في قَسَمِهِ: «اللهم هذا فِعْلِي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»<sup>(٣)</sup>

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ نَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ

حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾<sup>(٥)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٧٩٢٣، ٨٥٤٩)، والحاكم (١٨٦/٢)، وصححه، وقال الترمذي: لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث همام. قال الألباني: صحيح (أبو داود ٢١٣٣، وابن ماجه ١٩٦٩). والترمذي (١١٤١)، والنسائي (٦٢/٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٤).

(٣) رواه الإمام أحمد (٢٥٦٢٤)، وقال عنه الألباني: ضعيف (أبو داود ٢١٣٤، وابن ماجه ١٩٧١)، والترمذي (١١٤٠). قال شعيب: هذا إسناد رجاله ثقات (وروي مرسلًا قاله غير واحد)، مسند الإمام أحمد ص ١٨٦٤، ط. بيت الأفكار الدولية لبنان (٢٠٠٤م).

(٤) النساء: آية ١٢٩.

(٥) الأحزاب: آية ٥١.

## المفهوم الخامس والعشرون: الوعيد لمن لا يرضي بتصرف

الرسول ﷺ:

في قول الله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ وعيد لمن لا ترضي بتصرف رسول الله ﷺ من زوجاته، فتحزن أو تغضب، أو لا تقر عينها وتهداً، أليس اعتزاله لمن يعتزلها منهن بتفويض من الله عز وجل؟ فكيف يكون مثاراً للغضب والحزن؟<sup>(١)</sup>

والقول الكريم أيضاً خبر عام يدخل فيه الإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، ويدخل في المعنى أيضاً المؤمنون<sup>(٢)</sup>.

أخرج البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ بعثني على جيش ذات السلاسل، فأتيته فقلت: أي الناس أحب إليك؟ فقال: عائشة، فقلت: من الرجال؟ قال: أبوها، قلت: ثم أي؟ قال: عمر بن الخطاب، فعدّ رجالاً»<sup>(٣)</sup>

والقلب قد يكون مصدر خير أو شر، يروى أن لقمان الحكيم كان عبداً نجاراً قال له سيده: اذبح شاة وائتني بأطيبها بضعتين، فأتاه باللسان والقلب، ثم أمره بذبح شاة أخرى، فقال له: ألق أخبثها بضعتين، فألقى اللسان والقلب، فقال أمرتك أن تأتيني بأطيبها بضعتين، فأتيتني باللسان والقلب، وأمرتك أن تلقى بأخبثها بضعتين، فألقت اللسان والقلب! فقال: ليس شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا<sup>(٤)</sup>.

(١) المحرر الوجيز ص ١٥١٩.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢١٨/١٤).

(٣) رواه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢)، وفي المغازي (٤٣٥٨)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣٨٤).

(٤) سبق تخريجه.



والقول الكريم السابق يبين أن الباري عز وجل لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، ويطلع على الظاهر والباطن، وما يختلج في الصدر، أو ينبض به القلب، أو يضطرب في النفس.

ووجه تخصيصه بالذكر ها هنا التنبيه على أنه يعلم ما في قلوبنا من ميل إلى بعض ما عندنا من النساء دون البعض، وهو يسمح في ذلك، إذ لا يستطيع العبد أن يصرف قلبه عن ذلك الميل إن كان يستطيع أن يصرف فعله، ولا يؤاخذ الباري سبحانه بما في القلب من ذلك، وإنما يؤاخذ بما يكون من فعل فيه <sup>(١)</sup>، وإلى ذلك يعود قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾.

(و) حليماً) صفة تقتضي منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطر وفكرٌ لا يملكها الإنسان في الأغلب. <sup>(٢)</sup>

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يمتثل ما أبيح له معهن ضبطاً لنفسه، وأخذاً بالفضل، غير أن سودة وهبت يومها لعائشة رضي الله عنها توصلاً لمسرة رسول الله ﷺ.

### المفهوم السادس والعشرون: جواز نظر الرجل إلى من يريد الزواج منها:

في قول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا﴾ دليل على جواز أن ينظر الرجل إلى من يريد زواجها، ولذلك لما أراد المغيرة بن شعبه رضي الله عنه الزواج من امرأة قال له النبي ﷺ: «انظر إليها فإنه أجد أن يؤدم بينكما» <sup>(٣)</sup> وقال رضي الله عنه: «انظر إليها فإن في أعين الأنصار شيئاً» <sup>(٤)</sup>، يعني: صفراء أو زرقاء، وقيل: رمصاء.

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١٥٧٠/٣).

(٢) المحرر الوجيز ص ١٥١٩.

(٣) رواء النسائي (٣٢٣٧)، والترمذي (١٠٨٧)، والإمام أحمد (٢٤٦/٤)، والبيهقي في الكبرى (٨٤/٧).

(٤) رواء مسلم (١٤٢٤)، وابن حبان (٤٠٤١)، والإمام أحمد (٧٨٢٩، ٧٩٦٦، ٧٩٧٢).

وهذا النظر الذي أباحه الإسلام للرجل إلى المخطوبة إنما هو على جهة الإرشاد إلى المصلحة؛ فإنه إذا نظر إليها فلعله يرى منها ما يرغبه في نكاحها. ومما يدلُّ على أن الأمر على جهة الإرشاد ما ذكره أبو داود من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا خطب أحدكم المرأة فإن استطاع أن ينظر منها إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل»<sup>(١)</sup> فقوله: «فإن استطاع فليفعل» لا يقال مثله في الواجب».

وبهذا قال جمهور الفقهاء مالك والشافعي والكوفيون وغيرهم، وأهل الظاهر، وقد كره ذلك قوم لامبالاة بقولهم؛ للأحاديث الصحيحة<sup>(٢)</sup>. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهَا﴾.

### ما يباح للخاطب أن ينظر إليه:

اختلف الفقهاء فيما يجوز أن ينظر الخاطب إليه ممن يريد خطبتها، فقال مالك: ينظر إلى وجهها وكفِّها، ولا ينظر إلا بإذنها. وقال الشافعي وأحمد: بإذنها وبغير إذنها إذا كانت مستترة. وقال الأوزاعي: ينظر إليها ويجتهد، وينظر مواضع اللحم منها. وقال داوود: ينظر إلى سائر جسدها؛ تمسكاً بظاهر اللفظ. وأصول الشريعة تردُّ عليه في تحريم الاطلاع على العورة<sup>(٣)</sup>. والله أعلم.

### المفهوم السابع والعشرون: النهي عن دخول البيوت بدون إذن:

في قول الله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَانْدَحُلُوبِوتِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَبِظٍ مِنْهُ﴾<sup>(٤)</sup> نهي منه سبحانه وتعالى للمؤمنين عن دخول بيوت النبي ﷺ إلا بإذنه، لأن في الدخول بدون إذن فيه أذى

(١) رواه الحاكم وصححه (١٦٥٢)، وقال عنه الألباني: حسن (أبو داود (٢٠٨٢)، والإمام أحمد (١٤٦٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٤٩٦/٢)، والمحرر الوجيز (١٥٢٠).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢٤٩٦/٢).

(٤) الأحزاب: ٥٣.

لأصحاب البيوت، فالبيوت عورة لا يجوز لغريب أن يطلع عليها لأنه ربما تقع عينه على شيء يكرهه صاحب البيت، فقد يكون الرجل في بيته مثلاً على حال لا يحب أن يراه أحد عليها، كما أنه يجوز أيضاً أن تكون الزوجة أو الأبناء على حال لا يحبون أن يراهم الآخرون عليها.

كما أن الذي يدخل البيوت بغير استئذان في عمله هذا يكون مقتحماً لخصوصيات الآخرين.

لذا فإن الله عز وجل نهى نهياً جازماً وقاطعاً عن دخول بيوت الغير بدون إذن، وأمر أن يكون مع الإذن استئناس من صاحب المنزل للداخل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١).

وإذا كان هذا في حق الناس العاديين فإنه في حق الرسول ﷺ أولى وأجدر، كما بينته الآية الكريمة التي معنا هنا ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَبِزٍ إِنَّمَا﴾ (٢).

وإذا كان الله عز وجل قد نهى المسلمين عن دخول بيوت بعضهم البعض وعن دخول بيوت الرسول ﷺ بدون استئذان واستئناس، فإنه سبحانه تعالى بين أنه يجب أن يكون الاستئذان لدخول بيوت الغير لسبب وجيه، كالطعام مثلاً، أو لقضاء مصلحة من المصالح، أو طلب إجابة عن سؤال شرعي، أو غير ذلك مما تدعو له الحاجة، ثم بعد أن تنتهي المصلحة يجب على صاحب المصلحة أو الحاجة أو من حضر للأكل ونحوه الخروج مباشرة من منزل صاحبه، لأنه يحرم عليه المكث في البيت بعد تناول الطعام، أو بعد قضاء حاجته إذا كان ذلك مؤذياً لصاحب البيت.

(١) النور: الآيتان ٢٧، ٢٨.

(٢) الأحزاب: آية ٥٣.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مَسْتَعْسِبِينَ الْحَدِيثُ﴾ أي: ادخلوا على وجه الأدب، وحفظ الحضرة الكريمة من المباشرة المكروهة، وتقدير الكلام: (إذا دُعِيتُمْ فَوُذِّنْ لَكُمْ فادخلوا، وإلا فنفس الدعوة لا تكون إذناً كافياً في الدخول)<sup>(١)</sup>

﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا﴾ بالتفرق والخروج من البيت والانتشار بعد الانتهاء من الطعام مباشرة، والمراد إلزام الخروج من المنزل عند انقضاء المقصود من الأكل، والدليل على ذلك أن الدخول بدون إذن حرام، وإنما جاز لأجل الأكل، فإذا انقضى الأكل زال السبب المبيح، وعاد التحريم إلى أصله.

ولذلك على من أكل الخروج مباشرة، ولا يجوز له المكث في المنزل للاستئناس بالحديث، لأن الاستئناس بالحديث بعد الطعام للسمر والأخذ بأطراف الحديث أمر غير مرغوب فيه<sup>(٢)</sup>.

وما أحوج المسلمين اليوم إلى هذا الأدب الذي يجافيه الكثيرون. فإن المدعويين إلى الطعام يتخلفون بعده، بل إنهم ليتخلفون على المائدة، ويطول بهم الحديث؛ وأهل البيت - الذين يتحفظون ببقية من أمر الإسلام بالاحتجاب - متأذون محتبسون، والأضياف ماضون في حديثهم، وفي سمرهم، لا يشعرون! وفي الأدب الإسلامي غناء وكفاء لكل حالة، لو كنا نأخذ بهذا الأدب الإلهي القويم.

### **المفهوم الثامن والعشرون: من آداب الدعوة إلى الولائم الالتزام بالمواعيد المحددة:**

في قوله سبحانه ﴿غَيْرَ نَظِيرٍ إِنَّهُ﴾ نهي للمأذون لهم وللمدعويين للطعام عن الدخول إلى بيوت أصحاب الدعوة قبل الميعاد المضروب لهم

(١) أحكام القرآن لابن العربي (١٥٧٧/٣).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٤٩٨/٢).

حضورهم فيه، عجلة وانتظاراً لنضج الطعام، فإن ذلك مما يؤدي قلب صاحب الدعوة، لشغل هذه الحصة معهم بلا فائدة، إلا ضيق صدر الداعي وأهله، وشغل وقته، وتوليد حديث، وتكلف لكلام لا ضرورة له، وإطالة زمن الحجاب على نسائه، وما ذلك إلا من شؤم التعجيل قبل الوقت، ولذلك قال تعالى: (وَلَكِنَّ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا) أي: إذا دعيتم إلى الدخول في وقت، فادخلوا فيه لا قبله ولا بعده. ف (لَكِنَّ) استدراك من النهي عن الدخول، مع الإذن المطلق الذي هو الدعوة بتعليم أدب آخر. وإفادة شرط مهم، وهو الإشارة إلى أن للدعوة حيناً ووقتاً يجب أن يراعى زمنه. وهذا المنهي عنه لم يزل يرتكبه ثقلاء القرويين ومن شاكلهم من غلطاء المدنيين الذين لم يتأدبوا بآداب الكتاب الكريم، والسنة المطهرة، وهو أنهم إذا دعوا لتناول طعام يتعجلون المجيء قبل وقته بساعات، مما يغم نفس الداعي وأهله، ويذهب لهم جانباً من عزيز وقتهم عبثاً إلا في سماع حديثهم البارد، وخدمتهم المستكرهة. فعلى ما ذكرناه يكون في الآية فائدة جميلة، وحكم مهم، وهو حظر المجيء قبل الوقت المقدّر، وحينئذ فكلمة (غَيْرَ) حال ثانية من الفاعل مقيدة للدخول المأذون فيه، وهو أن يكون وقت الدعوة، لا قبله.

والتقدير (إلا مأذونين في حال كونكم غير ناظرين إناه) ولذا قيل: إنها آية الثقلاء. إذا علمنا هذا. فالأجدر استنباط حظر التطفل من صدر الآية، وهو ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ ومن قوله ﴿وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا﴾ لا من قوله ﴿غَيْرِ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ لأنه في معنى خاص، وهو ما ذكرناه<sup>(١)</sup> والله أعلم.

كما ينبغي مراعاة حال أهل البيت بعد الانتهاء من الطعام، وعدم الإثقال عليهم بالبقاء والجلوس طويلاً، فقد يمنعهم الحياء من إبداء الرغبة

(١) تفسير القاسمي (١٢/٤٨٩٢). وانظر الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٦).

في الانصراف كما كان حال النبي ﷺ، يشير إلى ذلك قوله تعالى: (إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ)، ففي هذا بيان من الله عز وجل من انزعاج الرسول ﷺ وتأذيه من تصرف بعض الذين أثقلوا عليه ليلة عرسه بالسيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، كما مر في سبب نزول الآية الكريمة، فبعد أن أكلوا وشبعوا جلسوا آخذين في الحديث والسمر، غير شاعرين بما يسببونه من إزعاج للنبي ﷺ وأهله، والرسول ﷺ يستحي أن ينههم إلى ثقله مقامهم عنده حياء منه، ورغبة في ألا يواجه زوّاره بما يخجلهم! حتى تولى الله سبحانه تعالى عنه الجهر بالحق (وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ) أي: لا يمتنع من بيانه وإظهاره، وهذه الجملة الكريمة فيها دليل على أنه لا حياء في معرفة أحكام الدين وبيان الشرع.

جاء في الصحيح عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إذا رأت الماء»<sup>(١)</sup>

### المفهوم التاسع والعشرون: الحجاب أظهر للقلوب وأبعد عن الشبهات:

في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَلُّوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾<sup>(٢)</sup> دليل على أن الله تعالى أذن في مسألتهن من وراء حجاب في حاجة تعرض، أو مسألة يُسْتَفْتَيْنَ فيها، ويدخل في ذلك جميع النساء بالمعنى، وبما تضمنته أصول الشريعة من أن المرأة كلها عورة، وبدنها، وصوتها، فلا يجوز كشف ذلك إلا لحاجة، كالشهادة عليها، أو داء يكون ببدنها، أو سؤال عما يعرض ويعين عندها.

(١) رواه البخاري (١٣٠، ٢٨٢، ٣٢٢٨، ٦٠٩١، ٦١٢١)، ومسلم في الحيض (٢١٢)، واللفظ لمسلم.

(٢) الأحزاب: ٥٣.

ويقرر قوله سبحانه تعالى: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أن الحجاب أطهر لقلوب الجميع، وعلى ذلك فلا يقل أحد غير ما قاله الله، لا يقل أحد إن الاختلاط وإزالة الحجب والترخص في الحديث واللقاء والجلوس والمشاركة بين الجنسين أطهر للقلوب، وأعف للضمائر، وأعون على تصريف الغريزة المكبوتة، وعلى إشعار الجنسين بالأدب، وترقيق المشاعر والسلوك، إلى آخر ما يقوله نفر من خلق الله الضعاف المهازيل، الجهال المحجوبين، لا يقل أحد شيئاً من هذا والله يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ يقول هذا عن نساء النبي الطاهرات، أمهات المؤمنين، وعن رجال الصدر الأول من صحابة رسول الله ﷺ ممن لا تتناول إليهن وإليهم الأعناق! وحين يقول الله قولاً، ويقول خلق من خلقه قولاً. فالقول لله - سبحانه - وكل قول آخر هراء، لا يردده إلا من يجروء على القول بأن العبيد الفانين أعلم بالنفس البشرية من الخالق الذي خلق هؤلاء العبيد!

والواقع العملي الملموس يهتف بصدق الله، وكذب المدعين غير ما يقوله الله. والتجارب المعروضة اليوم في العالم مصدقة لما نقول. وهي في البلاد التي بلغ الاختلاط الحر فيها أقصاه أظهر في هذا، وأقطع من كل دليل<sup>(١)</sup>.

لذلك فما أحوج الناس كل الناس إلى الرجوع لمنابع الدين الأصيلة، ما أحوجهم إلى الالتزام بالمنهج الرباني وهو الحجاب، ذلك الذي يعد وسيلة ناجعة في طهارة القلب - قلب الرجل وقلب المرأة - من هواجس السوء، وخواطر المعصية، فهو أنقى للريية، وأبعد للثمة، وأقوى في الحماية والتحصن. وهذا يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يثق بنفسه في الخلوة مع من لا تحل له، فإن مجانبة ذلك أحسن لحاله، وأحسن لنفسه، وأتم لعصمته.<sup>(٢)</sup>

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٨٧٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٩) بتصرف.

## لا حرج في عدم الاحتجاب عن المحارم

في قول الله عز وجل : ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِمْ وَلَا أَسْنَائَهُمْ وَلَا إِخْوَانَهُمْ وَلَا مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾<sup>(١)</sup>، بيان لجواز ترك المرأة الاحتجاب مع الآباء والأبناء والإخوة وأبنائهم، وأبناء الأخوات، فهن بنات لأبائهن، وأمهات لأبنائهن، وأخوات لإخوتهن وعمات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الخالات، وكل أولئك محارم، فلا يجب عليهن أن يحتجبن عنهم، أما النساء فقيل إن المراد بهن المؤمنات خاصة، بدليل إضافته إلى ضميرهن، وبناء على هذا لا يحل للكتائيات (وبالأولى المشركات) أن يدخلن على أزواج رسول الله ﷺ، وقيل: المراد جميع النساء، دون تفرقة بين المسلمة والكتائية، لأنهن من جنسهن، ولا تحتجب المرأة مع المرأة، والأول أولى لأنه من الجائز إذا رأت الكتائية أو المشركة المسلمة وهي غير محتجبة فمن الجائز أن تصفها لكتابي أو مشرك، وبذلك يكون كأنه اطلع على عورة مسلمة، من أجل ذلك فالأولى عدم رؤية الكتائية أو المشركة المسلمة وهي غير محتجبة والله أعلى وأعلم.

## سبب عدم ذكر العم والخال في المحارم:

قيل: إنما لم يذكر العم والخال في المحارم هنا في الآية الكريمة التي معنا لأنهما بمنزلة الوالدين. ولذلك سُمي العم أبا في قوله تعالى: ﴿إِلَهُكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾<sup>(٢)</sup>، أو لأنه اكتفى عن ذكرهما بذكر أبناء الإخوة وأبناء الأخوات، فإن مناط عدم لزوم الاحتجاب بينهن وبين الضريقتين عين ما بينهن وبين العم والخال من العمومة والخوولة، لما أنهن عمات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات. وقيل: لأنه كره ترك

(١) الأحزاب: آية ٥٥.

(٢) البقرة: ١٣٣.



الاحتجاب منهما، مخافة أن يَصِفَاهُنَّ لأبنائهما، وهو رأي عكرمة والشعبي. كما أخرجه الطبري<sup>(١)</sup> من طريق داود بن أبي هند عن عكرمة والشعبي أنه قال لهما: ما شأن العم والخال لم يذكر؟ قالوا: لأنهما ينعتانها لأبنائهما. وكرها أن تضع خمارها عند خالها وعمها.

قال الشهاب: لكنه قيل عليه: إن هذه العلة وهو احتمال أن يصفها لأبنائهما، وهما يجوز لهما التزوج بها، جار في النساء كلهن، ممن لم يكن أمهات محارم، فينبغي التعويل على الأول. انتهى.

والتحقيق في رده ما رواه البخاري في التفسير<sup>(٢)</sup> من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: استأذن عليّ أفلح أخو أبي القعيس، بعدما نزل الحجاب، فقلت: لا آذن له حتى استأذن فيه النبي ﷺ فإن أخاه أبا القعيس ليس هو أَرْضَعَنِي، ولكن أَرْضَعَنِي امرأة أبي القعيس. فدخل عليّ النبي ﷺ، فقلت له: يا رسول الله: إن أفلح أخا أبي القعيس استأذن، فأبيت أن آذن حتى استأذنتك، فقال النبي ﷺ: وما منعك أن تأذني؟ عمك. قلت: يا رسول الله: إن الرجل ليس هو أَرْضَعَنِي، ولكن أَرْضَعَنِي امرأة أبي القعيس؛ فقال: ائذني له فإنه عمك، تربت يمينك.

قال عروة: فذلك كانت عائشة تقول: حرّموا من الرضاعة ما تحرمون من النسب. انتهى.

فبقوله ﷺ (ائذني له فإنه عمك) مع قوله في الحديث الآخر<sup>(٣)</sup> (العم صنو الأب) يرد على عكرمة والشعبي<sup>(٤)</sup>.

(١) جامع البيان للطبري (٤٢/٢٢).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب الحديث (١٢٨٢)

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة الأحزاب الحديث (١٢٨٢)، وأخرجه مسلم في كتاب الرضاع، حديث (٦٠٢)

(٤) تفسير القاسمي (٤٨٩٩، ٤٨٩٨/١٢).

**الباب الثاني**  
**بيت النبوة**  
**في ضوء سورة النور**



## تمهيد

### بين يدي حادثة الإفك

إن المصائب والمحن التي واجهها المسلمون بعد هجرتهم من مكة إلى المدينة المنورة كانت متباينة تماماً عما أصابهم في مكة المكرمة، وقد نشأ في المدينة رهط من المنافيين كان شغلهم الشاغل التآمر ضد المسلمين، ونسج خيوط المكر والدهاء للإيقاع بهم، ولا شك أن العرض هو رأس مال الإنسان، وأعلى متاع عنده، والهجوم على أعراض الناس والطعن فيها، والنيل منها لا يجترئ عليها إلا العدو اللئيم الحقير الخسيس، وكما أن المدينة المنورة كانت مأوى ومستقراً للمؤمنين الصادقين المتفانين في سبيل الله، أصحاب الإخلاص والوفاء، أولي الهمم العالية، والتضحيات الجليلة العظيمة، كذلك نشأت هناك طائفة من الأعداء الخائنين، الذين كانوا يكتمون النفاق في قلوبهم، وكان جل اهتمامهم الغدر والخيانة بالمسلمين، والتآمر ضدهم، بسائر الطرق المتاحة لديهم، وكان سلاحهم الأقوى والأكبر هو بث الإشاعات الكاذبة، ونشر الأخبار المزورة التي تتال من حرمان المسلمين وأعراضهم، وتهتك حرمانهم، كما أنها تهیی الأسباب والدوافع لإشعال الحروب الأهلية، وتوفّر مناخاً مناسباً، وجوّاً ملائماً لها.

ولو لم يكن توفيق الله عز وجل حليفاً للمسلمين، والعناية الإلهية حافة بالنبي ﷺ وأصحابه لتكللت جهودهم السيئة هذه بالنجاح، وأثاروا الفتن في المجتمع الإسلامي، ليس عن طريق التفريق بين الصحابة، وتشيتت شملهم فحسب، بل بإيجاد أسباب ودوافع للقتال والتحارب وإسالة الدماء.

هذا ومن أسوأ وأقبح الأمثلة لهذه الجهود التي قامت بها القلوب الحاقدة ضد المسلمين، حادثة الإفك<sup>(١)</sup>، تلك الحادثة التي لفقها المنافقون والحساد، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول، المشهور بين أصحابه وخصومه بالكذب والنفاق، والبغض لرسول الله ﷺ ودعوته، ولذلك كان يخلو بأعداء الإسلام، ويؤلبهم على المسلمين، ويسوّل لهم قتل النبي ﷺ، ويوغر صدورهم على الدين الجديد، والمنتسبين له، كل هذا - والله أعلم. لأنه ضاع ملكه وتاجه بظهور الإسلام، فلا عجب أن يكون له غرض في ترويح حديث الإفك، واتخاذة مطعناً في الإسلام، من وراء الطعن في كرامة نبي الإسلام وزوجته الطاهرة أم المؤمنين - رضي الله عنها - وأرضاها؛ وإن غرض ابن سلول هذا هو بعينه غرض كل متشبهت بحديث الإفك إلى يومنا هذا.. اتهام امرأة بريئة طاهرة لا ذنب لها إلا أنها زوج نبي يريدون التشكيك برسالته<sup>(٢)</sup>.

ولنترك حديث الناس لنسمع ما قاله الله عز وجل عن هذا الموضوع، ثم نخرج بعد ذلك فنذكر ما قالته السيدة الصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين عائشة . رضي الله عنها .

### الإفك لغة واصطلاحاً

#### الإفك لغة:

قال صاحب القاموس المحيط: أَفَكَ، كَضَرَبَ وَعَلِمَ، إِفْكَاً، بالكسر والفتح والتحريك، وَأَفُوكَا: كَذَبَ<sup>(٣)</sup>.

(١) سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين . رضي الله عنها . للعلامة السيد سليمان الندوي، عَرَّبَهُ وحققه محمد رحمة الله حافظ الندوي ص ١٢٧ ط. دار القلم دمشق، ط أولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.  
(٢) نساء حول الرسول: ص٢٣٩، ٢٤٠، وانظر: زوجات النبي ﷺ وآل البيت، للشيخ محمد متولي الشعراوي ص ١٦.  
(٣) القاموس المحيط، مادة (أَفَكَ) ص ٩٣١.

وقال الإمام محمد بن أبي بكر الرازي:  
الإفكُ: الكذب، وقد أفكُ يَأفِكُ بالكسر، ورَجُلٌ (أفَاك) أي: كَذَّابٌ.  
و(الأفْكُ) بالفتح مصدر (أفَكُهُ) أي: قلبه وصرفه عن الشيء، وبابه ضرب<sup>(١)</sup>.

وقال ابن الأثير: الإفك في الأصل الكذب، وأريد به في حديث السيدة عائشة - رضي الله عنها: « حين قال لها أهل الإفك ما قالوا »: ما كذب عليها ممَّا رُمِيَتْ به »<sup>(٢)</sup>.

### الإفك اصطلاحاً:

هو علم بالغلبة على الفرية التي افتروها على السيدة الطاهرة الصديقة، ابنة الصديق، أم المؤمنين، وحبشية رسول الله ﷺ، السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما وأرضاهما.

### سبب تسميته إفكاً:

قال الإمام الرازي رحمه الله: وإنما وصف الله تعالى ذلك الكذب بكونه إفكاً، لأن المعروف من حال السيدة عائشة - رضي الله عنها - خلاف ذلك لوجوه:

**أحدها:** إن كونها زوجة للرسول ﷺ المعصوم يمنع من ذلك؛ لأن الأنبياء مبعوثون إلى الكفار ليدعوهم ويستعطفوهم، فوجب أن لا يكون معهم ما ينفرهم عنهم، وكون الإنسان بحيث تكون زوجته مسافحة من أعظم المنفرات.

**وثانيها:** أن المعروف من حال السيدة عائشة قبل تلك الواقعة إنما هو الصون والبعد عن مقدمات الفجور، ومن كان كذلك؛ كان اللائق إحسان الظن به.

(١) مختار الصحاح مادة (أ ف ك) ص ٢٠.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة (أفك) ص ٤٤.

**وثالثها:** أن القاذفين كانوا من المنافقين وأتباعهم، وقد عرف أن كلام العدو المفتري ضرب من الهديان. فلمجموع هذه القرائن؛ كان ذلك القول معلوم الفساد قبل نزول الوحي»<sup>(١)</sup>.

---

(١) تفسير الفخر الرازي (١٢/١٧٤).

**الفصل الأول**  
**قصة الإفك كما وردت**  
**في القرآن الكريم والسنة النبوية**

أولاً: قصة الإفك كما وردت في القرآن الكريم  
ثانياً: قصة الإفك كما وردت في السنة النبوية.  
المبحث الأول: تفسير آيات الإفك  
المبحث الثاني: براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - ولعن من  
رماها بالإفك





## الفصل الأول

### قصة الإفك كما وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية

#### أولاً: قصة الإفك كما وردت في القرآن الكريم

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَبْرٌ لِّكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ قَالُوا لَتُبْكَنَّ عِنْدَ اللَّهِ هُمْ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتْرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيئًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُعَلِّمُ مَا يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولَؤُا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِقَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يَدْعُؤُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْحَيْثُوتُ لِلْحَيْثِينَ وَالْحَيْثُوتُ لِلْحَيْثِيَّتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴿١﴾

(١) النور: الآيات ١١ - ٢٦.

## ثايناً: قصة الإفك كما وردت في السنة النبوية زمان وقوع الحادثة:

وقعت حادثة الإفك وقت غزوة بني المصطلق، فقد قال البخاري رحمه الله: باب قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾ لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَدَاءِ فَأَوَّلَتْكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٨﴾﴾<sup>(١)</sup>

حدثنا يحيى بن بكير: حدثنا الليث، عن يونس، عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير: وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، عن حديث عائشة - رضي الله عنها، زوج النبي ﷺ، حين قال لها أهل الإفك ما قالوا، فبرأها الله مما قالوا، وكل حدثي طائفة من الحديث، وبعض حديثهم يصدق بعضاً، وإن كان بعضهم أوعى له من بعض، الذي حدثني عروة عن عائشة - رضي الله عنها: أن عائشة - رضي الله عنها - زوج النبي ﷺ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه. قالت عائشة: فأقرع بيننا في غزوة غزاها<sup>(٢)</sup>، فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب<sup>(٣)</sup>، فأنا أحمل في هودجي<sup>(٤)</sup> وأنزل فيه. فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل<sup>(٥)</sup>، ودنونا من المدينة قافلين، أذن ليلة بالرحيل، فقممت حين آذنوا بالرحيل<sup>(٦)</sup>. فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عقد لي

(١) النور: الآيتان ١٢، ١٣.

(٢) هي غزوة المريسيع، والمريسيع ماء لخزاعة على مسيرة يوم وبعض اليوم من المدينة، كما كانت تسمى غزوة بني المصطلق، وهم بطن من خزاعة.

(٣) أي: بعد نزول آية الحجاب.

(٤) الهودج: هو محمل له قبة تستر بالثياب، يوضع على ظهر البعير، وتركب فيه النساء ليكون أستر لهن.

(٥) وقفل أي: راجعاً.

(٦) أي: بعد أن أخذ الجيش قسطاً من الراحة في منزل بالطريق.

من جزع ظفار<sup>(١)</sup> قد انقطع، فالتمست عقدي وحبسني ابتغاؤه<sup>(٢)</sup>.

### رحيل الجيش بدون السيدة عائشة:

وتكمل السيدة عائشة - رضي الله عنها - قائلة: وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي، فاحتملوا هودجي، فرحلوه على بعيري الذي كنت ركبت وهم يحسبون أنني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، إنما تأكل العلقة من الطعام<sup>(٣)</sup>، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل، وساروا.

فوجدت عقدي بعدما استمر الجيش، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب، فأمت منزلي الذي كنت به، وظننت أنهم سيفقدوني فيرجعون إلي، فبينما أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فتمت<sup>(٤)</sup>.

### عثور صفوان عليها، ورجوعها المدينة، وهلاك من هلك بسببها:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: « وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش<sup>(٥)</sup>، فأدلج<sup>(٦)</sup> فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رأني، وكان رأني قبل الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه<sup>(٧)</sup> حين عرفني، فخمرت<sup>(٨)</sup> وجهي بجلبابي، ووالله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ

(١) عقد خرزه من بلدة ظفار اليمانية.

(٢) أي: أخزني البحث عنه.

(٣) العلقة: بضم العين القليل من الطعام، ويقال أيضاً: البلغة، صحيح مسلم بشرح النووي ص ١٦٢٨.

(٤) وهذا من فضل الله عليها، لأنها كانت وحيدة في وسط صحراء خالية موحشة.

(٥) كانت وظيفة صفوان السير وراء الجيش، للاطمئنان على الجنود، وعلى أمتعتهم، وغير ذلك مما يكون معهم، لعلهم يكونوا قد نسوا شيئاً فيحضره لهم، كي لا يضيع عليهم، وهذا فيه حسن تخطيط، ودقة متناهية من الرسول ﷺ.

(٦) فأدلج: الدلج هو السير آخر الليل.

(٧) المقصود باسترجاعه قوله: إنا لله وإنا إليه راجعون.

(٨) خمرت وجهي: غطيته.

راحلتها، فوطئ على يديها فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة، حتى أتينا الجيش بعدما نزلوا موغرين<sup>(١)</sup> في نحر الظهرية، فهلك من هلك<sup>(٢)</sup>، وكان الذي تولى الإفك عبد الله بن أبي بن سلول».

### مرض السيدة عائشة - رضي الله عنها:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «فقدمنا المدينة، فاشتكت حين قدمت شهراً، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يرييني في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكى، إنما يدخل علي رسول الله ﷺ فيسلم، ثم يقول: «كيف تيكم» - ثم ينصرف، فذاك الذي يرييني ولا أشعر بالشر، حتى خرجت بعدما نقهت».

### أول علم السيدة عائشة بحديث الإفك، وزيادة مرضها بسبب ذلك:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «فخرجت معي أم مسطح<sup>(٣)</sup> قبل<sup>(٤)</sup> المناصع<sup>(٥)</sup>، وهو متبرزنا، وكنا لا نخرج إلا ليلاً إلى ليل، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا، وأمرنا أمر العرب الأول في التبرز قبل الغائط، فكنا نتأذى بالكنف<sup>(٦)</sup>، أن نتخذها عند بيوتنا.

فانطلقت أنا وأم مسطح، وهي ابنة أبي رهم بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت

(١) الوغرة: شدة الحر.

(٢) أي: من اشترك في حديث الإفك، وتقول عليها أو أسهم في إشاعته.

(٣) مسطح هو: مسطح بن أثاثة ابن خالة أبي بكر الصديق ﷺ.

(٤) قبل: أي: تجاه.

(٥) المناصع: مواضع خارج البيوت بعيدة عنها، كانوا يتبرزون فيها.

(٦) الكُنف: مفردا كنيف، وهو السائر أو المرحاض، وكان العرب يتأذون من وجودها بالقرب من بيوتهم أيامها.

أنا وأم مسطح قبل بيّتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها<sup>(١)</sup>، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت: أتسبين رجلاً شهد بدرًا، قالت: أي هنتاه<sup>(٢)</sup>، أو لم تسمعي ما قال؟ قالت: قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضًا على مرضي.

فلما رجعت إلى بيّتي ودخل علي رسول الله ﷺ - تعني - سلم ثم قال: «كيف تيكم». فقلت: أتأذن لي أن آتي أبوي؟ قالت: وأنا حينئذٍ أريد أن أستيقن الخبر من قبلهما، قالت: فأذن لي رسول الله ﷺ.

### السيدة عائشة تستوضح الأمر من أبويها:

لما عرفت السيدة عائشة - رضي الله عنها - أمر الإفك أرادت أن تستوضح الأمر من أبويها وعن ذلك تقول - رضي الله عنها: «فجئت أبوي فقلت لأمي: يا أمّاه ما يتحدث الناس؟ قالت: يا بنية هوني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة، عند رجل يحبها، ولها ضرائر إلا كثرن عليها. قالت: فقلت: سبحان الله، أو لقد تحدث الناس بهذا؟ قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم حتى أصبحت أبكي».

### الرسول ﷺ يستأمر أصحابه في فراق أهله:

لما أبطأ الوحي على رسول الله ﷺ دعا عليه الصلاة والسلام سيدنا علياً وسيدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - يستأمرهما في فراق أهله، وعن ذلك تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «فدعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد. رضي الله عنهما حين استلبث الوحي، يستأمرهما في فراق أهله.

(١) المرط بكسر الميم وسكون الراء: ملحفة يؤتزر بها.

(٢) يا هنتاه: يا هذه يا طيبة القلب.

قالت: فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيراً.

وأما علي بن أبي طالب فقال: يا رسول الله لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك<sup>(١)</sup>.

قالت: فدعا رسول الله ﷺ بريرة فقال: «أي بريرة، هل رأيت من شيء يريبك». قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله.

### الرسول ﷺ يستعذر عن عبد الله بن أبي بن سلول:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «فقام رسول الله ﷺ فاستعذر يومئذ من عبد الله ابن أبي بن سلول، فقالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني<sup>(٢)</sup> من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فو الله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري فقال: يا رسول الله، أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج، أمرتنا ففعلنا أمرك، قالت: فقام سعد بن عبادة، وهو سيد الخزرج، وكان قبل ذلك رجلاً صالحاً، ولكن احتملته الحمية<sup>(٣)</sup>، فقال لسعد: كذبت لعمر الله، لا تقتله ولا تقدر على قتله.

(١) هذا الكلام من سيدنا علي رضي الله عنه لا يدل على اتهامه السيدة عائشة. رضي الله عنها، ولكنه قال هذا الكلام للرسول ﷺ حرصاً منه على راحة رسول الله ﷺ، ومصالحته في اعتقاده، لأنه رأى انزعاج النبي ﷺ بهذا الأمر وتقلقه، فأراد راحة خاطره، وكان ذلك أهم من غيره. شرح النووي ص ١٦٢٨.

(٢) يعذرني أي: من يقوم بعذري إن أنا جازيت ابن أبي علي سوء فعله في حديث الإفك، ولا يلومني، وقيل معناها: من ينصرتني.

(٣) أي: أغضبته، وفي رواية معمر عند مسلم (اجتهلته) أي: حملته على الجهل.

فقام أسيد بن حضير، وهو ابن عم سعد، فقال لسعد بن عبادة: كذبت لعمر الله لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتشاور<sup>(١)</sup> الحيان الأوس والخزرج حتى هموا أن يقتتلوا، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم حتى سكتوا وسكت.

### ذهاب الرسول ﷺ إلى السيدة عائشة عند أبيها:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «فبكيت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، قالت: فأصبح أبوأي عندي وقد بكيت ليلتين ويوماً، لا أكتحل بنوم، ولا يرقأ لي دمع، يظنان أن البكاء فالق كبدي. قالت: فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت علي امرأة من الأنصار فأذنت لها، فجلست تبكي معي.

قالت: فبينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس، قالت: ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، - وقد لبث شهراً لا يوحى إليه في شأني - قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال: «أما بعد، يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أملت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تاب الله عليه».

قالت: فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله ﷺ فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيب رسول الله ﷺ، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ.

(١) تشاور: هبوا للنزاع والعصبية.



## تفويض السيدة عائشة أمرها إلى الله والله ينزل براءتها:

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها: « فقلت: وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن: إني والله لقد علمت: لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة، والله يعلم أنني بريئة، لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنني منه بريئة لتصدقني، والله ما أجد لكم مثلاً إلا قول أبي يوسف»<sup>(١)</sup>.

قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>.

قالت: ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، قالت وأنا حينئذ أعلم أنني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيأ يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها.

قالت: فو الله ما رام رسول الله ﷺ، ولا خرج أحد من أهل البيت، حتى أنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء<sup>(٣)</sup>، حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان<sup>(٤)</sup> من العرق، وهو في يوم شات، من ثقل القول الذي ينزل عليه.

قالت: فلما سُرِّي<sup>(٥)</sup> عن رسول الله ﷺ سري عنه وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: « يا عائشة، أما الله عز وجل فقد برأك». فقالت أُمِّي: قومي إليه، قالت: فقلت: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل، فأنزل الله (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ).  
العشر الآيات كلها.

(١) أي: نبي الله سيدنا يعقوب والد سيدنا يوسف عليهما السلام.

(٢) يوسف: آية ١٨.

(٣) البرحاء: شدة الكرب والمشقة من ثقل الوحي.

(٤) الجمان: مفردا جمانة وهي حبة تعمل من الفضة كالدرة.

(٥) سري: أي: كشف عنه.

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿لَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلَى الْقَرْنَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

قالت عائشة: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت، أو رأيت». فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك<sup>(١)</sup>.

### الآلام التي عاشها الرسول وزوجه والصديق وأسرته

وهكذا عاش رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل بيته، وعاش أبو بكر رضي الله عنه وأهل بيته، وعاش صفوان بن معطل، وعاش المسلمون جميعاً هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة، بسبب حديث الإفك الذي نزلت فيه تلك الآيات.

وإن الإنسان ليقف متملماً أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجته المقربة، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة، تلك السن المليئة بالحساسية المرهفة، والرفرقة الشفيفة.

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير سورة النور، الحديث (٤٧٥٠)، وفي كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، وفي كتاب الإيمان باب التوحيد، ومسلم في كتاب التوبة، باب حديث الإفك.

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة، ها هي ذي في براءتها ووضاعة ضميرها، ونظافة تصوراتها، ها هي ذي ترمى في أعز ما تعزز به، ترمى في شرفها، وهي ابنة الصديق، الناشئة في العش الطاهر الرفيع، وترمى في أمانتها، وهي زوج محمد ﷺ بن عبد الله من ذروة بني هاشم، وترمى في وفائها. وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير.. ثم ترمى في إيمانها وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام. من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة، وهي زوج الرسول ﷺ.

ها هي ذي ترمى، وهي بريئة غارة غافلة، لا تحاطب لشيء، ولا تتوقع شيئاً، فلا تجد من يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا، تبرئها مما رميت به، ولكن الوحي يتلبث لحكمة يريدتها الله، شهراً كاملاً، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى، وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟ فتجيب أمها: نعم! فتقول: ورسول الله ﷺ؟ فتجيبها أمها كذلك: نعم!

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به، ورجلها الذي تحبه، يقول لها: «أما بعد فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه»..

وها هو ذا أبو بكر الصديق - في وقاره وحساسيته وطيب نفسه - يلذعه الألم، وهو يرمى في عرضه، في ابنته زوج محمد ﷺ، صاحبه الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدق تصديق القلب المتصل، لا يطلب دليلاً من خارجه.. وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوى على الألم، فيقول: والله ما رمينا بهذا في جاهلية،

أفترضني به في الإسلام؟ وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل، حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: أجب عني رسول الله ﷺ، قال في مرارة هامة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ !

وأما رومان زوج الصديق - رضي الله عنهما - وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي حتى تظن أن البكاء فائق كبدها، فتقول لها: يا بنية هوني على نفسك، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبني عني رسول الله ﷺ، فتقول كما قال زوجها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ !

والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل، وهو يرمى بخيانة نبيه في وجهه، فيرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي حميته، وفي كل ما يعتز به صحابي، وهو من ذلك كله بريء، وهو يفاجأ بالاتهام الظالم، وقلبه برئ من تصوره، فيقول: سبحان الله! والله ما كشفت كتف أنثى قط، ويعلم أن حسان يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تؤدي به، ودافعه إلى رفع سيفه على امرئ مسلم، وهو منهي عنه، أن الألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح !

ثم ها هو رسول الله ﷺ وهو رسول الله، وهو في الذروة من بني هاشم، ها هو ذا يرمى في بيته، وفي من؟ في عائشة التي حلت من قلبه مكان الابنة والزوجة والحببية، وها هو ذا يرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة، وها هو ذا يرمى في صيانة حرمة، وهو القائم على الحرمات في أمته، وها هو ذا يرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم من كل سوء.

ها هو ذا ﷺ يرمى في كل شيء حين يرمى في عائشة . رضي الله عنها . يرمى في فراشه، وعرضه، وقلبه ورسالته، يرمى في كل ما يعتز به عربي، وكل ما يعتز به نبي، ها هو ذا يرمى في هذا كله، ويتحدث الناس به في المدينة شهراً كاملاً، فلا يملك أن يضع لهذا كله حداً، والله يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملاً لا يبين فيه بياناً، ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم، يعاني من فجاعة القلب، ويعاني فوق ذلك الوحشة المؤرقة، الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق، رغم وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، لكنه في النهاية بشر ينفعل بانفعالات البشر.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد حبه، القريب إلى قلبه، ويبعث إلى علي بن أبي طالب، ابن عمه وسنده، يستشيرهما في خاصة أمره، فأما علي فهو من عصب محمد، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب، ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق الذين يعتصران قلب محمد، ابن عمه، وكافله، فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه، ويشير مع هذا بالثبوت من الجارية ليطمئن قلب رسول الله ﷺ، وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، ويستقر على قرار، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفتريين الأفاكين . ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلاً من فضلاء المسلمين لا يعلم أحد عليه من سوء، فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور وهم في المسجد، وفي حضرة رسول الله ﷺ مما يدل على الحالة الشاقة التي كانت تظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة . وقد خدشت قداسة القيادة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ، والنور الذي

اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح.

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو، يتعطف عليه ربه، فيتزل القرآن الكريم ببراءة السيدة عائشة الصديقة الطاهرة، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها - عن هذا القرآن الذي تنزل: «وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها».

ولكن الأمر كما يبدو في ذلك الاستعراض لم يكن أمر عائشة - رضي الله عنها - ولا قاصراً على شخصها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها، بل تجاوزه إلى صلته بربه، ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها، من أجل ذلك أنزل الله عز وجل القرآن ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله، وما يعلمها إلا الله (١).

---

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٤٩٨ . ٢٥٠٠) بتصرف.



المبحث الأول  
تفسير آيات الإفك





قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسَبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ  
أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١).

أي: إن الذين جاءوا بالإفك، واختلقوا هذا الكذب البعيد عن الصدق، ليسوا فرداً ولا أفراداً، إنما هم «عصبة مجتمعة ذات هدف واحد، ولم يكن عبد الله بن أبي بن سلول وحده هو الذي أطلق ذلك الإفك، إنما هو الذي تولى معظمه، وهو يمثل عصبة اليهود أو المنافقين، الذين عجزوا عن حرب الإسلام جهرة، فتواروا وراء ستار الإسلام، ليكيدوا له خفية، وكان حديث الإفك إحدى مكائدهم القاتلة، ثم خدع فيها المسلمون، فخاض منهم من خاض في حديث الإفك، كحمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، أما أصل التدبير فكان عند تلك العصبة، وعلى رأسها ابن سلول، الحذر الماكر، الذي لم يظهر بشخصه في المعركة، ولم يقل علانية ما يؤخذ به، فيقاد إلى الحد، إنما كان يهمس به بين ملئه الذين يطمئن إليهم، ولا يشهدون عليه، وكان تدبيره في منتهى المهارة والخبث، بحيث أمكن أن ترجف به المدينة شهراً كاملاً، وأن تتداوله الألسنة في أظهر بيئة وأتقاها، لكن على المسلمين أن يطمئنوا من كيد هذا الماكر اللئيم، فلا يحسبوه شراً لهم، بل هو خير لهم، لأنه يكشف كيد الكائدين للإسلام في شخص النبي ﷺ وأهل بيته، ويكون سبباً في براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - في آيات تتلى إلى يوم الدين (٢) «وسبباً لزيادة الأجر والثواب للسيدة عائشة - رضي الله عنها - ولأبويها ولصفوان بن المعطل، كما يكون في الأساس خيراً لرسول الله ﷺ، لأنهم جميعاً سُبُّوا في عرضهم، وفي كراماتهم» (٣).

(١) النور: آية ١١.

(٢) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٠، ٢٥٠١) بتصرف.

(٣) تفسير الوسيط (٢/٢١٠) بتصرف.

أما الذين خاضوا في الإفك فلكل منهم بقدر نصيبه من تلك الخطيئة، ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي: لكل من تكلم بالإفك وهم حسان ومسطح وحمّنة بنت جحش جزاء ما اكتسب من الإثم بسبب تكلمهم به، ولذلك فإن الرسول ﷺ قد حدهم، والمشهور من الأخبار أن الذي جد بسبب الخوض في الإفك ثلاثة: حسان ومسطح وحمّنة، روى أبو داود عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «لما نزل عذري قام النبي ﷺ على المنبر فذكر ذلك، وتلا - تعني القرآن - فلما نزل من المنبر أمر بالرجلين والمرأة فَضْرِبُوا حَدَّهُمْ» (١) وسماهم: «حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وحمّنة بنت جحش» (٢)، وأما الذي تولى كبره «وقاد الحملة، واضطلع منه بالنصيب الأوفى، وهو عبد الله بن أبي بن سلول رأس النفاق، وحامل لواء الكيد للإسلام والمسلمين ونبي الإسلام ﷺ، فله بسبب ما قدمت يداه في هذه الجريمة الشنعاء، وبسبب حبه أن تشيع الفاحشة بين المؤمنين له عذاب عظيم من الله عز وجل في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ

مُبِينٌ﴾ (٣).

أي: هلا إذ سمع المسلمون والمسلمات الذين راجت عليهم الفرية - حديث الإفك - أن يقيس كل واحد منهم المسألة على نفسه، فهل يرتضيها؟ وهل تليق به؟ بالطبع لا يرتضي أحد لنفسه أن يتهم بهذا الاتهام الطاعن في الكرامة والشرف والأمانة بل والقاتل، ولا يليق بأحد من أصحاب الطباع السليمة والأنفة والكرامة والعزة أن يتهم بهذا الاتهام، وإذا كان ذلك كذلك فإنه من باب أولى لا يليق هذا الاتهام بأمة المؤمنين السيدة عائشة

(١) رواه أبو داود، في كتاب الحدود، الحديث (٤٤٧٤) والترمذي، في كتاب التفسير، الحديث (٣١٩٤)، وقال عنه: حسن غريب لا نعرفه من حديث محمد بن إسحاق، ورواه ابن ماجه، الحديث (٢٥٦٧).

(٢) ذكر ذلك أبو داود في سننه الحديث (٤٤٧٥).

(٣) النور: آية ١٢.

- رضي الله عنها - وزوج رسول الله ﷺ، لذا فإنه كان من الواجب على المؤمنين والمؤمنات حينما سمعوا هذه الفرية وهذا الإفك المبين على السيدة عائشة - رضي الله عنها - أن يظنوا بأنفسهم خيراً، أي: يظنوا خيراً بأفراد الأمة، وبأفراد الملة والدين الإسلامي، والتعبير بأنفسكم في الآية الكريمة هو من قبيل قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾<sup>(١)</sup> أي: إخوانكم، ومن قبيل قول الرسول الكريم ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»<sup>(٢)</sup>، ومن قبيل قول الرسول ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»<sup>(٣)</sup>.

يقوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾<sup>(٤)</sup>.

أي: هلا جاء أهل الإفك على ما ادعوه على السيدة عائشة . رضي الله عنها. وصفوان بن المعطل بأربعة شهداء يشهدون على ثبوت ما قالوا، لكن هؤلاء الأفاكين قد خالفوا، ثم من العجيب أن بعض المؤمنين غفلوا عن مطالبتهم بذلك، كما غفل بعضهم عن استفتاء ضميره، والذين جاءوا بالإفك وقذفوا السيدة عائشة الطاهرة الجوهرة المصونة لم يروا فاحشة، ولكنهم افتروا ذلك ظلماً وبهتاناً، لذلك فهم قد أوغلوا في الفساد، فأصبحوا (عند الله) أي في حكمه وشريعته (هم الكاذبون)، أي: المحكوم عليهم بالكذب شرعاً، أي: بأن خبرهم لم يطابق في الشرع الواقع<sup>(٥)</sup>.

(١) الحجرات: ١١.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) النور: آية ١٢.

(٥) روح المعاني (١١٨/١٨) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَبَيْنَ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (١).

(في هذه الآيات الكريمة عتاب من الله عز وجل بليغ للمؤمنين بسبب تعاطيهم حديث الإفك، وإن لم يكن المخبر والمخبر مصدقين، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه) (٢)، والمعنى: ولولا فضل الله عز وجل على الذين خاضوا في شأن السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - بأن أمهلهم للتوبة في الدنيا، وأرشدهم إلى الطريق، وفي الآخرة حيث قبل منهم توبتهم وإنابتهم إليه في الدنيا والآخرة، وعفا عنهم لإيمانهم بالنسبة إلى الدار الآخرة لمسهم فيما أفاضوا فيه من قضية الإفك عذاب عظيم وقت تلقفهم له بألسنتهم، فقد كانوا يتلاقون مع بعض، ويستشير أحدهم الآخر بسؤاله، ما وراءك؟ ليتكلم ويفيض في الإفك، ويتلقى القول منه، ويجتذبه بلسانه، لا أنه مجرد سماع عفوًا، ولعل هذا هو السر في التقييد بقوله: (بِأَلْسِنَتِكُمْ)، نعم، وكانوا يقولون هذا بملء أفواههم، غير ملقين له بالا، ولا مقدرين له خطراً، ويقولون بأفواههم ما ليس له في قلوبهم حجة ولا برهان، ويحسبونه هيناً سهلاً لا جرم فيه، وهو عند الله عظيم، لا يقادر قدره في الوزر، واستجرار العذاب، وكيف لا يكون عظيماً وكبيراً ولا يقادر قدره وفيه رمي بيت النبوة بالزنى، وتدنيس فراش النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم بأقبح القاذورات (٣).

(١) النور: الآيات ١٤ - ١٨.

(٢) الجواهر الحسان للتعاليبي (٢/٤٤٠).

(٣) التفسير الواضح المجلد الثاني (١٨/٥٤) بتصريف. وفي رحاب التفسير للشيخ عبد الحميد كشك (١٨/٢٩٦).

بتصريف أيضاً.

فكان من الواجب على المسلمين وقت سماعهم للأفاكين الذين افتروا على الله عز وجل ، وعلى رسوله الكريم ﷺ، وعلى أم المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها، أن يقولوا: (مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ) أي: ما يمكننا وما يصدر عنا بوجه من وجوه التكلم (بهذا) القول الذي هو محض افتراء، ثم ينزهوا ألسنتهم وأفواههم من هذا الدنس ويقولوا: «سبحانك» تعجباً من تَفَوُّه مَنْ تَفَوَّهَ بِهِ، أو تنزيهاً لله تعالى شأنه من أن يصم نبيه عليه الصلاة والسلام ويشينه، فإن فجور الزوجة وصمة في الزوج تنفر عنه القلوب، وتمنع عن اتباعه النفوس، ولذا صان الله تعالى أزواج الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن ذلك، وهذا بخلاف الكفر، فإن كفر الزوجة ليس وصمة في الزوج، وقد ثبت كفر زوجتي نوح ولوط عليهما السلام كذا قيل. وعلى هذا يكون «سبحانك» تقريراً لما قبله، وتمهيداً لقوله سبحانه «هذا بهتان عظيم» أي: كذب يبهت ويحير سامعه لفظاعته، والظاهر أن التوبيخ للسامعين الخائضين لا للسامعين مطلقاً»<sup>(١)</sup>.

ثم يعظ الله عز وجل المؤمنين وينصحهم أو يحرم عليهم أو ينهاهم متوعداً أن يعودوا، أو من أن يعودوا لمثل هذا القذف مدة حياتهم إن كانوا مؤمنين بالله وشرعه، ومعظمين لرسوله ﷺ، وذلك لأن الإيمان يمنع صاحبه من الوقوع في مثل هذه الأمور، وعن ذلك يقول سبحانه: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أما من كان متصفاً بالكفر فله حكم آخر، ثم قال تعالى: ﴿وَيَبِّئُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ أي: يوضح لكم الأحكام الشرعية، والحكم القدرية ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بخلقه، وبأحوالهم الخاصة والعامة، السرية والجهرية، وبالتالي فهو عليم بما يصلحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وقدره، ولذلك فهو سبحانه تعالى يضع الأمور في نصابها<sup>(٢)</sup>.

(١) روح المعاني (١٢٠/١٨) بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٧٤/٢) وفتح القدير (١٦/٤) كلاهما بتصرف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطْوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾<sup>(١)</sup>.

لما حذر الله عز وجل المؤمنين في الآيات السابقة ونهاهم عن العودة لمثل حادثة الإفك، أعقب ذلك بتحذير ثانٍ لنوع آخر من الجرائم والمعاصي لا يقل خطورة في آثاره ونتائجه عن آثار ونتائج حادثة الإفك، ألا وهو حب إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي: إن الذين يريدون (ويقصدون)<sup>(٢)</sup>، إشاعة الفاحشة وانتشار خبرها بين الناس لهم بسبب إشاعة الفاحشة<sup>(٣)</sup> وحبهم لذلك نوع من العقوبة والنكال، تبلغ الغاية من الإيلام الجسدي والنفسي، فهو عذاب متفاقم ألمه، في الدنيا بالحد والإهانة من الناس، وفي الآخرة عذاب شديد.

ثم يقول سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلم سبحانه تعالى ما في إشاعة الفاحشة من مفسد، لذلك وعظكم وحذركم، وبين لكم خطر ذلك، فمن الخير لكم أن تمتثلوا أمر الله، وإن الزمن يثبت هذا.

ثم يذكر الله عز وجل المؤمنين بفضله عليهم ورحمته فيقول: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فالحدث الذي أحدثه البعض

(١) النور: الآيات ١٩ - ٢١.

(٢) روح المعاني (١٢٢/١٨)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل، ص ٤٦٥، وإرشاد العقل السليم (٥٠/٤)، وتوير الأذهان (٥٣/٣).

(٣) الفاحشة والفحشاء والفحش « هو ما عظم قبحه من الأفعال، والأقوال، كالزنا، وعمل قوم لوط عليه السلام، وقذف المحصنات، وسميت فاحشة لأنها فعلة قد بلغت حدا من الشناعة (المفردات ص ٦٦٦).

ولفقه في حق السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - عظيم، والخطأ الذي ارتكبه في حقها جسيم، والشر الكامن فيه خليق أن يصيب الجماعة المسلمة كلها بسوء، ولكن فضل الله ورحمته، ورأفته ورعايته، ذلك ما وقاهم سوء، فإذا تمثلوا أن ذلك الشر العظيم كان وشيكاً أن يصيبهم جميعاً، لولا فضله سبحانه تعالى ورحمته، صور لهم عملهم بأنه اتباع لخطوات الشيطان، وما كان لهم أن يتبعوا خطوات الشيطان عدوهم وعدو أبيهم من قديم، وحذرهم ما يقودهم الشيطان إليه من مثل هذا الشر المستطير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾<sup>(١)</sup> أي: لا تكونوا ممن يقتفي أثر الشيطان فينقله من معصية إلى أخرى، لأن من يفعل ذلك ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ يكون مرتكباً للفحشاء والمنكر، لأن الشيطان دأبه المستمر الأمر بهما، فمن اتبع خطواته فقد امتثل أمره قطعاً، وبالتالي فيتردى من رتبة الضلال والفساد إلى رتبة الإضلال والإفساد، فيأمر بالفحشاء والمنكر، وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذي قاد الشيطان إليه المؤمنين الذين خاضوا فيه، وهو نموذج منفر شنيع. وإن الإنسان لضعيف، معرض للنزعات، عرضة للتلوث بالانجرار لطرق الشيطان وخطواته وأساليبه، إلا أن يدركه فضل الله ورحمته، حين يتجه إلى الله، ويسير على نهجه: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ، مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ فنور الله الذي يشرق في القلب يطهره ويزكيه، ولولا فضل الله ورحمته ما زكى أحد من خلقه ولا تطهر، ولكن بفضله ورحمته يزكي من

(١) الشيطان: اسم لكل عارم متمرد من الجن والإنس والحيوانات. المفردات مادة (شطن) ص ٤٤٤.

(٢) زَكَّى وَزَكَّى وَتَزَكَّى والمضارع منه يزكو ويزكى، والمصدر زكاء، وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة والمدح والصلاح، وكل ذلك مستعمل في القرآن والحديث (لسان العرب زكا، والمفردات زكا ص ٣٨٠) قال الرازي: «الزكي مَنْ بلغ في طاعة الله مبلغ الرضا، ومنه يقال: «زكا الزرع. فإذا بلغ المؤمن من الصلاح في الدين ما يرضاه الله تعالى سمي زكياً، ولا يقال: زكى إلا إذا وجد زكياً» «مفاتيح الغيب: ١٨٥/٢٣) وقال صاحب اللسان: «في قول الله تعالى: «ما زكى منكم» فمن قرأ (ما زكا) فمعناه ما صلح منكم، ومن قرأ (ما زكى) فمعناه ما أصلح، ولكن الله يزكى من يشاء» أي: يصلح من يشاء. لسان العرب مادة زكا (٦٧٩/٢).



يشاء تزكيته من خلقه ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أي: يطهر من عباده بالفضل عليهم والرحمة لهم<sup>(١)</sup>.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلُ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>

### سبب نزول هذه الآية:

المشهور أن هذه الآية الكريمة نزلت بعد أن حلف سيدنا أبو بكر رضي الله عنه على أن لا ينفق على «مسطح بن أثاثة» أحد الثلاثة من المسلمين الذين خاضوا في حديث الإفك، كما ورد في صحيح البخاري في حديث الإفك الطويل الذي رواه عبد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن حديث عائشة. رضي الله عنها. زوج النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ورد في آخره: «.... فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقربته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، بعد الذي قال لعائشة، ما قال، فأنزل الله:

﴿وَلَا يَأْتَلُ (٣) أُولُو الْفَضْلِ (٤) مِنكُمْ وَالسَّعَةِ (٥) أَن يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ (٦) وَالْمَسْكِينِ (٧) وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (٨) وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

(١) الكشاف ص ٧٢٣.

(٢) النور: آية ٢٢.

(٣) ولا يأتل: أي: لا يحلف، وزنه يفتعل من الألية، وهي اليمين، يقال: ائتلى يأتلي إذا حلف، ومنه قوله سبحانه: (لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِن نِّسَائِهِمُ الْبِقْرَةَ: ٢٢٦، وقالت فرقة: هو من أَلَوْتُ في كذا إذا قصرت، ومنه لم آل جهداً، أي: لم أقصر، وكذا منه قوله: (لَا يَأْلُوَنكُمْ خَبَالًا) آل عمران: ١١٨ والأول أولى بدليل سبب النزول. فتح القدير (١٩/٤) والمفردات ص (٨٣، ٨٤).

(٤) أولو الفضل: أي: أصحاب السابقة والمنزلة في الإسلام، وأصحاب الغنى والسعة في المال. فتح القدير. السابق. والفضل أصله: الزيادة، فهو ضد النقص، وشاع إطلاقه على الزيادة في الخير والكمال الديني. وهو المراد هنا. التحرير والتوير (١٨٩/١٨).

(٥) السعة: الغنى.

(٦) أولى القربى: أولى القرابة، والمراد به قرابة النسب.

(٧) المساكين: جمع مفردة مسكين، والمسكين مأخوذ من السكون ضد الحركة، لأن العدم أسكنه وأذله. والمسكين من لا شيء له، فيحتاج إلى المسألة لقوته ومداراة بدنه، وهو أبلغ من الفقير، وقيل: هو من له مال أو كسب لا يكفيه. التحرير والتوير (٢٣٥/١٠).

(٨) والمهاجرين في سبيل الله: هم أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا من مكة إلى المدينة فراراً بدينهم.

وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى  
مِسْطَحِ النَّفْقَةِ التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها مِنْهُ أَبَدًا....<sup>(١)</sup>.

---

(١) سبق تخريجه.



## المبحث الثاني

براءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - ولعن من رماها  
بالإفك:



يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَسِنَّتُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ وَيَنْهَاهُمُ الْحَقُّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْحَيْثُ لِلْخَيْثِ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِ وَالطَّيْبُ لِلطَّيْبِ وَالطَّيْبُوتُ لِلطَّيْبِ أَوْلَيْكَ مَبْرُوتٌ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ (١).

### أقوال العلماء في هذه الآيات الكريمة:

عن عمر بن أبي سلمة عن أبيه قال: قالت عائشة: رميت بما رميت به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله ﷺ عندي جالس إذ أوحى إليه، وكان إذا أوحى إليه أخذه كهيئة السبات، وإنه أوحى إليه وهو جالس عندي ثم استوى جالساً يمسح عن وجهه، قال: يا عائشة أبشري، قالت: فقلت: بحمد الله لا بحمدك، فقرأ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ حتى بلغ ﴿ أَوْلَيْكَ مَبْرُوتٌ مِمَّا يَقُولُونَ ﴾ (٢).

وعن العوام بن حوشب عن شيخ من بني أسد، عن ابن عباس قال: فسر سورة النور فلما أتى على هذه الآية ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ الآية قال: هذا في شأن عائشة وأزواج النبي ﷺ، وهي مبهمة، وليس لهم توبة، ثم قرأ: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ﴾ إلى قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴾ الآية، قال: فجعل لهؤلاء توبة، ولم يجعل لمن قذف أولئك توبة، قال: فَهَمَّ بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَقُومَ إِلَيْهِ فَيَقْبَلَ رَأْسَهُ مِنْ حَسَنٍ مَا فَسَّرَ سُورَةَ النُّورِ (٣)، فقلوله: وهي (مبهمة) أي عامة في تحريم قذف كل محصنة، ولعنته في الدنيا والآخرة.

(١) النور: الآيات ٢٣ - ٢٦.

(٢) جامع البيان (٨٢/١٨).

(٣) المرجع السابق (٨٢/١٨) وفتح القدير (٢٢/٤) وتفسير القرآن العظيم (٢٧٦/٣، ٢٧٧).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ الآية: نزلت في عائشة خاصة (١).

وعن ابن زيد: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: هذا في عائشة، ومن صنع هذا اليوم في المسلمات فله ما قال الله، ولكن عائشة كانت إمام ذلك (٢). وعن سعيد بن جبير أنه قال: إنها في عائشة خاصة (٣)، وقال الضحاك والكلبي: هذه الآية في عائشة وأزواج رسول الله ﷺ خاصة ليس فيها توبة، ومن قذف امرأة مؤمنة فقد جعل الله له توبة، ثم قرأ ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى: ﴿الْمُحْصَنَاتُ الْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ «الخبيثات من النساء للخبِيثين من الرجال، والخبِيثون من الرجال للخبِيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء، وهذا أيضاً يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أي: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهي طيبة، لأنه أطيب من كل طيب من البشر، ولو كانت خبيثة لما صلحت له لا شرعاً ولا قدرًا (٤).

وقوله: ﴿أُولَئِكَ مُرَرَّوْنَ وَمَيَّقُولُونَ﴾ الإشارة إلى السيدة عائشة رضي الله عنها أصلاً، وللمؤمنات المحصنات الغافلات تبعاً (٥)، أي: أولئك المذكورون من الطيبين والطيبات مبرؤون مما يقول الخبيثون والخبِيثات.

(١) فتح القدير (٢/٤) وتفسير القرآن العظيم (٢٧٦/٣).

(٢) جامع البيان السابق، وتفسير القرآن العظيم (٢٧٧/٣).

(٣) تفسير الوسيط (٣١٣/٣، ٣١٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم السابق.

(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٥٦٥.

وقوله: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي: هؤلاء المبرؤون لهم مغفرة عظيمة لما لا يخلو عنه البشر من الذنوب<sup>(١)</sup>، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي: ولهم أيضاً رزق كبير كريم، والرزق: اسم للعطاء دنيوياً كان أو أخروياً<sup>(٢)</sup>، والظاهر أن المراد بالرزق الكريم هنا: نعيم الجنة، لأن كلمة «كريم» تعني: النفيس، أو أن الرزق الكريم هو أن يصل الإنسان إكرام، أي: نفع لا يلحقه فيه غضاضة، ولا يكون ذلك إلا في الجنة<sup>(٣)</sup>.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: أن العذاب العظيم الذي أعده الله عز وجل لهم ينالونه يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون، وهو يوم القيامة، وذلك حين يجحد أحدهم ما اكتسب في الدنيا من الذنوب، عند تقرير الله إياه بها، فيختم الله عز وجل على أفواههم فيه، وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فضحك، فقال: «هل تدرون ممّ أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: « من مخاطبة العبد ربه، يقول: يَا رَبِّ: أَلَمْ تُجْرِنِي مِنَ الظُّلْمِ؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فَإِنِّي لَا أَجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلَّا شَاهِدًا مِنِّي، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً» وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتتطق بأعماله، قال: ثم يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الكَلَامِ، قال: فيقول: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْحًا، فَعَنَكُنَّ كُنْتَ أَنَاضِلَ»<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح القدير (٢٢/٤) وتفسير الجمل (٢١٦/٢) بتصرف.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن مادة (رزق) ص (٣٥١).

(٣) التحرير والتلوين (١٩٥/١٨) والمفردات مادة (كرم) ص (٧٠٧).

(٤) رواه الإمام مسلم في صحيحه، في كتاب الزهد والرفائق، الحديث (٢٩٦٩) وذكره ابن كثير في تفسيره (٢٧٧/٢).





**الفصل الثاني**  
**المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة**  
**من حادثة الإفك**



## الفصل الثاني

### المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من حادثة الإفك

ليس من المبالغة في شيء قول أحد الباحثين: إن حادثة الإفك يُعد بالنسبة لرسول الله ﷺ ولأصحابه حدث الأحداث في تاريخه عليه الصلاة والسلام، فلم يُمكَّر بالرسول ﷺ ولا بالإسلام ولا بالمسلمين مكر أشد من تلك الفرية، لأنها تعتبر بحق أخطر تحدٍّ واجه المجتمع الإسلامي كله آنذاك!! وكادت الفرية المختلقة أن تعصف بالأخضر واليابس لولا عناية الله عز وجل للإسلام والمسلمين.

وقبل استنباط العبر والعظات والمفاهيم المستفادة من هذه الحادثة لا بد لنا أولاً من إلقاء الضوء على أمور: **أولها**: سبب اختلاق حادثة الإفك، **وثانيها**: خطر النفاق والمنافقين، **وثالثها**: عظم منزلة المرأة في الإسلام فنقول:

#### أولاً: سبب اختلاق حادثة الإفك:

إن التقدم الذي أخذت الدعوة الإسلامية تحققه في بلاد العرب بعد انتصارها في غزوة بدر، بلغ من قوته واستحكامه حتى غزوة الخندق حيث بدأ المشركون واليهود والمنافقون والمتريصون، يحسبون لها ألف حساب، ويشعرون بأن هذه القوة الفتية لا يمكن أن تهزم بمجرد الأسلحة والجنود، فقد كانوا أغاروا على المدينة المنورة متحدين بعشرة آلاف من رجالهم في غزوة الخندق، ولكن لقوا فيها هزيمة منكرة، فرجعوا إلى مكة خائبين خاسرين بعد شهر، وأعلن النبي ﷺ في أصحابه: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم»<sup>(١)</sup>.

(١) رواه البخاري (٤٠٨/٨، ٤٠٩) وابن هشام في سيرته (٢٥٤/٢).

وكأن ذلك إعلان منه ﷺ أن القوى المعادية للإسلام قد خارت عن البدء بالإقدام على الحرب، وأن الإسلام لن يحارب بعده حرب الدفاع ولكنه سيحارب حرب الإقدام، وقد كان ذلك تحليلاً صحيحاً جداً للظروف، وكان يشعر بها العدو نفسه.

ولم يكن السبب في مثل هذه الظروف لانتصار المسلمين وتقدمهم يوماً فَيَوْمًا: كثرتهم في العدد؛ لأن المشركين كانوا أقبلوا عليهم في كل حرب. من بدر إلى الخندق. وعددهم أضعاف عدد المسلمين، بل لم يكن عدد المسلمين إذ ذاك حسب الإحصاء إلا ١٠/١ في العرب كلها. وكذلك لم يكن السبب لهذا التقدم والانتصار تفوق المسلمين في السلاح؛ لأن الكفار كانت كفتهم هي الراجحة في جميع أنواع العدة والعتاد.

وكذلك ما كان المسلمون ليزاحموا الكفار باعتبار قوتهم الاقتصادية والمالية، وتغلغل الغلبة والنفوذ، لأن وسائل العرب الاقتصادية كلها كانت بأيدي الكفار، وكان المسلمون في بلاء عظيم من الفقر والجوع.

وكان وراء الكفار جميع قبائل العرب من المشركين وأهل الكتاب، وكان المسلمون قد فقدوا التأييد من جميع المحامين عن النظام القديم، وانقطعوا عنهم لقيامهم بالدعوة إلى دين جديد يسفه أحلامهم، ويكذب آلهتهم، ويشتم آباءهم بزعمهم، فالشيء الوحيد الذي كان يقوي ساعد المسلمين، ويقطع بهم أشواط الرقى والتقدم، إنما هو تفوقهم المعنوي الذي كان جميع أعدائهم أنفسهم يشعرون به تمام الشعور: ينظرون في جانب إلى حياة النبي ﷺ والصحابة أظهر من السحاب في السماء، وتسحر قلوبهم هذه الطهارة والسمو الخلقي، وينظرون في الجانب الآخر طهارة الأخلاق الفردية والجماعية قد أنشأت في المسلمين من الوحدة والنظام الداخلي ما لا يكاد يخطر بالقلب أكثر منه حيث كان نظام جماعة المشركين واليهود المتراخي يلقي أمامه الهزيمة تلو الهزيمة في السلم والحرب.

ومن طبيعة اللئام أنهم إذا رأوا محاسن غيرهم ومساوئ أنفسهم واضحة، وعلموا أن محاسنه هي السُّرُّ في تقدمه ورقبه، وأن مساوئهم ومواضع الضعف والانحلال فيهم هي التي تضع من شأنهم، وتخسرهم المعركة، يأخذهم الهم بأن يخلقوا فيه . بأي حيلة من الحيل . ما في أنفسهم من المساوئ، ومواضع الضعف والفضوى، أو يرموه بما ليس فيه، ويدنسوا ذيله، ويشوهوا سمعته حتى لا ترى الدنيا محاسنه بدون عيب على الأقل، فهذه العقلية الدنيئة هي التي حولت مساعي الكفار والمنافقين وغيرهم من أعداء الإسلام في هذه المرحلة من الأعمال الحربية الظاهرة، إلى الحملات الرذيلة، وإحداث الفتن في داخل نظام المسلمين، ومجتمعهم خفية (١) وكان من بين هذه الحملات، وتلك الفتن التي كادت تعصف بالمجتمع الإسلامي حادثة الإفك، تلك الحادثة التي كانت من خطورتها وشدتها بحيث لو لم يكن رسول الله ﷺ وأصحابه في منتهى النظام والتحمل، لظهرت في مجتمع المدينة المسلم الفتى حرب داخلية شديدة. لأن هذا الإفك الذي اتفكه الأفاكون، استهدف صاحب الرسالة العظيمى سيدنا محمد ﷺ، فقد طعنه الأفاكون في أقدس شيء وأعزه، في عرضه المصون، وأهله الطاهرة البريئة، السيدة عائشة الصديقة ابنة الصديق الأكبر - رضي الله عنهما، «وقد حاولوا بذلك أن يوجهوا ضربة للإسلام في الصميم، في شخص نبيه الكريم، عن طريق الطعن في عرضه، واتهام أهله بارتكابها فاحشة الزنا التي هي من أقبح الجرائم وأشنعها على الإطلاق، وكان الذي تولى كبر هذه التهمة النكراء، وأشاع ذلك الإفك المفترى المزعوم، رأس المنافقين عبدالله بن أبي بن سلول لعنه الله، الذي ما فتئ يكيّد للإسلام ولرسوله الكريم ﷺ حتى أهلكه الله تعالى، وخلص المسلمين من شره وبلائه.

(١) تفسير سورة النور، أبو الأعلى المودودي ص ١٠٠، ١٦٠ بتصرف.

وقد أنزل الله تبارك وتعالى في شأن هذا المنافق وغيره من المنافقين قرآناً يُتلى، وآيات تُسَطَّر . وهي تلك الآيات التي تناولناها بالشرح والبيان سابقاً ليكون ذلك درساً وعبرة للأمة، لتعرف فيه خطر النفاق والمنافقين، وضررهم على الأمة الإسلامية، فيأخذوا الحيطة والحذر، والقرآن الكريم يكشف لنا عن شناعة الجرم وبشاعته، وهو يتناول بيت النبوة الطاهر، وعرض رسول الله ﷺ أكرم إنسان على الله، وعرض صديقه الأول «أبي بكر» الصديق رضي الله عنه أكرم إنسان على رسول الله ﷺ، وعرض رجل من خيرة الصحابة «صفوان بن المعطل رضي الله عنه»، يشهد له رسول الله ﷺ بأنه لم يعرف عليه إلا خيراً.

لقد كلف هذا الحادث - حادث الإفك - أظهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق، وكلف الأمة الإسلامية كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وزرع في بعض النفوس الشك والريبة والقلق، وعلق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه السيدة عائشة . رضي الله عنها . التي يحبها رسول الله ﷺ، وقلب أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقلب صفوان بن المعطل رضي الله عنه شهراً كاملاً، وجعلها في حالة من الألم الذي لا يطاق، حتى نزل القرآن ببراءة زوج الرسول الطاهرة العفيفة الشريفة، وببراءة ذلك المؤمن المجاهد المناضل «صفوان» وإدانة أهل النفاق، وحزب الضلال، وعلى رأسهم «عبد الله بن أبي بن سلول» بالتآمر على بيت النبوة، وترويج الدعايات المغرضة ضد صاحب الرسالة ﷺ، واختلاق الإفك والبهتان ضد المحصنات الغافلات المؤمنات، في تلك الحادثة المفجعة المؤلمة.

ومن المؤسف أن يغتر بهذه التهمة النكراء بعض المسلمين، وأن يتناقلها السذج البسطاء منهم، وهم في غفلة عن مكائد المنافقين، ومؤامراتهم ومخططاتهم التي يستهدفون بها الإسلام، وأن تروج أمثال هذه الفرية المكذوبة، فيقع في حبال هذا الإفك والبهتان أناس مؤمنون مشهورون

بالتقى والصلاح، كأمثال «مسطح بن أثاثة» و«حسان بن ثابت» و«حمنة بنت جحش» أخت السيدة «زينب» زوج رسول الله ﷺ (١).

ألا فليفق المسلمون لما يحاك بهم، ولينتبهوا لما يكيد الأعداء لهم، وليستيقظوا من سباتهم العميق لكل ما يثار هنا وهناك وهناك ضد الإسلام، وضد رسوله، وضد القرآن الكريم، وضد السنة النبوية الشريفة، وضد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، وضد المؤمنين الصادقين والمؤمنات القانتات الغافلات، وليقفوا وقفة رجل واحد ضد كل هؤلاء، وليغضبوا لدينهم ولربهم ولرسولهم ولقرآنهم ولسنة نبيهم، ولا يعيروا أي اهتمام لأي شيء إلا للإسلام وأهله، ولا يخافوا إلا من الله، ولا يتكلموا إلا على الله، ولا يلجؤوا إلا لله وحده، ولا يستعينوا إلا بالله ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٢)، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ (٣)، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (٤)، ﴿وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (٥).

### ثانياً: خطر النفاق والمنافقين:

النفاق مرض خطير، له آثاره الخطيرة على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والأمة، وعلى كل المستويات، دينياً وسياسياً واجتماعياً واقتصادياً وعسكرياً وفكرياً.

وهو أشد فتكاً من أخطر الأمراض، وصاحبه من ألد أعداء الإسلام والمسلمين، وهو أخطر على الإسلام والمسلمين من أعتى الأعداء، وأشدّها ضراوة على الإسلام والمسلمين، لأن صاحبه يظهر الإسلام ويبطن الكفر

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي الصابوني (٨٥/٢، ٨٦) بتصرف.

(٢) محمد: آية ٧.

(٣) الطلاق: الآيتان ٢، ٣.

(٤) الطلاق: آية ٤.

(٥) الطلاق: آية ٣.



والحقد عليه، يظهر المحبة والمودة والسلام والأمان، ويبطن الحنق والضيفينة والبيغضاء.

والمنافق أظهر اعتناقه للإسلام ليخدع المسلمين، ثم إذا ما صدقوه وظنوا أنه منهم، مارس هدفه الحقيقي ألا وهو هدم الإسلام كما يظن، لأن الهدم من الداخل أنجع وأنفع وأفيد بالنسبة له من الهدم من الخارج، لأن الكل يأمن جانبه ويحسن الظن به، ظنا منهم أنه واحد منهم، لكنه في الحقيقة عدو ماكر، استطاع أن يتسلل إلى داخل الصف، لكنه حتماً سينكشف يوماً ما.

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفي على الناس تُعلم والنفاق لم يظهر في مكة لأن أسبابه لم تكن موجودة آنذاك، وتتمثل هذه الأسباب في القوة والمنعة، فلم يكن للمسلمين آنذاك قوة ولا منعة، بل كانوا مضطهدين ومحاربين من قبل معسكر الشر والكفر، ولما هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج، وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضي الله عنه، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضاً لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان ﷺ وادع اليهود، وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة، فلما كانت وقعة بدر العظمى، وأظهر الله كلمته، وأعز الإسلام وأهله، قال عبد الله بن أبي بن سلول . وكان رأساً في المدينة، وهو من الخزرج، وكان سيد الطائفتين في الجاهلية، وكانوا قد عزموا على أن يملكوهم عليهم، فجاءهم الخير، وأسلموا واشتغلوا عنه، فبقي في نفسه حقد وكره على الإسلام وأهله . هذا أمر قد توجه، فأظهر الدخول في الإسلام، ودخلت معه طوائف ممن هم على طريقتة ونحلته، وآخرون من أهل الكتاب، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب، فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحد يهاجر مكرهاً، بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله في

## الدار الآخرة<sup>(١)</sup>.

ومنذ ذلك الحين والمنافقون يقومون بمهمتهم التي دخلوا الإسلام ظاهرياً من أجلها على خير وجه، من كذب، وغش، وخداع، ولف ودوران، وقلب للحقائق وتلبيس على الناس خصوصاً العامة منهم والغوغاء، وتصوير للأشياء وللأمور على غير صورتها الحقيقية، وإفساد في الأرض، وتزيين للباطل وزخرفته، وتنميق للكلام، وتخریب وتدمير، وإشاعة الفاحشة في الذين آمنوا، ونشر المنكر، والأمر به، ونهي عن المعروف، وحرب أهله، وصد عن سبيل الله، وخداع للمؤمنين، واقتراء عليهم، والعمل على تمزيق صفوف المسلمين، وموالاتة أعداء الله، ومحاربة الله ورسوله، وغير ذلك من مفردات الشر التي دعوا إليها، وعملوا بها، وهذا كله ناشيء من نفاقهم الذي من أسبابه ظلمة الطبع، وظلمة الهوى، وظلمة الطمع، وظلمة حب الرياسة، وظلمة الشبهة وظلمة الشهوة، وظلمة الحقد والحسد والغواية، وظلمة النفوس الأمارة بالسوء.

ولعل من أفضح ما فعله المنافقون وأشنعه ضد الإسلام والمسلمين ما لفقهُ زعيمهم المجرم الملعون ابن أبي - ضد السيدة المصونة الصديقة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - من إفك مفترى، إذ ليس من المبالغة في شيء قول أحد الباحثين، إنَّ ما واجهه النبي ﷺ في حديث الإفك هو حدث الأحداث في تاريخه عليه الصلاة والسلام، فلم يمكر بالمسلمين مكر أشد من تلك الواقعة، بل كانت أخطر تحد واجهه المجتمع الإسلامي آنذاك!! وهي فرية وإشاعة مختلقة، ولولا عناية الله تعالى بالأمة الإسلامية لعصفت تلك الفرية بالأخضر واليابس، ولقضت على كل نفس مستقرة مطمئنة، ولقد مكث مجتمع المدينة بأكمله ما يزيد على شهر كامل وهو يصطلي بنار تلك

(١) تفسير القرآن العظيم (٤٧/١).

الفرية، ويتعذب ضميره، وتعصره الإشاعة الهوجاء<sup>(١)</sup>.

إن حادثة الإفك التي لفقها هذا المنافق الأفاك الأثيم ولدت معركة ضخمة في المجتمع الإسلامي لعلها أضخم المعارك التي خاضها رسول الله ﷺ وخرج منها منتصرا كاظما لآلامه الكبار، محتفظاً بوقار نفسه، وعظمة قلبه، وجميل صبره، فلم تؤثر عنه كلمة واحدة تدل على نفاذ صبره، وضعف احتماله، والآلام التي تناوشه لعلها أعظم الآلام التي مرت به في حياته.. والخطر على الإسلام من تلك الفرية من أشد الأخطار التي تعرض لها في تاريخه<sup>(٢)</sup>.

حتى تدخل الوحي الإلهي ليضع حداً لتلك المأساة الفظيعة، وليكون درساً تربوياً رائعاً لذلك المجتمع، ولكل مجتمع مسلم إلى قيام الساعة<sup>(٣)</sup>.. قال الله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾<sup>(٤)</sup>.

وليفضح المنافقين الذين يلجؤون دائماً إلى مثل ما لجأ إليه أبوهم الروحي، وزعيمهم المجرم الأفاك الوقح ابن أبي بن سلول اللعين لعنه الله في كل وقت وحين، وليبين الله عز وجل أنه ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾<sup>(٥)</sup>.

### ثالثاً: عظم منزلة المرأة في الإسلام:

كانت المرأة قبل الإسلام بحالة يرثى لها على كل المستويات، وفي أكثر بقاع الأرض، عند العرب والعجم، بل والأمم جميعاً، ففي بعض البلاد كانت توصف بالشر والشيطنة والجرثومة، وبالتالي كانت مهانة حقيرة، لا كرامة لها، ولا عز ولا رفعة ولا شرف ولا اعتبار لها في أي مجال من

(١) سورة النور دراسة وتحليل ص ٢٧٥، والإشاعة للدكتور أحمد نوفل ص ١٢٨ بتصريف.

(٢) في ظلال القرآن (٢٥٠١/٤).

(٣) المرجع السابق.

(٤) النور: آية ١١.

(٥) الأنفال: آية ٣٠.

مجالات الحياة، وفي بلاد أخرى كانت المرأة ليست إلا سلعة تباع وتشتري، وفي بعض المجتمعات كانت المرأة معدومة الأهلية، بل ناقصة القدر في تحصيل أي حق من حقوقها العامة وناقصتها، ووصل الحال بها إلى أنها لا تترث، ولا تملك، بل كانت تورث بذاتها بنفسها تورث حتى في عواطفها ومشاعرها ورغباتها.

وفي بعض المجتمعات كانت النظرة للمرأة على أنها مجلبة للخزي والعار، وكانوا يعيرون بعضهم بالبنات، وكان: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وفي مجتمعات أخرى انتشرت فكرة شيوعية المرأة، حتى كانوا يجعلونها في مقام الحيوان، وربما أقل من ذلك، فلا حرام ولا حلال، ولا مسموح ولا ممنوع في شأن الصلة بالمرأة، فالبنات والمحارم حلال الوقوع بها. ولذلك كان الابن يتزوج امرأة أبيه في بعض المجتمعات، وآخرون كانوا يجمعون بين الأختين، وما إلى ذلك من مفاسد معروفة في هذا الإطار.

فأي مصيبة كانت تعيشها المرأة قبل مبعث سيدنا محمد ﷺ، وأي شقاء كانت تعانيه المرأة قبل الإسلام، وأي مهانة وتعاسة كانت تعيشها المرأة، لقد وصل بها الحال من الاحتقار والازدراء إلى أن قال عنها أحد الفلاسفة: إن وجود المرأة هو أكبر منشأ ومصدر للأزمة، والانهيال للعالم، إن المرأة تشبه شجرة مسمومة، ظاهرها جميل، ولكن عندما تأكل منها العصافير تموت حالاً<sup>(٢)</sup>.

(١) النحل: الآيتان ٥٨، ٥٩.

(٢) حديث الإفك دروس وعبر. دكتور عامر حسين السَّلَامِي ص ١٥٢ . ١٦٠ بتصرف.

لكن الإسلام لما جاء أعطى للمرأة حقوقها، قال تعالى: ﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (١). فأثبت لها الميراث: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ (٢).

وجعلها كيانا له وعليه في إطار الالتزام العام فلها الأجر والثواب على عملها ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمَلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ (٣).

وأمر الشرع بمعاملتها المعاملة الحسنة اللائقة بها كإنسانة أولاً معززة مكرمة، وهي ثانياً أم وأخت وزوجة وابنة، وحرّم إيذاءها وعضلها والاعتداء على حقوقها، حتى تحول الأمر إلى صورة عملية واقعية، حتى أخذت المرأة حقها الذي فرضه الله عز وجل لها، ومكانتها التي ارتضاها الله سبحانه تعالى لها في محكم كتابه الكريم، ومن خلال سنة الرسول العظيم ﷺ.

قدمنا هذه المقدمة عن حال المرأة قبل الإسلام وبعده لأن حادث الإفك ومداره بكل تفصيلاته إنما هو قائم على أمر امرأة افتري عليها، ولفقت عليها هذه الحكاية، فكان هذا الاهتمام الكبير من المجتمع كله، ثم توج هذا الاهتمام بتبرئة الله عز وجل لها، وبيان منزلتها العظيمة عند الله عز وجل في آيات تتلى، ويتعبد بها إلى قيام الساعة، وهذا بجد ذاته يمثل حالة من حالات التقدير للمرأة، والاهتمام بشأنها، وأبرز ما يدل على هذا الاهتمام من خلال هذه الحادثة تلك المعاني الرقيقة التي كانت تعامل بها السيدة عائشة - رضي الله عنها، وهي محل التهمة والفرية والأكذوبة. طيلة تلك المدة، سواء من زوجها رسول الله ﷺ، أو من قبل أهلها رضي

(١) البقرة: آية ٢٢٨.

(٢) النساء: آية ٧.

(٣) آل عمران: آية ١٩٥.

الله عنهم جميعاً، والأمر كان في غاية العسر والشدة والخطورة، إلا أنهم لم يقولوا بأنها أولاً وأخراً امرأة لا تقدم ولا تؤخر، بل كانوا يعاملونها بما يتناسب مع مبادئ الإسلام في النظر إليها.

فهذا زوجها رسول الله ﷺ وقائد المجتمع الإسلامي، يقف تجاهها - رضي الله عنها - وهي المظلومة المقهورة ولا يدري. موقف التآني والتهمل والرحمة، فما أسمعها كلمة نابية، أو عبارة قاسية، أو تصرف معها تصرفاً يدل على تصغير أو تحقير أو تعنيف. رغم صعوبة الموقف وخطورته. وحاشاه ﷺ أن يفعل ذلك، وهو القائد والقُدوة، بل قال بكل ثقة وطمأنينة: « ما علمت على أهلي إلا خيراً»<sup>(١)</sup> وما زاد في إطار مواجهة الأمر معها إلا أن قال لها: « أما بعد.. يا عائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت أئمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب تاب الله عليه»<sup>(٢)</sup>.

وهذه الكلمات الهادئة الموزونة التي تعطينا صيغة من صيغ التعامل في منهجية مسألة من مسائل الشريعة، والتربية الإسلامية، لها أصولها وقواعدها وأسسها التي كانت لها وقعها على كل الكتابات التي كانت في هذا الموضوع، لينسحب على الواقع الملموس، فتتحقق الثائية المطلوبة، وهذا هو الذي كان. إنه رسول الله ﷺ، الرحمة المهداة، والقائد القدوة، والمربي الأسوة.

وهذان أبواها يقفان ذلك الموقف الرهيب، في ضبط النفس، وربطها بما يليق بها من خلق المسلم، وتربية المسلم، وسلوك المسلم، رغم أنهم خرجوا لتوهم من بيئة جاهلية - كانت تنظر للمرأة نظرة معينة - ذكرنا طرفاً منها قبل قليل، إلا أن المسلم عندما ينسلخ من جاهليته ينسلخ

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

منها بالكلية، ويقلع عنها بجملتها وتفاصيلها، ولا يبقى لعلائقها أي أثر، في فكره، أو سلوكه، أو خلقه، أو تعامله، أو مواقفه، أو أي شيء يخرج من طور الإباحة إلى حكم الشرع الضابط لا يسعهما إلا أن يقولاً للسيدة عائشة - رضي الله عنها - حينما طلبت منهما أن يردا على رسول الله ﷺ لما قال لها الرسول ﷺ: «إن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه...» إلخ.

والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ (أي: إن الأمر الذي سألتها عنه، لا يقفان منه على زائد، على ما عند رسول الله ﷺ قبل نزول الوحي، من حسن الظن بها، والسرائر إلى الله تعالى) (١).

هذا هو رد أبويها عليها، لم يثورا عليها، ولم يقررا قتلها كما إيحاء البيئة، ولا ضربها، ولا نبذها، ولا التكيل بها وغسل عارهم، لكنهم جعلوا أنفسهم في أمرها كنفسهم سواء بسواء، رغم مرارة الموقف وخطورته، وحراجة الواقعة أمام الناس، الذين يعتبرون مثل هذا الأمر من أشد وأصعب الأمور التي تواجه الإنسان في الحياة (النار ولا العار)، ورغم هذا بقي الأمر متوازناً عندهم في شأنها، وكأنهم يقولون: سَنَنْبُتُ على منهج الله، وشرع الله، ودين الله، وليكن بعد ذلك ما يكون، حتى لو أمطرت علينا سماء الجاهلية نيران حمم الأرض جميعاً، لأن من التزم طاعة الله، فإن الله تعالى لن يضيعه، بل سيكون النصر والفوز حليفه في نهاية المطاف، طال الأمر أم قصر، وإنها سنة الله تعالى التي لا تتخلف.

هذا هو محيط السيدة عائشة - رضي الله عنها - البريئة الطاهرة حال وقوع الحادثة سواء مع زوجها ﷺ وهو قائد الأمة، أم مع والديها - رضوان الله عليهما -

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص ١٦٢٨.

إذن إن توجهاً جديداً يسرى في جسم هذه الأمة، وإن روحاً جديدة تغييرية تتشرب أرواح ونفوس المعسكر الوليد، وإن أمة تخرج لتكون خير أمة أخرجت للناس، ضمن منظومة كبيرة على كل المستويات.. ومنها شأن المرأة، ومكانة المرأة<sup>(١)</sup>.

وبعد أن انتهينا من هذه العجالة حول الحديث عن خطر النفاق والمنافقين، ومنزلة المرأة في الإسلام، نعود إلى بيان:

### المفاهيم التروية والأسرية المستفادة من حادثة الإفك

#### المفهوم الأول: المحن والابتلاءات سنة الله في الحياة، وفيها الصلاح في الدنيا والأجر في الآخرة:

المحنة والابتلاء سنة الله عز وجل في هذه الحياة لكشف حقيقة الإيمان، والالتزام بأمر الله عز وجل: ﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾<sup>(٢)</sup>، وفي المحن والابتلاءات صلاح الدنيا لأنها تجعل المؤمن يتعلم من أخطائه، ويستتفر ذكاءه وطاقاته لإيجاد الحلول. هذا عدا عن الأجر في الآخرة. وفي ذلك تدريب للمؤمن على رؤية جانب الخير في كل ما يعرض له مما يمنحه تماسكاً وصلابة أمام أحداث الحياة.

وعلى هذا فإن البلاء لا يكون في كل الحالات عقوبة، والنعم لا تكون دليلاً على رضا الله ﴿ وَبَلَّوْهُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾<sup>(٣)</sup>. ومن الضروري التمييز بين أنواع المصائب.. حتى ندرك ما كان منها ناتجاً عن ذنب فردي أو ذنب جماعي.. أو قدر إلهي للتمحيص. كي يمارس المؤمن التوبة والتصحيح<sup>(٤)</sup>.

(١) حديث الإفك ص ١٦٢، ١٦٣.

(٢) العنكبوت: آية ٢.

(٣) الأنبياء: آية ٣٥.

(٤) من هدي سورة النور. حنان لحام ص ٥٨، ٥٩ بتصريف.



## المفهوم الثاني: لا يطمئن المؤمن لمكانته مهما كانت درجته:

على المؤمن أن لا يطمئن لمكانته، فمهما علا مقام الإنسان فإنه معرض للتهم.. بل إنه معرض لها أكثر، وليتخذ من حادث الإفك عبرة وعظة، فهذا رسول الله ﷺ وهو من هو رفعة وشأناً ومنزلة عند الله عز وجل وعند الناس، يتهم في زوجه الصديقة ابنة الصديق، ابنة الإسلام والطهر والنقاء والعفاف والغفلة والطهارة المحصنة التي لا يتصور الإنسان المؤمن الحصيف العاقل أنه قد يدور بخلدها ولو لأقل جزء من الزمن أي فكرة عن الخيانة، أو الوقوع في المعصية، لمنزلتها العظيمة في الإسلام، ولنقاء معدنها، وصفاء قلبها ونفسها، ورغم كل ذلك فقد اتهمت في أعز ما تملكه المرأة، إلا أنها صبرت واحتسبت، فبرأها الله عز وجل في آيات تتلى إلى يوم الدين، يتعبد المسلمون بتلاوتها شاءوا أم أبوا، صدقوا أم كذبوا، رغمًا عن أنف المكذبين، وعلى المؤمنين الذين يتعرضون للابتلاءات والشدائد والمحن بسبب التزامهم بدينهم أن يكون لهم في رسول الله ﷺ وفي أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - وفي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم جميعاً الأسوة الحسنة. فإن أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأقرب فالأقرب.

## المفهوم الثالث: الحكمة من تأخر الوحي في تجلية الحقيقة، وتبرئة السيدة عائشة رضي الله عنها:

لما اختلق المنافقون حادث الإفك حبس الله عز وجل الوحي عن رسول الله ﷺ في شأنه شهراً لا يوحى إليه في ذلك بشيء لعدة أمور من أهمها ما يلي:

١- ابتلاء الرسول ﷺ وزوجه والصديق وزوجه، وكذلك ابتلاء جميع الأمة المسلمة.

٢- حتى تظهر الأمور على حقيقتها، ويظهر المؤمن من المنافق. ولتتم

حكمة الله التي قدرها وقضاها، وتظهر على أكمل الوجوه، بعد عرك ومعاناة، وواقعية تمثلت في كل الإشكاليات والملابسات التي رافقت الحادث.

٣- ترسيخ حسن الظن بالله، ورسوله، وأهل بيته، والصديقين من عباده.

٤- فضح المنافقين بإظهار سرائرهم وما يكونونه للإسلام ولنبي الإسلام وللأمة الإسلامية كلها.

٥- لتتم العبودية المرادة من الصديقة وأبويها، ولتتم نعمة الله عز وجل عليهم، ولتشتد الفاقة والرغبة منها ومن أبويها.

٦- لإشعارهم خيراً لهم بالافتقار إلى الله عز وجل والذل له، وحسن الظن به جل وعلا، والاتجاه في الرجاء له، وانقطاع الرجاء من المخلوقين، واليأس من حصول النصر والفرج على يد أي أحد من الخلق، ولهذا فإن السيدة عائشة - رضي الله عنها - قد وفّت هذا المقام حقه، لما قال لها أبواها: قومي إليه - أي إلى رسول الله ﷺ - وقد أنزل الله عز وجل براءتها عليه، فقالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله، هو الذي أنزل براءتي.

٧- إظهار الله تبارك وتعالى منزلة ومقام رسوله ﷺ وأهل بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يخرج رسوله ﷺ عن هذه القضية، ويتولى هو بنفسه الدفاع والمنافحة عنه، والرد على أعدائه، وضمهم وعييبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا ينسب إليه، بل يكون هو وحده سبحانه وتعالى المتولي لذلك، الثائر لرسول الله ﷺ وأهل بيته (١).

(١) زاد المعاد لابن القيم (٣/٢٦١، ٢٦٢)، وحديث الإفك، ص ٢٥٥، ٢٥٦ كلاهما بتصريف.

## المفهوم الرابع: المحنة إن علمتك شيئاً جديداً أصبحت نعمة:

سيق قوله سبحانه تعالى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾<sup>(١)</sup> لإزالة ما حصل في نفوس المؤمنين من الأسف من اجترأ عصابة على هذا البهتان الذي اشتملت عليه القصة، فضمير «تحسبوه» عائد إلى الإفك، والشر المحسوب أنه أحدث في نفر معصية الكذب والقذف، والمؤمنون يودون أن تكون جماعتهم خالصة من النقائص «فإنهم أهل المدينة الفاضلة» فلما حدث فيهم هذا الاضطراب حسبوه شراً نزل بهم.

ومعنى نفي أن يكون ذلك شراً لهم لأنه يضيرهم بأكثر من ذلك الأسف الزائل وهو دون الشر، لأنه آيل إلى توبة المؤمنين منهم، فيتمحض إثمهم للمناققين، وهم جماعة أخرى لا يضر ضلالهم المسلمين<sup>(٢)</sup>.

وفي القول الكريم السابق تنبيه من الله عز وجل للسيدة عائشة - رضي الله عنها - ومن ماثلها ممن ناله همٌّ من حديث الإفك أنه ما أصابهم منه شر بل هو خير على ما وضع الله عز وجل الشر والخير عليه في هذه الدنيا من المقابلة بين الضر والنفع، ورجحان النفع من جانب الخير، ورجحان الضر في جانب الشر.

وفي هذا تخفيف عن هؤلاء الذين نالهم أذى من حادث الإفك، وتنبية لهم كي يتدبروا نواحي الخير في هذه الحادثة، إنه التربية القرآنية الفذة التي تعيد السكينة إلى نفس المؤمن أمام الأحداث.. وتحرك عقله كي يتملى، ويحيط بالأمر من جميع جوانبه، فيتعلم ويستفيد ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وأمر المؤمن كله له خير في السراء والضراء. فالمحنة

(١) حقيقة الخير ما زاد نفعه على ضره، وحقيقة الشر ما زاد ضره على نفعه، وأن خيراً لا شر فيه هو الجنة، وشرراً لا خير فيه هو جهنم.

(٢) التحرير والتوير (١٨/١٧١، ١٧٢).

إن علمتك شيئاً جديداً.. أصبحت نعمة.. والهزيمة إن كشفت أسبابها أصبحت نصراً، وكما يقولون: المحنة إن لم تقض عليك زادتك قوة.

فهل استطاعت أي عقيدة أخرى أو أية مبادئ أو مناهج.. أن تنشئ مثل هذه الشخصية المتوازنة المتماسكة أمام صدمات الحياة.. كما أنشأ القرآن هذه النفوس المؤمنة؟!

### **لقد أراد المنافقون بهذه الفرية:**

- ١- الطعن في عرض النبي ﷺ وأبي بكر.
- ٢- الحط من المكانة الخلقية للحركة الإسلامية.
- ٣- إشعال نار الفتنة في المجتمع الإسلامي.

### **فنزلت الآيات:**

- ١- براءة السيدة عائشة رضي الله عنها.
- ٢- وكشفت المنافقين وخططهم.
- ٣- ورسمت الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذه الأمور.
- ٤- ونزلت أوامر وتوجيهات جديدة من شأنها أن تحمي المجتمع من الفاحشة.
- ٥- وعلمتهم الآيات أن المشكلة في أخطاء المسلمين وليست في كيد عدوهم، وأنهم حين يقومون بسد الثغرات في أخلاقهم وأعمالهم.. فإن كيد عدوهم لا يضرهم بشيء، بل قد يزيد من خبراتهم وإدراكهم الواعي للأمور.

وبذلك تتبين لنا بعض مظاهر الخير في هذه الفتنة.. وجاءت أحكام سورة النور بمزيد من الطهارة الأخلاقية والتماسك الاجتماعي للأمة المسلمة<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الخامس: عسى أن يكره الإنسان شيئاً وفيه الخير الكثير:

بعد أن أزال الله عز وجل خاطر أن تكون حادثة الإفك شراً للمؤمنين أثبت أنها خير لهم، فأتى بالإضراب « بل هو خير لهم » لإبطال أن يحسبوه شراً، وإثبات أنه خير لهم، لأن فيه منافع كثيرة<sup>(٢)</sup>، من أهمها ما يلي:

١- إن الحادثة كانت سبباً مباشراً لإنزال الله تبارك وتعالى آيات بينات في مواجهة هذا الأمر العظيم، وجعل فيها عبرة وبيانا لكل حدث يشابهه إلى يوم القيامة<sup>(٣)</sup>.

٢- كشفت الحادثة عن الكائدين للإسلام في شخص رسول الله ﷺ وأهل بيته<sup>(٤)</sup>.

٣- كشفت عن صنف من المسلمين كانوا يشكلون ثغرة في الصف المسلم، وهم لا يشعرون، ليتسنى لهم الرجوع إلى الصواب، والمبادرة إلى التوبة وسد الخلل<sup>(٥)</sup>.

٤- ميزت الحادثة بين المؤمنين الخالص والمنافقين الذين يحبون نشر الفاحشة والدعايات المفرضة بين المؤمنين.

٥- كانت الحادثة سبباً في بيان حكم القذف، وأنه حرام، وبالتالي فإن الله عز وجل قد وضع العقوبة الشديدة الرادعة لمن يقذف غيره

(١) من هدى سورة النور. حنان لحام ص ٤٧، ٤٨.

(٢) التحرير والتوير (١٧٢/١٨) بتصرف.

(٣) سورة النور دراسة وتحليل للدكتور إسماعيل إبراهيم السامرائي ص ٢١٨، ٢١٩.

(٤) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٠).

(٥) سورة النور دراسة وتحليل السابق.

بالزنا والعياذ بالله، وذلك بإقامة حد القذف عليهم، حتى يقفوا عند حدودهم، ولا يتمادوا في إلقاء التهم جزافاً على الأبرياء. مما يدل دلالة قاطعة على مدى الأخطار التي تحيق بالأمة المسلمة عندما يترك العنان للألسنة في قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، دون زاجر أو رادع، لأنه لو ترك الأمر هكذا يقول الناس ما يقولونه في حق بعضهم البعض، ويقذف هذا ذلك من برآء الناس، لأدى ذلك إلى مضي الألسنة صعوداً إلى الطعن في أشرف المقامات، وأعلى الهامات، فتعدم الأمة كل وقاية، وكل تحرج، وكل حياء، لذلك فقد حرم الله عز وجل القذف ووضع الحد الرادع الذي أمر بتطبيقه على مُرتكبيه، لتأديبهم وزجر غيرهم عن الاقتراب منه، ناهيك عن ارتكابه.

٦- كانت الحادثة سبباً لتعظيم شأن النبي ﷺ، وتعظيم شأن السيدة عائشة - رضي الله عنها - وتزويها لها، وترفعاً من الله عز وجل من أمرها، حيث إن الله عز وجل أنزل براءتها من فوق سبع سماوات، وأكسبها لسان صدق يتلى بشأنها إلى يوم القيامة، بل إن تلك الآيات القرآنية التي تحمل بين طياتها براءة البريئة الطاهرة العفيفة الصديقة ابنة الصديق أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - قرآناً يتلى ويتعبد به إلى يوم القيامة، وهذا غاية الشرف والفضل لها.

٧- ورغم أن حادثة الإفك كانت بلاءً فظيماً، ومحنةً جلية واضحة، إلا أنها كانت خيراً للمؤمنين عامة والسيدة عائشة - رضي الله عنها - ولرسول الله ﷺ وأسرة الصديق - رضي الله عنهم - ولذلك فإن الله عز وجل عوض الرسول ﷺ والسيدة عائشة وأسرة الصديق - رضي الله عنهم جميعاً عن آلامهم وصبرهم على هذا الحدث كما عوض المؤمنين الذين ظنوا بالسيدة عائشة - رضي الله عنها - وصفوان رضي الله عنه خيراً، واستبعدوا وقوع الإفك الثواب العظيم، والأجر الجزيل في الدنيا

والآخرة. وفي المقابل فإنه سبحانه وتعالى أعد لكل واحد من الأفاكين الذين جاءوا بالإفك العقاب الشديد، والخزي والعار في الدنيا والآخرة، جراء ما اكتسب من الإثم، بقدر ذنبه، وذلك لأن بعضهم تكلم صراحة، وبعضهم عَرَّضَ، وآخرين ضحكوا، وآخرين سمعوا ولم ينكروا<sup>(١)</sup>.

أما الذي تولى كبره أي: معظم الإفك وبدأه مع العصابة فإن الله عز وجل قد خصه وحده بعذاب عظيم في الدنيا أو الآخرة أو فيهما، جزاء ما افتري واختلق واتهم أم المؤمنين بهذا الاتهام الشنيع. ولتهويل الخطب، ولبيان عظم عذاب هذا المجرم المفتري، فقد عبر الله عز وجل عنه بتعبير خصه به، (حيث عبر عنه باسم الموصول، وكرر إسناده إليه، ونكر العذاب الذي سيلحقه، ثم وصفه بأنه عظيم، فقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup> وبالفعل فقد نال ابن أبي لعنه الله عقوبة الدنيا، وذلك بافتضاح أمره، وإعلان نفاقه على رؤوس الأشهاد، مما أدى إلى إذلاله بين أفراد المجتمع حتى صار منبوذاً محتقراً من الناس<sup>(٣)</sup>، لأن الله سبحانه تعالى أهانه بسبب فعلته الخسيصة: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾<sup>(٤)</sup>.

أما في الآخرة فإنه سيكون ﴿فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾<sup>(٥)</sup> ولن يكون له ولا لأمثاله نصيراً، وهذا فيه إنباء بأنه يموت على الكفر.

(١) البحر المحیط (٤٠١/٦) والمراغي (٨٢/١٨) بتصريف وتفسير الجمل على الجلالين (٢١٠/٣٠).

(٢) النور: ١١.

(٣) روح المعاني (١١٥/١٨) بتصريف.

(٤) الحج: ١٨.

(٥) النساء: ١٤٥.

## المفهوم السادس: إن أساس الروابط الاجتماعية في المجتمع: الظن الحسن بين الناس

المؤمن يظن خيراً فيما يسمعه عن إخوانه المؤمنين: كما يرشد إليه قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١)، ففي هذا القول الكريم تأديب من الله تعالى للمؤمنين والمؤمنات حين أفاض بعضهم في الإفك، فقد بين لهم سبحانه وتعالى أنه كان من الواجب على المسلمين والمسلمات حينما سمعوا حديث الإفك أن يقيس كل واحد منهم المسألة على نفسه، فهل يرضي أي واحد منهم أو منهن أن يحدث منه ذلك؟ أو يقع في هذا الأمر الشنيع؟ أو هل يليق بأحد من المسلمين والمسلمات أن يقع في الإفك؟ بالطبع لا .

فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان من المستحيل أن يقع من أحد من المسلمين أو المسلمات مثل هذا الأمر، فمن باب أولى أن يقع من السيدة عائشة - رضي الله عنها - أم المؤمنين، وزوج رسول رب العالمين.

وبالتالي فإنه كان يجب على المسلمين والمسلمات أن يستبعدوا وقوع هذا الأمر من أم المؤمنين السيدة عائشة، ومن صفوان الصحابي الجليل - رضي الله عنهما وأرضاهما .

أو كان من الواجب على المؤمنين والمؤمنات حين سمعوا الإفك ظنوا خيراً بأفراد ملتهم ومجتمعهم.

فالأصل في كل مسلم أن يكون عفيفاً ما لم يقم الدليل على جرمه . ولا خير في مجتمع ضاعت الثقة فيه بين أفرادها .

لكن ليس معنى أن يحسن المؤمن الظن بالناس أن يكون ساذجاً مغفلاً .

(١) النور: ١٢ .



بل يحذر، ويتخذ الأسباب اللازمة رغم ظنه الحسن، كما قال سيدنا عمر رضي الله عنه لست بالخب<sup>(١)</sup>، وليس الخب يخدعني).

وفي قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الخ.

التفات من الخطاب إلى الغيبة، لأن الأصل أن يقال: ظننتم، وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ، وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظن الخير بالمؤمنين، وكما هو معلوم فإن أسلوب الالتفات ضرب من الاهتمام بالخير<sup>(٢)</sup>.

**هذا وقد سجلت بعض المصادر ظن المؤمنين والمؤمنات بأنفسهم خيراً من بعض الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، الذين لم تنطل عليهم تلك القرية، ومن هؤلاء:**

١- سيدنا أبو أيوب الأنصاري الذي قال لزوجته - رضي الله عنهما: «ألا ترين ما يقال عن عائشة؟ قالت: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله سوءاً؟ قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ما خنت رسول الله ﷺ، فعائشة خير مني وصفوان خير منك»<sup>(٣)</sup>.

٢- وأما سيدنا أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - فحينما دعاه رسول الله ﷺ ليسأله عن السيدة عائشة - رضي الله عنها أشار عليه بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، «فقال: يا رسول الله أهلك» - أي: الزم أهلك يا رسول الله - وما نعلم إلا خيراً»<sup>(٤)</sup>.

٣- وأما السيدة زينب بنت جحش - رضي الله عنها - فقد قالت السيدة عائشة - رضي الله عنها: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش عن أمري، فقال: يا زينب، ماذا علمت أو رأيت؟ فقالت: يا رسول

(١) الخب بالفتح: الخداع. وهو الجربز الذي يسعى بين الناس بالفساد. النهاية في غريب الحديث ص ٢٥٠.

(٢) التحرير والتوير (١٧٤/١٨).

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (٢٠٢/٢)، فتح الباري (٨٥/١٠)، الكشاف (٥٣/٣)، الدر المنثور (١٥٦/٦).

(٤) صحيح البخاري سبق تخريجه.

الله، أَحْمَى سمعي وبصري ما علمت إلا خيراً، قالت: وهي التي كانت تساميني من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع» (١).

٤- الجارية بريرة حين دعاها الرسول ﷺ ليسألها فقال لها: «أي بريرة هل رأيت من شيء يريبك، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً أغمصه» (٢) عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداخن (٣) فتأكله» (٤).

### المفهوم السابع: ينبغي لمن ابتلي بتهمة في عرضه أن يتحلى بالثبات والتأني في معالجة ما أصيب به:

لسائل أن يسأل في هذا المقام فيقول:

إن الأمر إذا كان هكذا، فلماذا لم يكذبه الرسول ﷺ؟ ولماذا لم يكذبه أبو بكر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟ ولماذا لم تكذبه زوجته - رضي الله عنها - في أول وهلة من سماعهم له؟ ولماذا اهتما له الاهتمام المروي عنهم في كتب الحديث والسيرة؟ وللإجابة عن ذلك يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي عليه سحائب الرحمة:

إنه ليست منزلة الزوج في أمر زوجته ولا منزلة الوالد ولا منزلة الوالدة في أمر بنتيهما مثل منزلة غيرهم من الناس.

لا شك أن الزوج هو أعلم الناس بأحوال زوجته وأخلاقها، ولا يمكن أن يظن زوج صحيح العقل سوءاً بزوجه المؤمنة الصالحة لمجرد أقاويل الناس فيها، واتهامهم لها، ولكن الزوج على رغم هذا إذا اتهمت زوجته فعلاً، يكون في مأزق شديد، لأنه إذا كذب بهتان الناس، ما أمسكوا

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، الحديث (٤٧٥٠).

(٢) أغمصه: بالنين المعجمة والصاد المهملة بينهما ميم مكسورة، أي: أعيبه.

(٣) الداخن: وهي الدابة التي تألف البيوت، ولا تخرج للمرعى، وهي هنا الشاة.

(٤) صحيح البخاري سبق تخريجه.

ألسنتهم، بل لا بد أن يقولوا- فوق ذلك:- إن الزوجة قد سحرت عقل زوجها، وسترته بغطاء من السفه والبله، فتفعل ما تشاء، ومع ذلك يظنها زوجها عفيفة لم تدنس ذيلها بالفاحشة، وفي مثل هذا المأزق الشديد يكون الوالدان، فمع أنهما يكونان على يقين تام من عفاف ابنتهما، ولكنهما إذا قالا شيئاً رداً لما يوجه إليهما من الأقاويل الكاذبة، والاتهامات الملفةقة، ما جاء بشيء يبرئها، فإنه لا بد أن يقول القائلون:

هل يرجى من الوالدين شيء غير الدفاع عن ابنتهما؟

فهذا ما كان يلذع رسول الله ﷺ وأبا بكر الصديق وزوجه أم رومان رضوان الله عليهما، ويمنعهم جميعاً أن يكذبوا بكلام المفتريين علناً، وإلا فما كان يساورهم أدنى شك في عفاف السيدة عائشة - رضي الله عنها - وبراءتها مما ترمى به<sup>(١)</sup>، بل إن الرسول ﷺ قال يوماً وهو يخطب الناس في المسجد: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت عليهم إلا خيراً، ويقولون ذلك لرجل، والله ما علمت عليه إلا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلا وهو معي»، كما تقدم في رواية السيدة عائشة - رضي الله عنها وأرضاها. فهذا دليل على أن الرسول ﷺ كان عنده من القرائن التي تشهد ببراءة الصديقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لكمال صبره وثباته، ورفقه وحسن ظنه بربه، وثقته به، وفي مقام الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقه، حتى جاء الوحي بما أقرَّ عينه، وسر قلبه، وعظم قدره، وظهر لأمة احتفال بربه به، واعتناؤه بشأنه<sup>(٢)</sup>.

(١) المرجع السابق ص ١٣٠، ١٣١.

(٢) زاد المعاد لابن القيم (٢/٢٦٣).

## المفهوم الثامن: العرب أهل كرم ونجدة في الجاهلية والإسلام

إن ما فعله صفوان بن معطل رضي الله عنه وهو نجدة السيدة عائشة - رضي الله عنها - حين انقطع بها السبيل، وتوصيلها لرسول الله صلى الله عليه وسلم معززة مكرمة مصونة محفوظة من كل سوء، ليس بالشيء الغريب على المجتمع العربي قبل الإسلام وبعده، فإن قيام الرجال بنجدة النساء اللاتي انقطع بهن السبيل كان أمراً مألوفاً عند العرب في الجاهلية والإسلام، والحوادث من هذا القبيل كثيرة، نسوق هنا حادثة واحدة من هذا القبيل للاستدلال على ما قلناه.

لما خرج أبو سلمة بن عبد الأسد رضي الله عنه <sup>(١)</sup> مهاجراً من مكة مصطحباً معه زوجته وابنه، فلما رآته رجال من بني المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم عشيرة زوجته، وابنة عمه أم سلمة، قاموا إليه فقالوا: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، أرايت صاحبك هذه؟ علام نتركك تسير بها في البلاد؟ فانتزعوها منه، فغضب عند ذلك بنو عبد الأسد. رهط أبي سلمة. فقالوا: والله لا نترك ابنا عندها إن نزعتوها من صاحبنا، فتجاذبوا «سلمة» فيما بينهما حتى خلعت يده، وانطلق به بنو عبد الأسد، وأما أم سلمة فقد حبسها بنو المغيرة عندهم، وفرقوا بينها وبين زوجها وولدها، ومع كل هذا انطلق أبو سلمة إلى الله مهاجراً، ولم يلو على أهل ولا ولد، أما أم سلمة - رضي الله عنها - فكانت تخرج كل غداة فتجلس على الأبطح، فما تزال تبكي حتى تمسي: واستمرت على ذلك سنة أو قريباً منها، حتى مر بها رجل من بني عمها، أحد بني المغيرة، فرأى ما بها، فقال لبني المغيرة: ألا تخرجون هذه المسكينة، ففرقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها! فقالوا

(١) كان أول من هاجر من مكة إلى المدينة من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة، وكان قد عاد من الحبشة إلى مكة، فأذاه أهلها، فلما بلغه إسلام من الأنصار، وإذن الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه بالهجرة للمدينة توجه إليها مهاجراً.

لها: الحقي بزوجك إن شئت. وحينئذ رد بنو عبد الأسد إليها ابنتها سلمة. وعند ذلك خرجت مهاجرة، وسنتركها تحكي لنا هجرتها فتقول: «ارتحلت بعييري ثم أخذت ابني فوضعتة في حجري، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم<sup>(١)</sup> لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة<sup>(٢)</sup>، أخا بني عبد الدار، فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ فقلت: لا والله إلا الله وابني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببيعيري، فحط عنه، ثم قيده في الشجرة، ثم تَحَيَّ عني إلى شجرة، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعييري أتى فأخذ بخطامه، فقاده حتى ينزل بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عوف بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة زوجها بها نازلاً - فادخلها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً إلى مكة<sup>(٣)</sup>.

ولنا هنا وقفة عند قصة عثمان هذا الذي كان يومئذ كافراً: لأنه لم يسلم إلا أوائل عام الفتح، وهي تشهد لنفاسة معدن العرب، وفضائلهم في الجاهلية ولا سيما خلق المروءة والنجدة، وحماية الضعيف، فقد أبت عليه مروءته، وخلقه العربي الأصيل أن يدع امرأة شريفة تسير وحدها في هذه الصحراء الموحشة، وإن كانت على غير دينه، وهو يعلم أنها بهجرتها تراغمه وأمثاله من كفار قريش!!

(١) موضع على فرسخين من مكة.

(٢) أسلم عثمان بن طلحة بعد الحديبية.

(٣) سيرة ابن هشام (٨٢/٢، ٨١) والبداية والنهاية (١٣٠/٣) وسبل الهدى والرشاد (٣١٢/٣).

فأين من هذه الأخلاق، أخلاق الحضارة من القرن العشرين والحادي والعشرين من سطو على الحريات، واغتصاب للأعراض، بل وعلى قارعة الطريق، وسطو على الأموال، إن هذه القصة ولها مثل ونظائر لتدل دلالة لا شك فيها على أن للعرب رصيلاً هائلاً وكبيراً من الفضائل، فمن ثم اختار الله عز وجل خاتم الأنبياء والرسل من بينهم، وكانوا أهلاً لحمل الرسالة، وتبليغها للناس كافة<sup>(١)</sup>.

هذا ما حدث من رجل عربي أصيل كان كافراً في وقت نجدته لامرأة مسلمة، حافظ عليها، إلى أن أوصلها لزوجها معززة مكرمة، هذه هي أخلاق العرب وصفاتهم وشهامتهم قبل الإسلام وبعد الإسلام، فهل هذا الذي حصل من صفوان بن معطل مع أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - إلا من هذا القبيل، بل إن سيدنا عثمان رضي الله عنه كان وقت نجدته لأم سلمة كان كافراً، وصفوان عند نجدته لأمه أم المؤمنين - رضي الله عنهما - كان مسلماً فهل يعقل أن يحافظ الكافر على المسلمة، ولا يحافظ المسلم على المسلمة وعلى زوج رسول الله ﷺ وعلى أم المؤمنين - رضي الله عنها؟

### **المفهوم التاسع: ينبغي للمؤمنين التزام الدقة في قبول الأخبار قبل نقلها وإشاعتها؛**

طلبت الآيات الكريمة من المسلمين في مواجهة الحادثة لإثبات إفكها وإفك القائمين بها خطوتين:

**الأولى: تحرى الدليل الباطني الوجداني القائم في نفوس المؤمنين**  
- وهذا ما دل عليه قوله سبحانه: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ

(١) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة للدكتور محمد أبو شهبة (٤٨٠/١) وهجرة الرسول وصحابه في القرآن والسنة للدكتور/أحمد عبد الغني الجمل ص ١٨١ . ١٨٢ بتصرف.

يَأْتِسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١﴾ أي: لو سئلت القلوب المؤمنة واستثيرت الضمائر يومها في المسألة لنطقت قائلة (هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ).

**الثانية: طلب الدليل الخارجي، والبرهان الواقعي، وهذا ما**  
جاء به، قوله تعالى: ﴿لَوْلَا جَاءُ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ (١).

أي: هلا جاء الخائضون في الإفك بأربعة شهداء ليشهدوا لهم على دعواهم إن كانوا صادقين، فإذا لم يحضروا أحداً ليشهد لهم فإذا هم أفاكون، وهم في علم الله الكاذبون (٢).

وجيء باسم الإشارة المخصص للبعيد « فأولئك » لزيادة تمييزهم بصفة الكذب، والتعبير بقوله سبحانه: « فأولئك عند الله هم الكاذبون » يفيد أن كذبهم هذا لا يضاويه كذب، كما يفيد أيضاً كأن الكذب مقصور عليهم وحدهم، لأنهم جاءوا بإثم عظيم، وكذب مفترى، واتهام باطل ولده الحقد والحسد في نفوسهم، فأشاعوه بين الناس.

وفي هذه الآيات السابقة أمر من الله عز وجل للمؤمنين بضرورة التثبت في نقل الأخبار، فعلى المسلم إن أراد أن ينقل أي خبر لا يتعجل في نقله حتى يتثبت. لأنه قد ينقل الإنسان خبراً ثم يتضح كذبه بعد ذلك فيندم على هذا الذي فعله، ولكن لا فائدة من هذا الندم. وقد وضع لنا القرآن الكريم قاعدة لتمحيص الأخبار قبل نقلها وإشاعتها فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجْهَلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَدِمِينَ﴾ (٣).

(١) النور: ١٣.

(٢) سورة النور دراسة وتحليل د إسماعيل السامرائي ص ٢٢٧ . ٢٢٩ بتصرف.

(٣) الحجرات: ٦.

فالله عز وجل في هذه الآية الكريمة يأمرنا ﴿إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنِيٍّ﴾<sup>(١)</sup> بالتثبت من الأخبار التي نقلها لنا الفسقة.

يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي: وهذا أيضاً من الآداب التي على أولي الأبواب التأدب بها واستعمالها، وهو أنه إذا أخبرهم فاسق بخبرٍ وجب عليهم أن يتثبتوا في خبره، ولا يأخذوه مجرداً، فإن في ذلك خطراً كبيراً، ووقوعاً في الإثم، فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل، حكم بموجب ذلك ومقتضاه، فحصل من تلف النفوس والأموال بغير حق بسبب ذلك الخبر ما يكون سبباً للندامة، بل الواجب عند خبر الفاسق، التثبت والتبين، فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه، عمل به وصدق، وإن دلت على كذبه، كُذِّب ولم يعمل به، ففيه دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود<sup>(١)</sup>.

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقال سبحانه تعالى مخوفاً المسلمين من الخوض فيما فيه ضرر، وفيما فيه كذب وافتراء وإفك وغيبة ونميمة وغير ذلك مما نهى الله عز وجل عنه: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما: قال: يكتب كل ما تكلم به من خير أو شر، حتى أنه يكتب قوله: أكلت، شربت، ذهبت، جئت، رأيت<sup>(٤)</sup>.

وكما نهى الله عز وجل عن الخوض فيما يؤدي إلى الندم، وفيما فيه كذب وافتراء وغيبة ونميمة وإفك وغير ذلك مما يؤدي المسلمين، فقد نهى الرسول ﷺ عن ذلك كذلك، فقد قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل

(١) تيسير الكريم الرحمن ص(٨٠٠).

(٢) الإسراء: ٣٦.

(٣) ق: ١٨.

(٤) تفسير القرآن العظيم (٤/٢٢٤).



ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»<sup>(١)</sup> فالأمر إذاً في منتهى الخطورة، فعلى المسلم أن يتقي الله عز وجل في كل كلمة يتلفظ بها، فيجب عليه ألا يتكلم إلا صدقاً، ولا يخبر عن أحد خبراً إلا ما فيه مصلحة للمسلمين فقط، وأن يكون متيقناً من كل ما يقول، ولا ينقل ما فيه شك أو ريب أو أذى للمسلمين، أو فيه نشر للفاحشة، ولا يردد الدعايات المفرضة، والافتراءات الكاذبة المختلقة، ولا يستسهل كل ما يسمعه أو يظنه هيناً، لأنه قد يكون هيناً من وجهة نظره وهو عند الله عظيم، بل لا ينبغي للمسلم أن يتحدث بكل ما يسمع لأن الرسول ﷺ حذرنا من ذلك، بل وقد وصف الذين يحدثون بكل ما يسمعون بأنهم كذبة، فقد قال الرسول ﷺ: « كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع »<sup>(٢)</sup>.

وذلك لأن الإنسان في العادة يسمع الغث والسمين، والحق والباطل، والصدق والكذب، والخير والشر، فإذا لم يكن حصيماً مدققاً متثبتاً من كل ما يسمعه ثم نقله للآخرين فيكون بذلك أحد الكذابين الملفقين المفتريين، يقول الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث السابق الذي رواه الإمام مسلم في باب النهي عن الحديث بكل ما سمع: ومعناه: يكفيه ذلك من الكذب، فإنه قد استكثر منه، وأما معنى الحديث والآثار التي في الباب، ففيها الزجر عن التحديث بكل ما سمع الإنسان، فإنه يسمع في العادة الصدق والكذب، فإذا حدث بكل ما سمع فقد كذب لإخباره بما لم يكن، وقد تقدم أن مذهب أهل الحق أن الكذب: الإخبار عن الشيء بخلاف

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٤٦٩/٢) والحاكم في المستدرک (٤٦٦/١، ٥٩٧/٤) وابن ماجه الحديث (٣٩٧٠) والطبراني (٣٥٥/١).

(٢) رواه مسلم في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، الحديث رقم (٥).

ما هو، ولا يشترط فيه التعمد، لكن التعمد شرط في كونه إثماً، والله أعلم<sup>(١)</sup>.

## المفهوم العاشر: معاملة الله عز وجل عباده بفضله ورحمته وإن أخطؤوا

قول الله عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ يدل على أن حكمة الله عز وجل اقتضت أن يعامل عباده عموماً والمؤمنين خصوصاً بفضله ورحمته حتى لو أخطؤوا وهذا ما حدث بالفعل منه سبحانه تعالى مع المؤمنين أثناء حادثة الإفك، فرغم أن البعض من المؤمنين تحدث بالإفك وألقاه بين الناس حتى انتشر، كما قال سبحانه: ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّتْرِ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ أي: رغم أن بعضهم تلقى هذا الاتهام الشنيع للسيدة عائشة - رضي الله عنها - وصفوان رضي الله عنه بالقبول ولم ينكره<sup>(٢)</sup>. مع أنه ليس له أي بيان ولا برهان إنما هو قول بالضم ولا معنى صحيحاً تحته، كما أنه قول غير موافق لما في العلم، لأن أدلة العلم قائمة بنقيضه فهو كلام مجرد ألفاظ تجري على الأفواه ولا حقيقة له في الواقع، وهم في كل ذلك يحسبون أن القذف عموماً وقذف أم المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها وأرضائها على وجه الخصوص شيء هين وسهل لا تبعه له - رغم أنه كان من شأنه أن يؤدي بهم إلى عواقب وخيمة في الدنيا والآخرة - وسبب حسبانهم أن هذا الأمر هيناً استخفافهم بالغيبة والطعن في الناس استصحاباً لما كانوا عليه من أخلاق وعادات الجاهلية، وغفلتهم عن كيد المنافقين في المسألة، ولكن الحدث في حقيقته ليس هيناً، ولا سهلاً ولا حدثاً عابراً، بل ﴿ وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ لا يقدر قدره في الوزر، واستجرار

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص(٤٨، ٤٩).

(٢) تفسير الماوردي (١١٥/٢) بتصرف.

العذاب، لأن اتهام الآخرين بالفاحشة ليس شيئاً هيناً، بل هو من أعظم الجرائم وأفظعها، نقول: رغم كل ذلك الذي حدث منهم إلا أن الله سبحانه تعالى بفضله ورحمته وعفوه الكثير عن عقوبة عباده المخطئين . كما قال سبحانه: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (١).

وكما قال في الآيات التي معنا: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢).

وبسبب عدم معالجته المذنب بالعقوبة، وإفساح الفرصة له بالتوبة بعد توجيهه لها، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يَرَا إِذُ الْوَالِدُنَّ الَّذِينَ يَمَّا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمْ دَابَّةً وَلَا حَسْرَةً يَوْمَ يُؤْخِرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ (٣) لم يعاجلهم بالعذاب على ما خاضوا فيه من حديث الإفك، بل أعطاهم الفرصة للتوبة والاستغفار، وعن كل ذلك يقول سبحانه: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤)، والمراد بقوله: «فيما أفضتكم فيه» أي: بسبب ما خضتكم فيه من حديث الإفك، والإبهام لتحويل أمره، واستهجان ذكره (٥).

وإنما جعلت الآية الكريمة ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ الخ، الألسن آلة للتلقي مع أن تلقي الأخبار بالأسماع؛ لأنه لما كان هذا التلقي غايته التحدث بالخبر جعلت الألسن مكان الأسماع مجازاً بعلاقة الأيلولة، ويقول الشيخ سعيد

(١) الشورى: ٣٠.

(٢) النور: ١٤.

(٣) فاطر: ٤٥.

(٤) النور: ١٤، ١٥.

(٥) روح المعاني (١١٨/١٨).

حَوَى: الأصل أن يتلقى الإنسان الكلام بأذنيه، ثم يستوعب بعقله وقلبه، ثم يتكلم به بعد ذلك أو لا يتكلم، ولكن في حادثة الإفك كان التلقي باللسان بدل الآذان والقلوب، فهو إشارة إلى سرعة الأخذ، وسرعة النقل دون تعقل وتدبر<sup>(١)</sup>.

وفي قوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ توبيخ وتعريض<sup>(٢)</sup> بهم لارتكابهم عدة آثام تجعلهم يستحقون العذاب العظيم بسببها:

**أحدها:** تلقي الإفك بألسنتهم دون تدبر وفهم، ثم إلقائه للآخرين كذلك، وذلك أن الرجل كان يلقي الرجل فيقول له: ما وراءك؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر، فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه، مع أنه كان من الواجب عليهم عدم الكلام فيه مطلقاً، لأنه لا يجوز للمسلم أن يتكلم بكل ما يسمعه من كلام، فقد يكون من الكلام ما يضر بالآخرين بل ما يضر بالمجتمع كافة.

**الثاني:** التكلم بما لا علم لهم به بلا تردد ولا تريث. وهذا مخالف لشرعنا الحنيف، لأننا منهيون عن الكلام بدون علم، فاللسان نعمة لا ينبغي أن توظف إلا للحق والخير.

**الثالث:** استصغارهم لذلك وهو عظيمة من العظائم<sup>(٣)</sup>.  
وليعلم المسلم أن الكلام مسئولية تحتاج إلى تأني وتأمل وتثبت.  
فليس للمسلم أن يتكلم بدون علم، والعلم رؤية الدليل والبرهان.  
ولهذا يعتبر الصمت والسماع مرتبة أولى في العلم، لأن من كثر لفظه كثر غلظه، ورحم الله من قال: أنصف أذنك من لسانك.. فاسمع ضعف ما تتكلم<sup>(٤)</sup>.

(١) الأساس في التفسير (٧/٢٧٢٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٨/١٧٨) بتصريف.

(٣) الكشف ص (٧٢٢)، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ص (٤٦٤) بتصريف.

(٤) من هدى سورة النور ص (٥٠).

## المفهوم الحادي عشر: حادثة الإفك تعطينا دروساً في كيفية مواجهة الإشاعات وتطويقها:

تعد الآية الكريمة التي معنا أصلاً من أصول تربية المسلمين في مواجهة الإشاعات المغرضة، وتطويقها، وخاصة إذا كانت مثل حادثة الإفك، وذلك يتضح من ملاحظة ما يأتي:

١. وجوب عدم التحدث بها أصلاً: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾<sup>(١)</sup>
٢. إنكارها إعلامياً وذهنياً: ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾ وذلك لأن التماسك الاجتماعي والثقة المتبادلة، وحسن الظن، والتفسير الحسن لسلوك الناس وتصرفاتهم. ما لم يثبت العكس بدليل قاطع. هو السبيل في قطع دابر الإشاعة، والحيلولة دون انتشارها.
٣. إيجاد الوعي العام عند أفراد الأمة جميعاً ببيان خطر هذا النوع من الإشاعات عليهم جميعاً، ولذلك جاءت الآيات مؤكدة ملحّة على إيضاح ذلك تماماً<sup>(٢)</sup> ﴿ وَقَالُوا هَذَا أَفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ و ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ و ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴾.

## المفهوم الثاني عشر: الجرائم في حق المجتمع لا يسمح بتكرارها:

بعد أن استوعب المسلمون الدرس جيداً من الآيات السابقة، وما فيه من توجيه وتربية، وتصحيح للرؤية، كرر الله عز وجل التحذير الشديد للمسلمين من مغبة الخطأ ثانية في مثل هذا الحدث، فقال لهم سبحانه

(١) الإشاعة. د. أحمد نوفل (١٣٤، ١٤٢) نقلاً عن سورة النور دراسة وتحليل ص(٢٣٦).

(٢) سورة النور دراسة وتحليل ص(٢٣٦، ٢٣٧).

تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ اللَّهِ لَكُمْ آيَاتٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

### وهاتان الآيتان تشيران إلى عدة أمور من أهمها ما يلي:

أ- استخدم الله عز وجل في مطلع الآية الكريمة الأولى لفظ (يعظكم)، والوعظ أو الموعظة: كلمة تحمل عدة معان، منها: النصح، والتذكير بالخير فيما يرق له القلب، والتذكير بالعواقب، والعبرة، والزجر المقترن بتخويف، والكلام الذي يلين نفس المقول له لفعل الخير<sup>(٢)</sup>، وسياق الآية الكريمة يشير إلى أن المقصود بالوعظ هنا «هو الكلام الذي يطلب به تجنب المخاطب به أمراً قبيحاً»<sup>(٣)</sup> ولما كان حادث الإفك أمراً قبيحاً، والخوض فيه أقبح، وسماعه أقبح وأقبح، لذا فقد وعظ الله عز وجل المؤمنين بتجنبه، وتجنب سماعه، وتجنب الخوض فيه مرة ثانية - ما داموا أحياء مكلفين.

ب- قول الله تعالى: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾ فيه تحذير ونهي من قذف السيدة عائشة. رضي الله عنها. ورميها بالإفك، لأن مثله لا يكون إلا نظير القول في المقول عنه بعينه، أو فيمن كان في مرتبته من أزواج النبي ﷺ، لما في ذلك من إذاية رسول الله ﷺ في عرضه وأهله، وذلك كفر من فاعله<sup>(٤)</sup>.

ج- في قول الله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتوكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، وفيه أيضاً تهيج وإلهاب لهم يبعث حرصهم على أن لا يعودوا لمثله، لأنهم حريصون على إثبات إيمانهم، فالشرط في مثل هذا (إِنْ كُنْتُمْ) لا يقصد بالتعليق، إذ ليس المعنى: إن لم

(١) النور: ١٧، ١٨.

(٢) لسان العرب مادة (وعظ)، والمفردات مادة وعظ، ص(٨٧٦)، والتحرير والتنوير (٩٦/٥، ١٠٨).

(٣) التحرير والتنوير (١٨٢/١٨).

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٢١٧٢).

تكونوا مؤمنين فعودوا لمثله، ولكن لما كان احتمال حصول مفهوم الشرط مجتنباً كان في ذكر الشرط بعث على الامتثال، فلو تكلم أحد في الإفك بعد هذه الآية معتقداً وقوعه فمقتضى الشرط أنه يكون كافراً، وبذلك قال مالك، قال القرطبي: قال هشام بن عمار<sup>(١)</sup> سمعت مالكا يقول: من سب أبا بكر وعمر أدب، ومن سب عائشة قتل، لأن الله تعالى يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فمن سب عائشة فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قتل<sup>(٢)</sup>، وذلك لأن أهل الإفك لما رموا السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالفاحشة فبرأها الله تعالى، فكل من سبها بما برأها الله منه مكذب لله، ومن كذب الله فهو كافر<sup>(٣)</sup>.

د- في قول الله سبحانه تعالى: «والله عليم حكيم» مجيء عليم وحكيم على وزن فعيل، وهي من صيغ المبالغة، وذلك للدلالة على وصف الله تعالى وتعاضم بكمال العلم وكمال الحكمة، والعليم هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق، أو: أنه المدرك لما يدركه المخلوقون بعقولهم وحواسهم، وما لا يستطيعون إدراكه، وذلك لأنه سبحانه تعالى لا يغيب عنه شيء، ولا يعجزه إدراك شيء<sup>(٤)</sup>.

والحكيم: هو الذي لا يقول ولا يفعل إلا الصواب، لأنه سبحانه تعالى أفعاله سديدة، وصنعه متقن، ولا يظهر الفعل المتقن السديد إلا من حكيم<sup>(٥)</sup>.

(١) هشام بن عمار السلمي الدمشقي الحافظ المقرئ الخطيب، سمع مالكا وخلقاً، وثقه ابن معين توفي سنة (٢٤٥).

وعاش اثنتين وتسعين سنة. انظر تهذيب الكمال للمزى، والكاشف للذهبي.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/٢١٧٢) والتحرير والتنوير (١٨/١٨٢، ١٨٣).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢١٧٢).

(٤) الأسماء والصفات للبيهقي (ص ٤٥).

(٥) المرجع السابق ص ٢٢ بتصرف.

هـ- ومناسبة التذكير بصفتي العلم والحكمة ظاهرة: فالله تعالى عليم، يعلم البواعث والنوايا والغايات والأهداف، ويعلم مداخل القلوب، ومسارب النفوس، وهو حكيم في علاجها، وتدبير أمرها، ووضع النظم والحدود التي تصلح بها<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الثالث عشر: إشاعة الفاحشة بين المؤمنين يترتب عليها أخطار اجتماعية فادحة:

في قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ \* تأديب ثالث، وتحذير لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ فقام بذهنه شيء منه، وتكلم به، فليقطع كلامه، ولا يشيعه ويذيعه، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ \* أي: إن الذين خبثت نيتهم، واختاروا ظهور الكلام القبيح عنهم، وأحبوا شيوع الفاحشة في الذين آمنوا بإصدارهم لها عن قصد إلى الإشاعة وإرادة ومحبة لها، أو بسرورهم عند صدورها من غيرهم ﴿الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ \* أي: لهم بسبب إشاعتهم الفاحشة وحبهم لذلك العذاب الأليم في الدنيا والآخرة، الذي يبلغ الغاية من الإيلام الجسدي والنفسي، فهو عذاب متفاقم ألمه، لتسببهم في نشر المفسد الأخلاقية في المجتمع، وتجروء الناس على المفسد وارتكابها، لأنه مما يزع الناس عن المفسد تهيبهم وقوعها، وتجهمهم وكرهاتهم سوء سمعتها، وذلك مما يصرف تفكيرهم عن ذكرها، بله الإقدام عليها رويداً رويداً، حتى تنسى وتمحي صورها من النفوس، فإذا انتشر بين الأمة الحديث بوقوع شيء من الفواحش تذكرتها الخواطر، وخف وقع خبرها على الأسماع، فذب بذلك إلى النفوس التهاون بوقوعها، وخفة وقعها على الأسماع، فلا

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٣).



تلبث النفوس الخبيثة أن تقدم على اقترافها، وبمقدار تكرر وقوعها، وتكرر الحديث عنها تصير متداولة<sup>(١)</sup>.

والفاحشة التي ذكرتها الآية الكريمة تشتمل على رمي المحصنات، والتجروء على رمي بيت النبوة الكريم، وجميع صور وحالات إشاعة الفاحشة والانحلال الخلقي، فهي تنطبق كذلك على ما قد صار شائعاً في كثير من بلدان العالم، من إنشاء دور للفاحشة والبغاء، ومثله كل ما يرغب الناس في الفواحش، ويثير غرائزهم الدنيئة من القصص والروايات والغناء الماجن المبتذل، والصور والألعاب والمسارح والسينما، والمجالس والنوادي والبنادق والملاهي التي يعقد فيها الرقص والطرب، ويشترك فيه الرجال والنساء على صورة خليعة مختلطة، وعلى ذلك فإن القائمين على الأمور السابقة سواء أكانوا من الكفرة أم من المنافقين أم من المسلمين متوعدون بنص الآية الكريمة بالعذاب الأليم في الدنيا والآخرة، لذلك فمن الواجب على كل الدول الإسلامية أن تبذل جهودها في استئصال جميع هذه الوسائل والأسباب المؤدية إلى إشاعة الفاحشة، وتقرر أن جميع هذه الأشياء وأشباهها . التي يعدها القرآن الكريم جرائم بالنسبة لعامة الناس، ويحكم بالعذاب على الذين يأتونها - جرائم مستلزمة للعقوبة تؤاخذ عليها الناس<sup>(٢)</sup>.

أما عقوبة الدنيا التي يستحقها الذين يحبون إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا فتشتمل على أربعة أمور:

**الأول:** العقوبة التأديبية والتي تتولاها الدولة ببذل جهودها في استئصال جميع وسائل الغواية، وعوامل الفساد الاجتماعي والأخلاقي، وذلك عن طريق سنّ الأنظمة والقوانين التي تجعل من أسباب إشاعة

(١) التحرير والتوير (١٨/١٨٥).

(٢) تفسير سورة النور أبو الأعلى المودودي ص(١٣٣) بتصرف.

الفاحشة وأخبارها محظورات شرعية وقانونية، وتسبب أيضاً العقوبات الرادعة والزاجرة الكفيلة بإزالة أسباب ذلك كلياً من حياة الناس.

**الثاني:** العقوبات القضائية، وهي حدود الزنا من الجلد والرجم والتغريب، وحد القذف من الجلد، وإسقاط الشهادة والوسم بالفسق.

**الثالث:** أن في إشاعة الفاحشة وأخبارها بين الناس من الأذى النفسي والاجتماعي والأضرار المتفاوتة المقدار على تفاوت الأخبار في الصدق والكذب شيئاً يجعل حياة الناس عذاباً، فكم من كارثة حلت؟ وكم من أسر تشردت، وبيوت هدمت، وأواصر قطعت، كل ذلك من آثار الفواحش وأخبارها !! أليس هذا نوع من العذاب الأليم في الدنيا بأجلى صورته وآثاره!!؟

**الرابع:** هو ما تصاب به الأمة من البلى والرزاياء ويتشكل ذلك مما يأتي:

أ- من المعلوم عند الدارسين لهذه الشريعة الغراء أن لله تعالى «سُنَّة» أي: طريقة، وقانوناً مطرداً في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم، وموقفهم من شرع الله وأنبيائه، وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة<sup>(١)</sup>.

ب- وسنة الله تعالى المطردة في مواجهة إشاعة الفاحشة وانتشار فعلتها متكونة من أمرين:

١- الهلاك والاستئصال الجماعي، ولو كان في الأمة بقايا من صالحين وأقوياء؛ ففي الصحيحين من حديث زينب بنت جحش - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم إذا كثرت الخبيث<sup>(٢)</sup>.

(١) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية د. عبد الكريم زيدان ص(١٢) نقلا عن كتاب سورة النور دراسة وتحليل ص(٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) أخرجه البخاري الحديث (٢٢٤٦، ٢٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٢٥) ومسلم الحديث (٢٨٨٠) ك الفتى.

قال الإمام النووي - رحمه الله: الخبث بفتح الخاء والباء فسره الجمهور: بالفسوق والفجور، وقيل: المراد الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقاً، ثم قال: ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثُر فقد يحصل الهلاك العام، وإن كان هناك صالحون<sup>(١)</sup>.

وفي صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم ثم بعثوا على أعمالهم»<sup>(٢)</sup>.

قال ابن حجر - رحمه الله - تعليقاً على هذا الحديث: قوله: «إذا أنزل الله بقوم عذاباً» أي: عقوبة لهم على سيء أعمالهم.

قوله: «أصاب العذاب من كان قبلهم» أي: من كان فيهم ممن ليس هو على رأيهم، قوله: «ثم بعثوا على أعمالهم» أي: بعث كل واحد منهم على حسب عمله إن كان صالحاً فعقابه صالحاً، وإلا فسيئاً، فيكون ذلك العذاب طهرة لل صالحين، ونقمة على الفاسقين، وفي صحيح ابن حبان عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً «إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون قبضوا معهم، ثم بعثوا على نياتهم وأعمالهم»<sup>(٣)</sup>، وأخرجه البيهقي في الشعب، وله من طريق الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب عنها مرفوعاً «إذا ظهر السوء في الأرض أنزل الله بأسه فيهم، قيل: يا رسول الله وفيهم أهل طاعته؟ قال: نعم، ثم يبعثون إلى رحمة الله تعالى»<sup>(٤)</sup> قال

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص(١٦٧٢). ط بيت الأفكار الدولية.

(٢) أخرجه البخاري في ك الفتن، الحديث (٧١٠٨) ومسلم في ك الجنة، الحديث (٢٨٧٩). وصحيح ابن حبان،

الحديث (٧٢١٥) والإمام أحمد في المسند (٤٠/٢).

(٣) صحيح ابن حبان، الحديث (٧٢١٤)، ونصه عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله إن الله إذا أنزل

سطوته بأهل الأرض وفيهم الصالحون فيهلكون بهلاكهم؟ فقال: يا عائشة إن الله إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون فيصابون معهم، ثم يبعثون على نياتهم وأعمالهم.

(٤) رواه الإمام أحمد في المسند (٤١/٦) وانظر تفسير القرآن العظيم (٥٨٠/٢)، وفتح القدير (٦٠/١٢) ومصنف

ابن أبي شيبة (٤٣/١٥) ومجمع الزوائد (٣٦٨/٧).

ابن بطال: هذا الحديث يبين حديث زينب بنت جحش حيث، قالت: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»، فيكون إهلاك الجميع عند ظهور المنكر، والإعلان بالمعاصي. قلت: الذي يناسب كلامه الأخير حديث أبي بكر الصديق «سمع رسول الله ﷺ يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب»<sup>(١)</sup> أخرجه الأربعة، وصححه ابن حبان، وأما حديث ابن عمر في الباب، وحديث زينب بنت جحش فمتناسبان، وقد أخرجه مسلم عقبه، ويجمعهما أن الهلاك يعم الطائعات مع المعاصي، وزاد حديث ابن عمر أن الطائعات عند البعث يجازي بعمله، ومثله حديث عائشة مرفوعاً «العجب إن ناساً من أمتي يؤمنون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم، فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد يجمع الناس، قال: نعم فيهم المستبصر والمجبور، وابن السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم» أخرجه مسلم<sup>(٢)</sup>، وله من حديث أم سلمة نحوه، ولفظه «فقلت يا رسول الله فكيف بمن كان كارها؟ قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته»<sup>(٣)</sup> وله من حديث جابر رفعه «يبعث كل عبد على ما مات عليه»<sup>(٤)</sup> وقال الداودي: معنى حديث ابن عمر أن الأمم التي تعذب على الكفر يكون بينهم أهل أسواقهم، ومن ليس منهم، فيصاب جميعهم بأجالهم، ثم يبعثون على أعمالهم، وقال القاضي عياض: أورد مسلم حديث جابر «يبعث كل عبد على ما مات عليه» عقب حديث جابر أيضاً رفعه «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»<sup>(٥)</sup> يشير إلى أنه مفسر له، ثم أعقبه بحديث «ثم بعثوا

(١) رواه ابن ماجه الحديث (٥٠٠٤) والإمام أحمد في المسند (٢/١، ٥، ٩).

(٢) أخرجه مسلم، الحديث (٢٨٨٤).

(٣) رواه مسلم الحديث (٢٨٨٢).

(٤) رواه مسلم الحديث (٢٨٧٨).

(٥) رواه مسلم الحديث (٢٨٧٧).

على أعمالهم»<sup>(١)</sup> مشيراً إلى أنه وإن كان مفسراً لما قبله لكنه ليس مقصوراً عليه، بل هو عام فيه وفي غيره، ويؤيده الحديث الذي ذكره بعده «ثم بيعتكم الله على نياتهم» انتهى ملخصاً. ثم يتابع ابن حجر الكلام قائلاً:

والحاصل أنه لا يلزم من الاشتراك في الموت الاشتراك في الثواب أو العقاب، بل يجازى كل أحد بعمله على حسب نيته، وجنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقاً، لا يرسل الله عليهم العذاب، بل يدفع بهم العذاب، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَعْلَاهَا ظَالِمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانِ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾<sup>(٣)</sup>، ويدل على تعميم العذاب لمن لم ينه عن المنكر، وإن لم يتعاطاه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِمْ إِنَّكُمْ إِذًا مَثَلُهُمْ﴾<sup>(٤)</sup>، ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار، ومن الظلمة، لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة، هذا إذا لم يعنهم ولم يرض بأفعالهم، فإن أعان أو رضي فهو منهم، ويؤيده أمره ﷺ بالإسراع في الخروج من ديار ثمود، وأما بيعتكم على أعمالهم فحكم عدل؛ لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة، وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيراً لما قدموه من عمل سيء، فكان العذاب المرسل في الدنيا على الذين ظلموا يتناول من كان معهم، ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاء لهم على مداونتهم، ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله، وفي الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي، فكيف بمن داهن؟ فكيف بمن رضي؟ فكيف بمن عاون؟ نسأل الله السلامة، ثم يقول: ومقتضى كلامه أن

(١) رواه مسلم الحديث (٢٨٧٩).

(٢) القصص: ٥٩.

(٣) الأنفال: ٢٣.

(٤) النساء: ١٤٠.

أهل الطاعة لا يصيبهم العذاب في الدنيا بجريرة العصاة، وإلى ذلك جنح القرطبي في التذكرة، وما قدمناه قريباً أشبه بظاهر الحديث، وإلى نحوه مال القاضي ابن العربي (١).

وفي ضوء ما تقدم يتبين لنا أن الذنوب ومعصية الله تبارك وتعالى مهلكة لمقترفيها، وأن الله عز وجل هو الذي يهلك أولئك الأقسام بسبب ذنوبهم، وأن هذه السنة ماضية، وقد لا يراها البعض بسبب عمره القصير، ولكنها ثابتة، تخضع لها الأمم حين تفسو فيها الذنوب.

٢- ابتلاء الله عز وجل العصاة بالأمراض والعلل، وخاصة تلك

التي تنشأ مباشرة، كأثر من آثار انتشار الفاحشة، والتي منها أنواع لم تصب به الأمم السابقة، وذلك مصداقاً لقول رسول الله ﷺ «... لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا» وما تعانيه بعض الشعوب والأمم اليوم من مرض «فقدان المناعة المكتسبة» (٢) إلا مظهر من مظاهر عذاب الله تبارك وتعالى لهؤلاء في الدنيا، بسبب شيوع الفاحشة فيهم (٣)، وأما عذاب الآخرة فهو نار جهنم وبئس المصير.

ولما كان الهدف من حب إشاعة الفاحشة لحاق الأذى والضرر بالناس لذا فإن الله عز وجل ذيل هذا الأدب الجليل بقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: يعلم ما في ذلك من المفسد، فيعظكم لتجتنبوا، وأنتم لا تعلمون فتحسبون التحدث بذلك لا يترتب عليه ضرر (٤)، وهذا كقوله: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ (٥).

(١) فتح الباري (٣/٢١٧٣، ٢١٧٤).

(٢) يرمز لهذا المرض بـ (الإيدز Aids).

(٣) سورة النور دراسة وتحليل ص (٢٤٣، ٢٤٤) بتصريف، والسنن الإلهية (٢١٠، ٢١١) بتصريف.

(٤) التحرير والتوير (١٨/١٨٥).

(٥) النور: ١٥.

وهذا جانب من منهج التربية، وإجراء من إجراءات الوقاية، يقوم على خبرة بالنفس البشرية، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرها واتجاهاتها، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ومن ذا الذي يعلم أمر هذه النفس إلا الذي خلقها؟ ومن ذا الذي يدبر أمر هذه الإنسانية إلا الذي برأها؟ ومن ذا الذي يرى الظاهر والباطن، ولا يخفي على علمه شيء إلا العليم الخبير<sup>(١)</sup>؟

والجملة الكريمة أعني قوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ اعتراض تذييلي، جيء به تقريراً لثبوت العذاب لهم، وتعليلاً له، قيل: المعنى: والله يعلم ما في ضمائرهم، فيعاقبهم عليه في الآخرة، وأنتم لا تعلمون ذلك، بل تعلمون ما يظهر لكم من أقوالهم فعوقبوا عليه في الدنيا<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم الرابع عشر: وسائل إشاعة الفاحشة متنوعة فعلى المؤمن أن يكون حذراً منها:

يهدد الله عز وجل الذين يحبون أن تشيع الفاحشة بأي وسيلة من الوسائل:

- ١- كالخوض في أعراض الناس، واتهام المصلحين، وتجريح سمعتهم لتحطيم معنويات الناس.
- ٢- أو بإنشاء دور الفاحشة.. أو دور اللهو التي تجر إلى الفاحشة.
- ٣- أو بتوجيه الفن والأدب نحو إثارة الغرائز.. وتزيين الانغماس فيها (الروايات والشعر والغناء).
- ٤- أو باستخدام وسائل الإعلام بشكل يتدرج الناس به إلى الفاحشة.

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٣، ٢٥٠٤).

(٢) روح المعاني (١٨/١٢٣).

هذه الأفعال جرائم بحق المجتمع، ولا بد أن تُعَرَّض صاحبها لعقوبات دنيوية - عدا عن عقوبة الله في الآخرة - وعلى الحاكم المسلم أن يعاقب عليها بعقوبات زاجرة تردع هؤلاء عن شرورهم.

﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ فالله عز وجل يَعْلَمُ مدى تضرر المجتمع بمثل هذه الأعمال، ويعلم النوايا الخبيثة عند هؤلاء الذين يلبسون قناع الإسلام، ويحاولون الطعن فيه من الداخل. إنه يعلم ما لا تعلمون ويقىكم الشرور، ويحيطكم بحدود آمنة.. فتذكروا فضل الله، واشعروا بالنعمة الكبرى في هذه الأحكام<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الخامس عشر: التدرج في الإغواء منهج الشيطان للوصول إلى ما يريد:

في قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ... ﴾ إلى آخر الآية الكريمة تحذير من الشيطان ووساوسه بعد تحذيرنا من النفس الأمارة بالسوء التي تحب دائماً إذاعة الفاحشة، فإن المعاصي تقع دائماً من قائد يأمر بالسوء وهو الشيطان، ونفس مدفوعة إلى الشر بطبيعتها.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ ومسالكة فإنه يأمركم بالفحشاء والمنكر، ويدعوكم دائماً إلى كل ضار في دينكم ودنياكم: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾<sup>(٢)</sup>.

والشيطان يوسوس للنفوس الضعيفة، ويزين لها الوقوع في المعاصي، عن طريق التدرج خطوة فخطوة، حتى يتم له ما أراد، وإن خطوات الشيطان تكون فيما نحقر من أعمالنا، ولكنها تجرنا إلى المهالك.

(١) من هدى سورة النور ص ٥٢، ٥٣.

(٢) البقرة: ٢٦٨.



فأعظم حادثة أو أكبر فاحشة لا تقع دفعة واحدة، ولكن لها خطوات يضعها الشيطان، حتى يتم له ما أراد. نظرة.. فكلام.. فموعد.. فلقاء.. فوقوع في المهالك.. وهكذا.

ومن العجيب أن ينادي بعض المسلمين بالاختلاط بين الجنسين، ويجره الشيطان إلى هذا بحجة أن الاختلاط يمنع وقوع المعصية، وما علم أن الطبيعة البشرية أقوى، ولا يعد لها ويخفف من حدتها، ويوجهها إلى الوجهة العليا إلا الخوف من الله، وتلاوة القرآن الكريم، ومدارسة الحديث النبوي الشريف، ومجالسة العلماء، وغير ذلك من أعمال وجوه الخير، حتى يشغل نفسه وفراغه، ويصرف وقته في المنافع، وإن أساس الوقوع في المعصية هو الشباب والفراغ والمال، فإذا أمكننا صرف الشباب إلى الوجهة النافعة، وشغل وقتهم وفراغهم بالهوايات الصالحة النافعة كالرياضة البدنية، وغيرها، توصلنا بهذا إلى التقليل من وقوع الجرائم الجنسية، والنبى ﷺ قد عالج هذا الموضوع بقوله « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»<sup>(١)</sup> ولا شك أن في الصوم جنة، ورياضة روحية، وإضعافاً للقوة الجسمية.

يا جماعة المسلمين: لولا فضل الله علينا جميعاً ورحمته بنا ما زكى منا من أحد أبداً، وكيف يسير الإنسان على الصراط المستقيم، وهو بين قائد ضال ومضل، وهو الشيطان، ودافع أضل وهي النفس المدفوعة إلى الشر بطبيعتها؟

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَحْزَابِ السَّعِيرِ﴾ (٢)

(١) رواه البخاري الحديث (١٩٠٥، ٥٠٦٥) ومسلم، الحديث (١٤٠٠).

(٢) فاطر: ٦.

﴿ وَمَا أْبْرَأُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَرْتِي إِنْ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١).

ولكن الله يزكي من يشاء، ويهدي إليه من ينيب، والله سميع عليم  
و﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٢) ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣).

أليس في هذا خير لنا وهداية؟ نسأله التوفيق والسداد (٤).

**المفهوم السادس عشر: العفو والصفح من أنبل أخلاق المؤمن وبخاصة مع أولي القربى والمساكين:**

في قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلَ مِنْكُمْ وَالسَّعَةَ أَنْ يُؤْتُوا أَوْلِي الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (٥).

دعوة إلى الصفح والمغفرة والعفو بين المؤمنين بعضهم وبعض . كما يرجون غفران الله عز وجل لما يرتكبونه من أخطاء وذنوب.

وهذه الآية الكريمة نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه بعد نزول القرآن الكريم ببراءة الصديقة . رضي الله عنها . وأرضاه، وقد عرف أن مسطح بن أثاثة كان ممن خاضوا في الإفك . وقد ذكرنا ذلك سابقاً - وهو قريبه، وهو من فقراء المهاجرين . وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه، فألى على نفسه لا ينفق مسطحاً بنافقة أبداً .

نزلت هذه الآية الكريمة تذكر أبا بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه وتذكر المؤمنين بأنهم يخطئون ثم يحبون من الله أن يغفر لهم، فليأخذوا أنفسهم

(١) يوسف: ٥٣.

(٢) غافر: ١٩.

(٣) الشورى: ٢٥.

(٤) التفسير الواضح (١٨/٥٦، ٥٧).

(٥) النور: ٢٢.

- بعضهم مع بعض - بهذا الذي يحبونه، ولا يحلفوا أن يمنعوا البر عن مستحقه إن كانوا قد أخطؤوا وأساءوا، وهنا نطلع على أفق عال من آفاق النفوس الزكية، التي تظهرت بنور الله. أفق يشرق في نفس أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أبي بكر الذي مسه حدث الإفك في أعماق قلبه، والذي احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى: ﴿الْأَمْحُورُونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ؟ حتى يرتفع على الآلام، ويرتفع على مشاعر الإنسان، ويرتفع على منطق البيئة، وحتى تشف روحه، وترف وتشرق بنور الله، فإذا هو يلبي داعي الله في طمأنينة وصدق، يقول: «بلى والله إنني لأحب أن يغفر الله لي». ويعيد إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، ويحلف: «والله لا أنزعها عنه أبداً»، ذلك في مقابل ما حلف: «والله لا أنفعه بنافعة أبداً» وكما فعل أبو بكر الصديق رضي الله عنه مع مسطح فعلت الصديقة أم المؤمنين السيدة عائشة - رضي الله عنها - مع حسان بن ثابت، أحد الأربعة الذين خاضوا في الإفك . فقد كان يدخل بعد ذلك على السيدة عائشة - رضي الله عنها - فتكرمه، فيتعجب الحاضرون، فتقول: إنه كان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك يمسح الله على آلام ذلك القلب الكبير، ويغسله من أوضار المعركة، ليبقى أبداً نظيفاً طاهراً زكياً مشرقاً بالنور<sup>(١)</sup>. وأدب العفو والصفح عن المخطئين التائبين الخالص من المسلمين متمم للنهي عن اتباع خطوات الشيطان، وذلك لئلا يطاع الشيطان، أو تسلك سبله في التقاطع والتدابير بين المسلمين، وهو في نفس الوقت يعالج القلوب، ويداوي الجراح، ويصلح بين عباده.. فهل تدبرنا ذلك؟

يقول صلى الله عليه وسلم: «ألا أنبئكم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة، قالوا: بلى. قال: إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة»<sup>(٢)</sup>.

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٥٠٤، ٢٥٠٥).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث (٢٨٠٥٨)، والترمذي في صفة القيامة الحديث (٢٥١٤) وصححه، وأبو داود في الأدب (٤٩١٩)، وابن حبان في صحيحه، الحديث (٥٠٩٢).

فكيف تتلاحم الأمة إذا كانت القلوب متنافرة متباغضة..! وكيف تتماسك الأمة أمام أعدائها - الذين تألبوا عليها من كل حذب وصوب - إن لم تكن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً..! إن الإصلاح بين المؤمنين، وإعادة ربط القلوب برباط المحبة في الله.. أمر في غاية الأهمية..

والآية تذكرونا بحقيقة مهمة كثيراً ما نغفل عنها.. فالله ينادينا: امنح العفو لأنك محتاج إلى من يعفو عنك.. وهل تظن أنك منزّه عن الأخطاء..؟ إنك عبد خطاء مع الله ومع الناس.. وإنك محتاج إلى مغفرة وعفو الناس. فاعف وتجاوز عن أساء إليك، وسامح واترك الأمر لله عز وجل، وارفق بالآخرين، ولا تتأثر لغرض شخصي، ولا لمصلحة شخصية، ولا لدافع من دافع الأنا، حتى يعفو الله عنك ويغفر لك، قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>، وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾<sup>(٢)</sup> وقال تعالى: ﴿فَأَصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾<sup>(٣)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٤)</sup>، وقال تعالى: ﴿وَلِمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لِمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾<sup>(٥)</sup> وعلى المؤمن أن يعلم أن العفو يزيد عزاً. كما قال رسول الله ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً»<sup>(٦)</sup>.

وليكن لنا في رسول الله ﷺ والأنبياء قبله الأسوة والقُدوة في ذلك، روى مسلم بسنده عن السيدة عائشة - رضي الله عنها - أنها قالت: «ما ضرب رسول الله ﷺ شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء

(١) التور: ٢٢.

(٢) الأعراف: ١٩٩.

(٣) الحجر: ٨٥.

(٤) آل عمران: ١٣٤.

(٥) الشورى: ٤٣.

(٦) رواه الإمام مسلم في البر (٦٩) والدارمي في الزكاة (٣٥) والإمام أحمد في المسند (٢٨٦/٢).

من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى»<sup>(١)</sup> فالانتقام إذاً لا يكون إلا لله عز وجل إذا انتهكت محارمه سبحانه تعالى، انتصاراً لله، ودفاعاً عن الحق، وتأيداً للمنهج فقط.

وروى البخاري ومسلم بسندهما عن السيدة عائشة - رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحُدٍ فَقَالَ «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كِلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ فَأَنْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِهِ فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ قَالَ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ وَسَلَّمَ عَلَيَّ. ثُمَّ قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَأَنَا مَلَكُ الْجِبَالِ وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ فَمَا شِئْتَ إِنْ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ». فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً »<sup>(٢)</sup>.

وروى البخاري ومسلم بسندهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبياً من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »<sup>(٣)</sup>.

ومن كل ما سبق يتبين لنا أنه من الواجب على المسلم أن يعفو ويصفح ويتسامح، ويرفق بالآخرين، حتى يعم الأمن والأمان والاستقرار بين

(١) رواه مسلم، الحديث (٢٣٢٧) والإمام أحمد في المسند، الحديث (٢٥٤٩٩، ٢٤٥٣٥، ٢٦٢٢٣، ٢٦٤٣٨، ٢٦٤٨٢).

(٢٦٩٢٦)، وابن ماجه، الحديث (١٩٨٤).

(٢) رواه البخاري في بدء الخلق، الحديث (٣١٣١)، ومسلم في الجهاد والسير، حديث (١٧٩٥) واللفظ لمسلم.

(٣) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧)، ومسلم في الجهاد والسير (١٧٩٢).

أفراد المجتمع، وينعدم الانتقام والثأر من الآخرين، والانتصار على شياطين  
الإنس والجن، والتخلص من الأنا.

وهذا الذي قلناه يظهر جلياً في قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا  
تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾<sup>(١)</sup>.

هذا القول الكريم الذي يدعو الله عز وجل فيه أبا بكر الصديق  
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى العفو والصفح عن مسطح الذي خاض مع الخائضين في الإفك،  
وتناول عرض السيدة عائشة - رضي الله عنها - مع المتناولين له، وتسبب  
في إذايتها، وإذاية رسول الله ﷺ، وإذاية أبي بكر الصديق وزوجه، وهكذا  
مسح الله عز وجل آثار المعركة من النفوس، وأعاد الحب والرحمة إلى  
القلوب.. وخرج المجتمع المسلم من الفتنة وقد ازداد نقاء وضياء.. كما  
يخرج الذهب الخالص عند تعريضه للنار. ورد الله الذين نافقوا بغيظهم  
لم يزدادوا إلا فضيحة وإثماً، كل هذا من فضل الله ورحمته التي تكرر  
التذكير بها أثناء الآيات، ولقد كان هذا التلويح بالعفو والغفران لمن تاب  
عن رمي المحصنات، واعترف بذنبه. أما الذين يتقصدون العورات، ويلوكون  
الأعراض.. فلهم الوعيد بسوء الجزاء<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم السابع عشر: الجزاء من جنس العمل:

في قول الله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ  
رَحِيمٌ﴾ بيان أن الجزاء من جنس العمل، فكما يعفو المسلم عن أساء إليه  
فإن الله يغفر له ما أذنبه في حقه تعالى، وكما يصفح عن أساء إليه  
يصفح الله عنه، وهذه الآية وإن كان سبب نزولها خاص كما ذكر المفسرون  
إلا أنها عامة يتناول حكمها جميع الأمة إلى يوم القيامة، بالأ يفتاظ ذو

(١) النور: ٢٢.

(٢) من هدى سورة النور ص(٥٥، ٥٦).

فضل وسعة، فيحلف ألا ينفع أولي أرحامه الفقراء ونحوهم، وإنما عليه أن يحسن إليهم، وإن أساءوا إليه، أو كانت بينه وبينهم شحنة لجناية اقترفوها، فليعف عنهم وليصفح، وليفعل بهم مثل ما يرجو أن يفعل الله عز وجل به من العفو والصفح<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الثامن عشر: المؤمن وصول لأرحامه وإن أساءوا إليه:

في قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>، أمر بصلة الرحم ولو كانوا مسيئين، فقد نزلت الآية الكريمة كما ذكرنا سابقاً لما أراد أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه أن يقطع عن مسطح ما كان يقدمه له من مساعدات لفقره وقربته، فأمره الله عز وجل فيها بالاستمرار في العطاء لمسطح، رغم أنه أساء له ولابنته الصديقة، وفي هذا أمر بصلة الرحم المسيئة، وذلك لأن مسألة الرحم شأنها كبير، وصلتها عظيمة، ومن الأعمال المقربة إلى الله عز وجل، ومن أفضل أخلاق الدنيا والآخرة، فعن رجل من خثعم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو في نفر من أصحابه، فقلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نعم» قال: قلت: يا رسول الله أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: الإيمان بالله. قال: قلت: يا رسول الله ثم مه؟ قال: «ثم صلة الرحم...»<sup>(٣)</sup> الحديث.

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أنه قال: لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبدرته، فأخذت بيده، وبدرني فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو

(١) تفسير الكشاف ص(٧٢٣) والجامع لأحكام القرآن (٢/٢١٧٤).

(٢) النور: ٢٢.

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع (١٥١/٨) وقال: رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح غير نافع بن خالد الطاحي وهو ثقة، وذكره المنذرى في الترغيب والترهيب (٣/٢٣٦) وقال: رواه أبو يعلى بإسناد جيد، واللفظ له.

عمن ظلمك، ألا ومن أراد أن يمد في عمره، ويبسط في رزقه فليصل ذا رحمه»<sup>(١)</sup>.

ولما كان الأمر كذلك لذا فقد أمر الله عز وجل بصلتها ولو كانت مقاطعة أو فاجرة، أو مشركة، أو معادية.

فمما يدل على صلة الرحم المقاطعة ما رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الرحم معلقة بالعرش، وليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل من إذا انقطعت رحمه وصلها»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لِي قِرَابَةٌ أَصْلَهُمْ وَيَقْطَعُونِي، وَأَحْسَنُ إِلَيْهِمْ وَيَسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلَمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ، قَالَ: «إِنْ كُنْتَ كَمَا تَقُولُ فَكُنَّا نَسْفَهُمُ الْمَلَّ، وَلَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ»<sup>(٣)</sup>.

ومما يدل على صلة الرحم الفاجرة ما ذكره المروزي عن ميمون بن مهران أنه قال: «ثلاثٌ تُؤدِّي إلى البرِّ والفاجر: الرحمُ توصل برة كانت أو فاجرة، والأمانة تُؤدِّي إلى البرِّ والفاجر، والعهد يوفى للبرِّ والفاجر»<sup>(٤)</sup>.

ومما يدل على الأمر بصلة الرحم المشركة قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ جَهْدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾<sup>(٥)</sup>، وروى البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَىٰ أُمِّي وَهِيَ رَاغِبَةٌ مَشْرُوكَةٌ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ

(١) رواه الحاكم (١٦١/٤، ١٦٢)، وذكره المنذري في الترغيب والترهيب (٣٤٢/٢).

(٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب ليس الواصل بالمكافئ، وفي الأدب المفرد (٦٨)، وأبو داود (١٣٢/٢)، الحديث (١٦٩٧)، والترمذي الحديث (١٩٠٨)، والإمام أحمد (١٦٣/٢، ١٩٠، ١٩٢).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم وتحريم قطعها، والإمام أحمد (٢٠٠/٢)، (٤٨٤، ٤١٢).

(٤) البر والصلة للحسن المروزي ص(٦٩)، وقال محققه: رجال إسناده ثقات.

(٥) لقمان: ١٥.



مشركة، أفصلها؟ قال رسول الله ﷺ: «صليها»<sup>(١)</sup>.

ومما يدل على الحث على صلة الرحم المعادية قول الرسول ﷺ: «إن أفضل الصدقة الصدقة على ذي الرحم الكاشح»<sup>(٢)</sup>،<sup>(٣)</sup> وإنما فضلت الصدقة عليه لكان مخالفة هوى النفس، فأما من أعطى من يحبه فإنما ينفق على قلبه وهو اهواه<sup>(٤)</sup>.

## المفهوم التاسع عشر: قذف المؤمنات المحصنات الغافلات من أعظم الكبائر:

لما بين الله عز وجل في الآية السابقة حال الخائضين في الإفك بقوله: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُم مَّا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ ... إلخ شرع هنا في قوله: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِنَّ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾<sup>(٥)</sup>، في توبيخهم، وتعييرهم، وزجرهم، ولم يكتف سبحانه وتعالى بزجرهم وتوبيخهم وتعييرهم بهذه الآية الكريمة فقط، بل إنه سبحانه وتعالى وبخهم وعيرهم وزجرهم في آيات ثمانية أخرى غير الآية الكريمة التي معنا، مما يدل على عظم الذنب، وفضاعة ما جاءوا به من الإثم، والكذب والبهتان والافتراء، وهاك تلك الزواجر التسع:

**الأول:** ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنفُسِهِنَّ خَيْرًا.. إلخ﴾.

**الثاني:** ﴿لَوْلَا جَاءَ وَعَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ... إلخ﴾.

**الثالث:** ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ

عَظِيمٌ﴾.

(١) رواه البخاري في كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين (٢٦٢٠) وفي الجزية (٢١٨٣) وفي الأدب باب صلة الوالد المشرك (٥٩٧٨، ٥٩٧٩)، ومسلم في كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الآخرين.

(٢) الكاشح: المعادي، كأن يضمر العداوة في كشحه وهي خاصرته.

(٣) رواه الإمام أحمد (٤١٦/٥)، والطبراني في الكبير (١٦٥/٤).

(٤) البر والصلة لابن الجوزي ص ١٧٥.

(٥) النور: ١٢.

الرابع: ﴿إِذْ تَلَقَوْنَهُ بِالسِّنِّتِ كَرُّوْا تَقُولُونَ يَا فَوَهِكُمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ .

الخامس: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ .

السادس: ﴿يَعْظُمُكُمْ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ .

السابع: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ . الخ .

الثامن: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رُءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ .

التاسع: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يُشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

ثم يبينُ الله عز وجل عن الوعيد الشديد الذي ينتظر هؤلاء الواقعين في أعراض المسلمين فيقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تُنْفَخُ عَنْهُمْ أَسْفُلُهُمْ وَأَعْرَابُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ نُوَفِّقُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ ففي هذا تهديد ووعيد شديدين للذين يرمون المحصنات عن خبث وعن إصرار، كأمثال ابن أبي عليهِ اللعنة، وبيان أنه لن يسامحهم الله عز وجل ، ولن يعفو عنهم، ولو أفلتوا من الحد في الدنيا، لأن الشهود لم يشهدوا، فعذاب الله عز وجل ينتظرهم في الآخرة، ويومذاك لن يحتاج الأمر إلى شهود .

ويحسم التعبير القرآني جريمة هؤلاء ويبشعها، وهو يصورها رمياً للمحصنات المؤمنات، وهن غافلات عن الشر لم يهمن به قط، ولا خطر على قلوبهن، فهن في غفلة عنه، وهذا ما يكون من الوصف بالغاف، وهن

(١) الفتوحات الإلهية للجمل (٣/٢١١، ٢١٢) والآيات من سورة النور (١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢١) .

غارات غير آخذات حذرهن من الرمية، وهن بريئات الطوايا، مطمئنات لا يحذرن شيئاً، لأنهن لم يأتين شيئاً يحذرنه<sup>(١)</sup> !

ولقد كانت السيدة عائشة - رضي الله عنها - من هذه النوعية من النساء، فقد روى الطبري في تفسيره عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «رميت بما رُميتُ به وأنا غافلة، فبلغني بعد ذلك، قالت: فبينما رسول الله ﷺ عندي جالس إذ أوحى إليه.. ثم استوى جالساً يمسح عن وجهه، قال: يا عائشة أبشري.. فقراً: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْغَافِلَاتِ لِلْخَيْثِيبِ وَالْخَيْثُوبِ لِلْخَيْثِيبِ وَالطَّيِّبَاتِ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (٢٦) ﴿ (١) النور<sup>(٢)</sup>.

وهذه الجريمة تتمثل فيها البشاعة كما تتمثل فيها الخسة.. ومن ثم يعاجل مقترفها باللعنة؛ لعنة الله لهم. وطردهم من رحمته تعالى في الدنيا والآخرة، ثم يرسم ذلك المشهد الأخاذ: ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ فإذا بعضهم يتهم بعضاً بالحق، إذ كانوا يتهمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالإفك، وهي مقابلة في المشهد مؤثرة، على طريقة التناسق الفني في التصوير القرآني.

(١) في ظلال القرآن (٢٥٠٥/٤) بتصريف.

(٢) النور: ٢٣ - ٢٦.

(٣) جامع البيان للطبري (١٠٢/١٨، ١٠٤) والدر المنثور (١٦٥/٦).

﴿يَوْمَذُيُوفِيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ ويجزيهم جزاءهم العدل، ويؤدي لهم حسابهم الدقيق، ويومئذ يستيقنون مما كانوا يستريبون<sup>(١)</sup>.

﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾. العادل الظاهر، العدل الذي لا ظلم في حكمه، والمحق الذي لا يوصف بباطل، فحق أن يتقى سبحانه وتجتنب محارمه<sup>(٢)</sup>.

**المفهوم العشرون: انجذاب الشيء لشبيهه فالطيب لا يميل إلا للطيبة والخبث لا يميل إلا للخبیثة:**

قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾<sup>(٣)</sup>.

هذه الآية الكريمة كما يقول الشيخ المراغي: تشرح الغرائز والطباع، وتبين أن الإنسان بل هذا الوجود لا تلاؤم بين أجزائه إلا بصفات مناسبة، فالكرة الأرضية متجاذبة الأجزاء، وكرة الهواء مطيعة لمجموعها لما بينهما من تناسب وتشابه في الصفات، وهكذا أخلاق الناس وصفاتهم إذا تشابهت اتفقوا<sup>(٤)</sup>، وهذا من عدل الله في اختياره الذي ركبه في الفطرة، وحققه في واقع الناس، فقد جعل الله عز وجل النفس الخبيثة تلتئم بالنفس الخبيثة، والنفس الطيبة تمتزج بالنفس الطيبة، وعلى هذا تقوم العلاقات بين الأزواج، وما كان يمكن أن تكون السيدة عائشة رضي الله عنها كما رموها، وهي مقسومة لأطيب نفس على ظهر الأرض<sup>(٥)</sup>، فهي رضي الله عنها بريئة من تهمة الإفك، لأنها زوج رسول الله ﷺ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون لرسول الله ﷺ أزواج خبيثات، لأن عصمته ﷺ وكرامته على الله

(١) في ظلال القرآن (٢٥٠٥/٤) بتصرف.

(٢) الكشاف ص ٧٢٤ بتصرف.

(٣) النور: ٢٦.

(٤) تفسير المراغي (٩٢/١٨).

(٥) في ظلال القرآن (٢٥٠٥/٤) بتصرف.

تبارك وتعالى يأبي الله معها أن تكون أزواجه غير طبيبات، فمكانة رسول الله ﷺ كافية في الدلالة على براءة زوجه، وطهارة أزواجه كلهن. وهذا من الاستدلال على حال الشيء بحال مقارنه ومماثله، وفي هذا تعريض بالذين اختلقوا الإفك بأن ما أفكوه لا يليق مثله إلا بأزواجهم. فقولُه: ﴿الْحَيْثُ لِلْحَيْثِينَ﴾ تعريض بالمنافقين المختلقين للإفك<sup>(١)</sup>.

## المفهوم الحادي والعشرون: حكم رمي السيدة عائشة أو إحدى أمهات المؤمنين بالإفك:

أولاً: حكم من رمي السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالإفك: أجمع العلماء على أن من طعن في السيدة عائشة - رضي الله عنها - مما برأها الله عز وجل منه، وبما رماها به المنافقون فإنه كافر مكذب لما ذكره الله عز وجل في كتابه من إخباره ببراءتها وطهارتها، ويجب قتله عقوبة له.

قال ابن القيم - رحمه الله -: (واتفقت الأمة على كفر قاذفها)<sup>(٢)</sup>.

وقال النووي - رحمه الله - في تعليقه على حديث الإفك: براءة عائشة - رضي الله عنها - من الإفك، وهي براءة قطعية بنص القرآن العزيز، فلو تشكك فيها إنسان والعياذ بالله صار كافراً مرتداً بإجماع المسلمين، قال ابن عباس وغيره: لم تزن امرأة نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا إكرام من الله تعالى لهم<sup>(٣)</sup>.

وقال القاضي أبو يعلى - رحمه الله: من قذف عائشة بما برأها الله

(١) التحرير والتنوير (١٨/١٩٤). وتفسير أبي السعود (٤/٥٢).

(٢) زاد المعاد (١/١٠٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ص (١٦٣).

منه كفر بلا خلاف، وقد حكى الإجماع على هذا غير واحد، وصرح غير واحد من الأئمة بهذا الحكم<sup>(١)</sup>.

وقال ابن كثير - رحمه الله - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(٢)</sup>.

أجمع العلماء رحمهم الله قاطبة على أن من سبها - أي السيدة عائشة - رضي الله عنها - بعد هذا، ورمأها بما رماها به بعد هذا الذي ذكر في هذه الآية فإنه كافر، لأنه معاند للقرآن<sup>(٣)</sup>.

كما نص على ذلك أبو بكر بن العربي<sup>(٤)</sup> وابن قدامة المقدسي<sup>(٥)</sup>. وروي عن مالك - رحمه الله - أنه قال: من سب أبا بكر جلد، ومن سب عائشة قتل، قيل له: لم؟ قال: من رماها فقد خالف القرآن، لأن الله يقول: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعْرُدُوا بِالْمِثْلِهِ بِأَبْدَانِ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾<sup>(٦)</sup> فمن عاد لمثله فقد كفر<sup>(٧)</sup>.

قال أبو محمد بن حزم - رحمه الله: قول مالك هنا صحيح، وهي ردة تامة، وتكذيب لله تعالى في قطعه ببراءتها<sup>(٨)</sup>.

وقال السيوطي عند قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾<sup>(٩)</sup> الآيات، قال: نزلت في براءة عائشة فيما قذفت به، فاستدل به الفقهاء على أن قاذفها يقتل لتكذيبه لنص القرآن.

(١) الصارم المسلول لابن تيمية (٥٦٦، ٥٦٧).

(٢) النور: ٢٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢٧٦/٣).

(٤) أحكام القرآن (٣٦٦/٣).

(٥) لعة الاعتقاد ص (٢٩).

(٦) النور: ٢٥.

(٧) الإمام مالك مفسرا، جمع وتحقيق وتقديم محمد لحر ص (٢٩٢)، والشفاء للقاضي عياض (١١/٩) وأحكام

القرآن لابن العربي (٣٦٦/٧).

(٨) المحلى لابن حزم (٤١٥/١١).

(٩) النور: ١١.

قال العلماء: قذف عائشة كفر، لأن الله سبحانه نفسه عند ذكره، قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>، كما سبح نفسه عند ذكر ما وصفه به المشركون من الزوجة والولد<sup>(٢)</sup>.

وقال الكيا الهراسي في أحكام القرآن: قال علماؤنا: من صدق قذفة عائشة فقد كفر؛ لأنه راد لخبر الله تعالى على كذبهم<sup>(٣)</sup>.

وقال الزمخشري - رحمه الله - في كشافه: لو فليت القرآن الكريم كله، وفتشت عما أوعد به العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك السيدة عائشة رضوان الله عليها، ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد، والعتاب البليغ، والزجر العنيف، واستعظام ما ركب من ذلك، واستفظاع ما أقدم عليه ما أنزل فيه عن طرق مختلفة، وأساليب مفتتة، كل واحد منها كاف في بابه، ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكفى بها، حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً، وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة، وبأن ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم مما أفكوا وبهتوا، وأنه يوفيهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهل له، حتى يعلموا عند ذلك ﴿يَوْمَ يُؤْفِكُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ فأوجز في ذلك وأشبع، وفصل وأجمل، وأكد وكرر، وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاعة، وما ذلك إلا لأمر، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه كان بالبصرة يوم عرفة، وكان يسأل عن تفسير القرآن حتى سئل عن هذه الآيات. فقال: من أذنب ذنباً ثم تاب منه قبلت توبته إلا من خاض في أمر عائشة، وهذه منه مبالغة وتعظيم لأمر الإفك، ولقد برأ الله تعالى أربعة بأربعة، برأ يوسف بلسان الشاهد،

(١) النور: ١٦.

(٢) الإكليل في استنباط التنزيل ص (١٦٠). وانظر الشفا للقاضي عياض (٩/٢ - ١١).

(٣) أحكام القرآن للکيا الهراسي (٣٠٨/٣).

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾<sup>(١)</sup> وبرأ موسى من قول اليهود فيه بالحجر الذي ذهب بثوبه، وبرأ مريم بإنطاق ولدها حين نادى من حجرها ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾<sup>(٢)</sup>، وبرأ عائشة بهذه الآيات العظام في كتابه المعجز المتلو على وجه الدهر، مثل هذه التبرئة بهذه المبالغات، فانظر كم بينها وبين تبرئة أولئك، وما ذلك إلا لإظهار علو منزلة رسول الله ﷺ، والتبويه على إنافة محل سيد ولد آدم، وخيرة الأولين والآخرين، وحجة الله على العالمين، ومن أراد أن يتحقق عظمة شأنه ﷺ، وتقدم قدمه، وإحرازه لقصب السبق دون كل سابق، فليتحقق ذلك من آيات الإفك، وليتأمل كيف غضب الله له في حرمة، وكيف بالغ في نفي التهمة عن حجابته<sup>(٣)</sup>.

**ثانياً:** حكم من رمى غير عائشة من بقية أزواجه ﷺ:

اختلف العلماء في حكم سب ورمي أمهات المؤمنين غير السيدة عائشة رضي الله عن الجميع إلى قولين:

**الأول:** أنه كَسَابٌ غيرهن من الصحابة رضي الله عن الجميع<sup>(٤)</sup>.

**القول الثاني وهو أصح القولين:** أن من قذف أي زوجة من زوجات رسول الله ﷺ فهو كقذف السيدة عائشة - رضي الله عنها.

(١) يوسف: ٢٦.

(٢) مريم: ٣٠.

(٣) الكشاف ص(٧٢٣، ٧٢٤).

(٤) اختلف العلماء في حكم من سب الصحابة أو انتقصهم: فذهب جمع منهم إلى تكفير من سب الصحابة، أو انتقصهم، وطعن في عدالتهم وصرح ببيغضهم، وأن من كانت هذه حالته فقد هدر دمه، وحل قتله إلا أن يتوب، ويترحم عليهم، والتوبة تجب ما قبلها. شرح الطحاوية (٤٦٨)، وأصول السرخسي (١٣٤/٢)، والجامع لأحكام القرآن (٢٩٧/١٦)، والكبائر للذهبي (٢٣٥) ومنهم من ذهب إلى أن من سب الصحابة رضي الله عنهم لا يكفر بذلك، بل يفسق ويضلل كما أنه لا يقتل، بل يكتفى بتعزيره وتأديبه. وقد ذهب إلى ذلك الإمام أحمد كما في السنة (١٧)، والإمام مالك في رواية كما في الشفا (١١٠٨/٢) وآخرين.



قال ابن حزم - رحمه الله - بعد أن ذكر أن رمي السيدة عائشة - رضي الله عنها - ردة تامة، وتكذيب للرب جل وعلا، في قطعه ببراءتها، قال: «وكذلك القول في سائر أمهات المؤمنين، لا فرق لأن الله تعالى يقول: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فكلهن مبررات من قول إفاك، والحمد لله رب العالمين»<sup>(٢)</sup>

وعن ابن شعبان قال: من سب غير عائشة من أزواج النبي ﷺ ففيها قولان: وحكاهما: ورجح أنه يقتل، لأنه سب النبي ﷺ بسب حليلته<sup>(٣)</sup>.

كما حكى ابن تيمية هذين القولين، ثم قال: والثاني: وهو الأصح أنه من قذف واحدة من أمهات المؤمنين فهو كقذف عائشة - رضي الله عنها. وذلك لأن هذا فيه عار وفضاضة على رسول الله ﷺ، وأذى له أعظم من أذاه بنكاحهن<sup>(٤)</sup>.

كما رجحه ونص عليه ابن كثير في تفسيره:

ولما روي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قرأ سورة النور ففسرها، فلما أتى على هذه الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾<sup>(٥)</sup>، قال: هذه في عائشة وأزواج النبي ﷺ ولم يجعل لمن فعل ذلك توبة، وجعل لمن رمى امرأة من المؤمنات من غير أزواج النبي ﷺ التوبة، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾<sup>(٦)</sup>، ولم يجعل لمن قذف امرأة من أزواج النبي ﷺ توبة، ثم تلا هذه الآية: ﴿لُعِنُوا﴾

(١) النور: ٢٦.

(٢) المحلى (١١/٤١٥).

(٣) الشفا (٢/١١١٣).

(٤) الصارم المسلول ص (٥٦٧).

(٥) النور: ٢٣.

(٦) النور: ٤، ٥.

فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾، فهُمْ بَعْضُ الْقَوْمِ أَنْ يَقُومَ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ  
فِيَقْبَلُ رَأْسَهُ لِحَسَنِ مَا فَسَّرَ (٢).

فقد بين ابن عباس - رضي الله عنهما - أن هذه الآية إنما نزلت  
فيمن قذف السيدة عائشة - رضي الله عنها - وأمهات المؤمنين لما في  
قذفهن من الطعن على رسول الله ﷺ وعييه، فإن قذف المرأة أذى لزوجها  
كما هو أذى لابنها، لأنه نسبة له إلى الدياثة، وإظهار لفساد فراشه، فإن  
زنا امرأته يؤذيه أذى عظيمًا، ولهذا جوز له الشارع أن يقذفها إن زنت ودرأ  
الحد عنه باللعان، ولم يبيح لغيره أن يقذف امرأة بحال (٣).

وقال الألويسي - رحمه الله: ظاهر قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ  
الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ﴾ كفر قاذف أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن، لأن  
الله عز وجل رتب على رميهن عقوبات مختصة بالكفار والمنافقين، فقال  
سبحانه: «لعنوا» أي: بسبب رميهن إياهن «في الدنيا والآخرة» حيث يلعنهم  
اللاعنون والملائكة في الدارين، «ولهم» مع ما ذكر من اللعن «عذاب عظيم»  
هائل لا يقادر قدره، لغاية عظم ما اقترفوه من الجناية. وكذا ذكر سبحانه  
تعالى أحوالاً مختصة بأولئك، فقال عز وجل «يوم تشهد عليهم» الخ،  
ودليل الاختصاص قوله سبحانه ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ (٤)، إلى آخر الآيات  
الثلاث، ومن هنا قيل: إنه لا يجوز أن يراد بالمحصنات الخ المتصفات  
بالصفات المذكورة أمهات المؤمنين وغيرهن من نساء الأمة، لأنه لا ريب في  
أن رَمَى غير أمهات المؤمنين ليس بكفر، والذي ينبغي أن يعول الحكم عليه  
بكفر من رمى إحدى أمهات المؤمنين بعد نزول الآيات. وتبين أنهن طيبات  
سواء استباح الرمي، أم قصد الطعن برسول الله ﷺ، أم لم يستبح، ولم

(١) النور: ٢٣.

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠٤/١٨) والدر المنثور (١٦٥/٦).

(٣) الصارم المسلول ص (٤٥).

(٤) فصلت: ١٩.

يقصد، وأما من رمى قبل فالحكم بكفره مطلقاً غير ظاهر<sup>(١)</sup>.

وبهذا يتضح رجحان القول بأن حكم قذف بقية أمهات المؤمنين كقذف السيدة عائشة -رضي الله عنهن جميعاً - لما في ذلك من العار والفضاضة والأذى للنبي ﷺ، وكل ذلك موجب للكفر، مستحق صاحبه القتل<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم الثاني والعشرون: القرعة بين الزوجات عند إرادة السفر ببعضهن:

ورد في حديث الإفك قول السيدة عائشة - رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين نساءه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة فأقرع بيننا في غزوة غزاها، فخرج فيها سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ، وذلك بعد أن أنزل الحجاب».

وهذا الفعل من الرسول ﷺ فيه بيان عملي للصحابة الكرام رضوان الله عليهم بأنه يجب على من عدد منهم أن يعدل بين زوجاته، قال تعالى: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَتَى وَتِلْكَ وَرُبِعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةٌ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ

الَّذِينَ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٣)</sup>.

فمن العدل بين الزوجات أن الزوج المتزوج من أكثر من واحدة إذا أراد السفر أقرع بين نساءه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه، وليتأس في ذلك برسول الله ﷺ الذي كان يفعل ذلك رغم أنه كان لا يجب عليه العدل بين زوجاته.

(١) روح المعاني (١٨/١٢٦ . ١٢٨) بتصرف.

(٢) العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط ص (٢٨٢).

(٣) النساء: ٣.

يقول الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعَيْتَ مَنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴾ (١).

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية، وأصح ما قيل فيها: التوسعة على النبي ﷺ في ترك القسم، فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته، وهذا القول هو الذي يناسب ما مضى، وهو الذي ثبت معناه في الصحيح عن عائشة - رضي الله عنها؛ قالت: كنت أغار على اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ وأقول: أو تهب المرأة نفسها لرجل؟ فلما أنزل الله عز وجل: ﴿ تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤَيِّ إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمِنْ ابْنَعَيْتَ مَنْ عَزَلْتَ ﴾ (٢) قالت: قلت: والله ما أرى ربك إلا يسارع في هواك.

قال ابن العربي: هذا الذي ثبت في الصحيح هو الذي ينبغي أن يعول عليه - والمعنى المراد - هو أن النبي ﷺ كان مخيراً في أزواجه - إن شاء أن يقسم قسم، وإن شاء أن يترك القسم ترك - فخص النبي ﷺ بأن جعل الأمر إليه فيه، لكنه كان يقسم من قبل نفسه دون أن يفرض ذلك عليه، تطيباً لنفوسهن، وصوناً لهن عن أقوال الغيرة التي تؤدي إلى ما لا ينبغي (٣)، وقال الشوكاني في فتح القدير بعد أن حكى هذا القول: هذا قول جمهور المفسرين في معنى الآية، وهو الذي دلت عليه الأدلة الثابتة في الصحيح وغيره (٤).

(١) الأحزاب: ٥١.

(٢) الأحزاب: ٥١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/٢٤٩٢).

(٤) فتح القدير (٤/٢٨٢).

فعدل الرسول ﷺ بين زوجاته رغم أنه كان لا يجب عليه العدل بينهن فيه تقدير للمرأة، واحترام لها، والنظر إليها على أنها إنسانة لها مشاعرها وعواطفها وأحاسيسها، ولا يجوز بحال إغفال هذه الحقيقة في شأن هذه الإنسانية.

ومن هنا فإنه يجب على الأزواج العدل بين نسائهن، وإجراء القرعة بينهن عند إرادة السفر ببعضهن، وهذا هو الذي ذهب إليه جمهور أهل العلم، وذلك للأدلة الصحيحة الكثيرة التي تدل على ما ذهب إليه جمهور أهل العلم.

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى: قولها: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفرا أقرع بين نسائه» هذا دليل لمالك والشافعي وأحمد وجماهير العلماء في العمل بالقرعة في القسم بين الزوجات، وفي العتق، والوصايا، والقسمة ونحو ذلك، وقد جاءت فيها أحاديث كثيرة في الصحيح مشهورة، قال أبو عبيد: عمل بها ثلاثة من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - يونس وزكريا ومحمد ﷺ، قال ابن المنذر: استعمالها كالإجماع، قال: ولا معنى لقول من ردها، والمشهور عن أبي حنيفة إبطالها، وحكي عنه إجازتها، قال ابن المنذر وغيره: القياس تركها، لكن عملنا بها للأثار، وفيه القرعة بين النساء عند إرادة السفر ببعضهن، ولا يجوز أخذ بعضهن بغير قرعة، هذا مذهبنا، وبه قال أبو حنيفة، وآخرون، وهو رواية مالك، وعنه رواية أن له السفر بمن شاء منهن بلا قرعة، لأنها قد تكون أنفع له في طريقه، والأخرى أنفع له في بيته وماله<sup>(1)</sup>.

ومن تمام هذه القضية: أن العلماء أجمعوا على أنه لا يجب على الزوج بعد رجوعه من السفر قضاء مدة السفر للنسوة المقيمات.

(1) شرح النووي على مسلم ص(١٦٢٨).

قال النووي - رحمه الله: إنه لا يجب قضاء مدة السفر للنسوة المقيمت، وهذا مجمع عليه إذا كان السفر طويلاً، وحكم القصير حكم الطويل على المذهب الصحيح، وخالف فيه بعض أصحابنا<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الثالث والعشرون: جواز خروج النساء في الغزو والقيام بما يناسبهن من أعمال:

في قول السيدة عائشة - رضي الله عنها - في حديثها عن الإفك: «فأقرع بيننا في غزوة غزاها» دليل على جواز مشاركة النساء الرجال في الغزو، وهذا ما كان يحدث بالفعل زمن رسول الله ﷺ، فقد كانت النساء يشاركن الرجال في الغزو، ويقمن بجملة من الأعمال العظيمة، ومنها أنهن كن يسقين المجاهدين، ويداوين الجرحى، ويرددن القتلى إلى المدينة.

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ لَمَّا كَانَ يَوْمٌ أُحِدَ انْهَزَمَ النَّاسُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ وَلَقَدْ رَأَيْتُ عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ وَأُمَّ سُلَيْمٍ وَإِنَّهُمَا لَمُشْمِرَتَانِ أَرَى خَدَمَ سُوقِهِمَا<sup>(٢)</sup> تَنْقِرَانِ الْقَرْبَ، وَقَالَ غَيْرُهُ تَنْقِرَانِ الْقَرْبَ عَلَى مُتُونِهِمَا<sup>(٣)</sup> ثُمَّ تُفْرَعَانِهِ فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ ثُمَّ تَرْجِعَانِ فِتْمَلَانِهَا ثُمَّ تَجِيئَانِ فَتُقْرَعَانِهَا فِي أَفْوَاهِ الْقَوْمِ<sup>(٤)</sup>.

وعن الربيع بنت معوذ - رضي الله عنها - قالت: كنا نغزو مع النبي ﷺ فنسقي القوم، ونخدمهم، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة<sup>(٥)</sup>.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص(١٦٣٠).

(٢) خدم بفتح الخاء والدال الواحدة: خدمة، وهي الخلخال، وأما السوق: فجمع ساق، وهذه الرواية للخدم لم يكن فيها نهي، لأن هذا كان يوم أحد قبل أمر النساء بالحجاب، وتحريم النظر إليهن، ولأنه لم يذكر هنا أنه تمتد النظر إلى نفس الساق، فهو محمول على أنه حصلت تلك النظرة فجأة بغير قصد، ولم يستدعها. شرح النووي على مسلم ص(١١٧٥).

(٣) متونهما أي: على ظهورهما. المرجع السابق.

(٤) رواه البخاري الحديث (٢٨٨٠، ٢٩٠٢، ٢٨١١، ٤٠٦٤)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير، الحديث (١٨١١).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، الحديث (٢٨٨٢، ٢٨٨٣)، وكتاب الطب، الحديث (٥٦٧٩).

قال الإمام النووي . رحمه الله : « كان النبي ﷺ يغزو بالنساء فيسقين الماء، ويداوين الجرحى » فيه خروج النساء في الغزو، والانتفاع بهن في السقي والمداواة ونحوهما ..

وهذه المداواة لمحارمهن وأزواجهن، وما كان منها لغيرهم لا يكون فيه مس بشرة إلا في موضع الحاجة» (١).

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ اتَّخَذَتْ يَوْمَ حُنَيْنٍ خَنْجَرًا فَكَانَ مَعَهَا فَرَأَاهَا أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذِهِ أُمَّ سُلَيْمٍ مَعَهَا خَنْجَرٌ فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا هَذَا الْخَنْجَرُ». قَالَتْ اتَّخَذْتُهُ إِنْ دَنَا مِنِّي أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ بَقَرْتُ بِهِ بَطْنَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَضْحَكُ، قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَقْتُلَ مَنْ بَعَدَنَا مِنَ الطُّلُقَاءِ (٢) انْهَرَمُوا بِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أُمَّ سُلَيْمٍ إِنْ اللَّهَ قَدْ كَفَى وَأَحْسَنَ» (٣).

وعن أم عطية الأنصارية - رضي الله عنها - قالت: غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات أخلفهم في رحالهم، فأصنع لهم الطعام، وأداوي الجرحى، وأقوم على المرضى» (٤).

وفي حديث طويل عن ثعلبة بن مالك أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ  
عن أم سليط إنها: « كانت تزفر (٥) لنا القرب يوم أحد» (٦).

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص (١١٧٥).

(٢) الطلقاء هم الذين أسلموا من أهل مكة يوم الفتح، سموا بذلك لأن النبي ﷺ من عليهم وأطلقهم وكان في إسلامهم ضعف، فاعتقدت أم سليم أنهم منافقون، وأنهم استحقوا القتل بانهزامهم وغيره، شرح النووي ص (١١٧٥).

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، الحديث (١٨٠٩).

(٤) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير الحديث (١٨١٢).

(٥) تَزْفِرُ: بفتح التاء وسكون الراء وكسر الفاء: تحمل وزنا ومعنى.

(٦) صحيح مسلم كتاب الجهاد والسير، الحديث (٢٨٨١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وقد سئل هل كان رسول الله ﷺ يغزو بالنساء؟ وهل كان يضرب لهن بسهم؟ فقال: وقد كان ﷺ يغزو بهن، فيداوين الجرحى، ويُحَدِّثْنَ<sup>(١)</sup> من الغنيمة، وأما بسهم فلم يضرب لهن»<sup>(٢)</sup>.

قال النووي: وفي هذا أن المرأة تستحق الرضخ ولا تستحق السهم، وبهذا قال أبو حنيفة والثوري والليث والشافعي وجماهير العلماء، وقال الأوزاعي: تستحق السهم إن كانت تقاتل أو تداوي الجرحى، وقال مالك: لا رضخ لها، وهذان المذهبان مردودان بهذا الحديث الصحيح الصريح<sup>(٣)</sup>.

**المفهوم الرابع والعشرون: استحباب ملاطفة الرجل زوجته وحسن المعاشرة<sup>(٤)</sup> حتى في أحلك الظروف:**

تقول السيدة عائشة - رضي الله عنها - في حديث الإفك: قدمنا المدينة فاشتكت حين قدمنا المدينة شهراً والناس يفيضون في قول أهل الإفك، ولا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبنني في وجعي أنني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول: « كيف تيكم؟ » فذاك يريبنني، ولا أشعر بالشر<sup>(٥)</sup>.

في هذا القول نرى أن الرسول ﷺ كان يعامل السيدة عائشة - رضي الله عنها - بلطف وبر ورفق، لكنه ليس كاللطف والبر والرفق الذي كان يعاملها به حين مرضها في السابق.

لكنه ﷺ لم يكن عنيفاً معها، فلم يعاملها بغلظة ولا بجفاء، بل

(١) يحذين: بضم الياء وسكون الحاء وفتح الذال المعجمة، أي: يعطين تلك العطية، وتسمى الرضخ. شرح النووي على صحيح مسلم ص(١١٧٦).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، الحديث (١٨١٢).

(٣) شرح النووي السابق.

(٤) شرح النووي ص(١٦٣٠).

(٥) سبق تخريجه.



عاملها معاملة تحس منها أن هناك حدثاً ما وقع، فإذا كانت قد أخطأت أو قصرت فلتفطن لذلك بتغيير الحال، فتعتذر أو تعترف.

وعن ذلك يقول ابن حجر - رحمه الله - في الفتح: وفيه ملاطفة الزوجة، وحسن معاشرتها، والتقصير من ذلك عند إشاعة ما يقتضي النقص وإن لم يتحقق، وفائدة ذلك أن تتفطن لتغيير الحال، فتعتذر أو تعترف<sup>(١)</sup>.

ويقول النووي - رحمه الله: إنه إذا عرض عارض، بأن سمع عنها شيئاً أو نحو ذلك يقلل من اللطف ونحوه، لتفطن هي أن ذلك لعارض، فتسأل عن سببه فتزيله<sup>(٢)</sup>.

وهذا التصرف فيه حكمة عظيمة، إذ يدفع إلى معالجة الأمر بهدوء ورفق، ويعبر عن الحزم الذي لا بد منه في كثير من الحالات، كما يعبر عن ضرورة ضبط العواطف الجياشة في بعض المواقف.

وهذا لا يتنافى ولا يتناقض مع مبدأ اللطف وحسن المعاشرة، بل يعبر عن التكامل، كما بينه ابن حجر والنووي رحمهما الله تعالى، وإعطاء كل مسألة حقها بما يناسبها، كما أن هذا الاستثناء لا يعني بحال من الأحوال، أن نبني أمورنا على الظن، أو نأخذ بالتهمة، أو نحاسب على الشك، أو نقضي بلا برهان ولا بينة، أو ما إلى ذلك من مفردات هذا الشأن، إنما المسألة لا تعدو كونها حالة تأن وروية في التعامل مع الآخر<sup>(٣)</sup>.

وعلى ذلك فإنه ينبغي على الزوج أن يتعامل مع زوجته بتأن وروية إذا بلغه أي شيء عن سلوكها، فربما يكون كلاماً ملفقاً لا حقيقة له في الواقع، بل هو من كيد الكائدين، وحسد الحساد، وحقد الحاقدين، كما

(١) فتح الباري (٢/٢٠٧٣).

(٢) شرح النووي ص (١٦٣١).

(٣) حديث الإفك ص (١٧٧) بتصريف.

حدث للسيدة عائشة - رضي الله عنها - من المنافقين، واختلافهم عليها  
حادث الإفك.

ثم بعد ذلك عليه أن يبحث في الأمر إلى أن تظهر له حقيقته، ثم  
يتصرف معها التصرف اللائق بعد ذلك.

**وهذه النقطة تجعلنا نخرج على قضية أخرى ألا وهي:**

**معاملة الزوج لزوجته بلطف ورفق ومعروف، قال تعالى:**

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسِيءٌ أَنْ تَكَرَّهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

فعلى الزوج أن يكرم زوجته ويلاطفها ويحسن معاشرتها وذلك  
بالكلمة الطيبة، والسلوك الرحيم، والمجاملة والملاطفة في مكانها المناسب  
قال ﷺ: «استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في  
الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا  
بالنساء»<sup>(٢)</sup>.

وقال ﷺ: « لا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضي منها  
آخر»<sup>(٣)</sup> وقال ﷺ: «أن تطعمها إذا طعمت، وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب  
الوجه ولا تقبح، ولا تهجر إلا في الفراش»<sup>(٤)</sup>.

وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً، وخياركم خياركم  
نساءهم»<sup>(٥)</sup> وقال ﷺ: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوان عندكم،  
ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن  
فاهجروهن في المضاجع، واضربوهن ضرباً غير مبرح، فإن أظعنكم فلا

(١) النساء: ١٩.

(٢) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، الحديث (٢٣٣١) ومسلم في الرضاع، الحديث (٢٦٢٢).

(٣) رواه ابن ماجة، الحديث (١٨٠٥، ١٨٠٧).

(٤) رواه أبو داود، الحديث (٢١٤٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٠٥/٧).

(٥) رواه أبو دود، الحديث (٤٦٨٢) والإمام أحمد (٢/٢٥٠، ٤٧٢، ٥٢٧) والدارمي (٢٣٢/٢) والحاكم (٣/١).

تبعوا عليهم سبيلاً، ألا إن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً، فأما حقكم على نسائكم: ألا يوطئن فرشكم من تكرهون، ولا يأذن في بيوتكم لمن تكرهون، ألا وحقهن عليكم أن تحسنوا إليهن في كسوتهن وطعامهن»<sup>(١)</sup>.

ومن ضوابط المعاشرة بالمعروف أن لا يتعامل الزوج مع زوجته على افتراض أنها ملاك لا تخطئ، ولا يعترئها قصور، ولا يحيط بها ضعف، بل عليه أن يتعامل معها بخاصية الواقعية، فربما يسخط منها خلقاً، ولكن يرضى منها خلقاً آخر، فتتعدل القضية، وتتوازن المسألة، وتستمر المسيرة، وهذا هو المطلوب<sup>(٢)</sup>.

وإذا كان من الواجب على الزوج أن يعامل زوجته بالمعروف كما قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾<sup>(٣)</sup>. فإنه من الواجب على الزوجة كذلك أن تعاشر زوجها بالمعروف، فحسن المعاشرة إذاً ليس مقصوراً ومحصوراً ومطلوباً من طرف دون آخر، بل هو مطلوب من الطرفين معا، فكما يجب على الزوج أن يعاشر زوجته بالمعروف، فكذلك يجب على الزوجة أن تعامل زوجها بقواعد حسن العشرة، والأمر إذن عملية مشتركة. قال تعالى:

﴿وَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾<sup>(٤)</sup>، قال الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية: يجب لهن من الحق على الرجال مثل الذي يجب لهن عليهن بالمعروف، بالوجه الذي لا ينكر في الشرع، وعادات الناس، فلا يكلفنهم ما ليس لهن، ولا يكلفونهن ما ليس لهن، ولا يعنف أحد الزوجين صاحبه، والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب في كونه حسنة لا في جنس الفعل، فلا يجب عليه إذا غَسَلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل نحو ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال،

(١) رواه الترمذي في الرضاع، الحديث (١١٦٥) وقال عنه: حسن صحيح، وأبو داود في النكاح الحديث (٤٢) وابن

ماجة في النكاح (٣)، والإمام أحمد في المسند (٧٢/٥).

(٢) حديث الإفك ص (١٧١).

(٣) النساء: ١٩.

(٤) البقرة: ٢٢٨.

«درجة» زيادة في الحق وفضيلة، قيل: المرأة تنال من اللذة ما ينال الرجل، وله الفضيلة بقيامه عليها، وإنفاقه في مصالحها<sup>(١)</sup>.

ويقول الكاساني: (المعاشرة بالمعروف هي المعاشرة الرضية، وهي التي يرضى بها الشخص لنفسه، بمعنى أن من وجبت عليه هذه المعاشرة أن يؤديها إلى من وجبت له، على نحو يرتضيها هو لنفسه لو فعلت له، فيدخل في ذلك المعاشرة الجميلة من المرأة مع زوجها، بالإحسان باللسان، واللطف بالكلام، والقول بالمعروف الذي يُطَيَّبُ به نفس الزوج)<sup>(٢)</sup> فالعملية مشتركة.

### المفهوم الخامس والعشرون: إذا ظننت فلا تتحقق:

في قول السيدة عائشة - رضي الله عنها - في حديث الإفك - في حديث الإفك عن تصرف الرسول الكريم ﷺ معها أثناء فترة حديث الإفك « وكنت أرى منه جفوة ولا أدري من أي شيء». دليل على فطنتها، وذكائها، ودقة ملاحظتها، وحسن استنباطها لأنها استشعرت منه بعض الجفاء، ولكنها لما لم تكن تدري السبب لم تبالغ في التقيب عن ذلك حتى عرفته<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا تعليم لنساء الأمة أنه من الواجب عليهن ملاحظة معاملة الأزواج لهن، فإذا اختلفت معاملة الزوج لزوجته، وخرجت عن طبيعتها المعهودة في أعم الأحوال، فلتنظر المرأة في حالها، ولتفتش في نفسها ماذا يحدث منها، لماذا تغير زوجها من جهتها، ماذا فعلت من أمور جعلت زوجها يعاملها بتلك المعاملة، لكنها مع كل ذلك لا ينبغي لها أن تتجسس وتسيء الظن في زوجها، لقول الرسول ﷺ: «إذا ظننت فلا تتحقق»<sup>(٤)</sup>.

(١) الكشف ص (١٢٢).

(٢) بدائع الصنائع للكاساني (٢/٣٣٤).

(٣) فتح الباري (٢/٢٠٦٧).

(٤) إتحاف السادة المتقين (٧/٥٥٢، ٧٦، ٨/٥١، ٧٦) وتفسير القرآن العظيم (٧/٣٥٧) والدر المنثور (٦/٩٢) وفتح الباري (١٠/٢١٣، ٤٨٢) والتمهيد (٦/١٢٥).

## المفهوم السادس والعشرون: من آداب الإسلام تقديم الكبار وتفويضهم بالكلام

في قول السيدة عائشة - رضي الله عنها - في حديث الإفك: «فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب عني رسول الله ﷺ فيما قال: فقال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، فقلت لأمي: أجيبني عني رسول الله ﷺ، فقالت: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، وهذا الرد من السيدة عائشة - رضي الله عنها - على رسول الله ﷺ فيه دلالة على الأدب الإسلامي الرفيع الذي كانت تتخلق به، فقد قدمت أبويها للرد على رسول الله ﷺ ولم تتقدم هي عليهما في الكلام، وهذا هو المتوقع منها، فهي الصديقة ابنة الصديق، الذي تربي في مدرسة النبوة، وهي الصديقة المشهود لها بالأدب الجم، والأخلاق الكريمة، والصلاح والتقوى، والدين والعفاف<sup>(١)</sup>.

وهذا الذي حدث درس من دروس الإسلام العظيمة يعلم الأجيال كلها احترام الكبار وتوقيرهم، وعدم التقدم عليهم، لأنهم أعلم بأمور الحياة، فقد خاضوا تجارب عديدة.

فعلى الآباء والأمهات أن يعلموا أولادهم وبناتهم احترام الكبار وتقديرهم، وأن يبينوا لهم أن ذلك من الأدب النبوي، والخلق الإسلامي الرفيع، قال ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا، ويعرف حق كبيرنا»<sup>(٢)</sup> وقال ﷺ: «إن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم»<sup>(٣)</sup>.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص(١٦٣١).

(٢) رواه الترمذي، الحديث (١٩١٩، ١٩٢٠، ١٩٢١) والإمام أحمد (١٨٥/٢) والحاكم (١٢/١) والطبراني في الكبير (٣٦٨/٨).

(٣) أخرجه أبو داود، الحديث (٤٨٤٣) والبيهقي (١٦٣/٨).

## المفهوم السابع والعشرون: استحباب مشاورة الرجل بطانته وأهله وأصدقاءه فيما ينوبه من الأمور<sup>(١)</sup>؛

ورد في حديث الإفك الذي روته السيدة عائشة - رضي الله عنها أن الرسول ﷺ: «دعا علي بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبث الوحي يستشيرهما في فراق أهله. قالت. أي السيدة عائشة. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم في نفسه لهم من الود، فقال: يا رسول الله! هم أهلك ولا نعلم إلا خيراً. وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك. والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية تصدقك. قالت: فدعا رسول الله ﷺ بربيرة فقال: «أي ربيرة! هل رأيت من شيء يريبك من عائشة؟» قالت له ربيرة: والذي بعثك بالحق إن رأيت عليها أمراً قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله. قالت: فقام رسول الله ﷺ على المنبر فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول. قالت: فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين! من يعذرني من رجل قد بلغ أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي»<sup>(٢)</sup>

وهذا يدل على أن الرسول ﷺ كان يلتزم مبدأ الشورى فيما لم ينزل فيه قرآن، سواء أكان ذلك في الأمور العامة أم الخاصة، وذلك لأن الشورى مهمة غاية الأهمية، فهي من مستلزمات الشريعة الإلهية الكاملة الدائمة، التي لا تقبل التعديل، لموافقها كل زمان ومكان، فالشورى إذاً ليست مقصورة على الجماعة التي تقطع شوطاً في التقدم والرقى، إنما هي من أسس الشريعة الدائمة، فهي من حاجيات الطبائع البشرية، وقد أمر الله

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ص(١٦٣).

(٢) سبق تخريجه.

تعالى بها لأنها تحمل من يعمل بها على التفكير في شؤونه المادية وغيرها، والتطلع إلى مستقبله، فيشترك في الحكم بطريق غير مباشر، وهذا كله يؤدي إلى رقي الجماعة وتقدمها في مضمار الحضارة والعمران.

فالاستفادة من الشورى ليست مقصورة على الجماعات الراقية المتمدنة، وإنما تحتاج إلى الشورى كل جماعة ترغب في إصلاح شأنها، وتقدم بلادها؛ لأنها من أهم أسباب صلاح المجتمع، ومن أهم أسس الحضارة الإسلامية الإنسانية<sup>(١)</sup>.

لذلك فإن الله عز وجل لعظم منزلة الشورى سمى سورة من سور القرآن الكريم سورة الشورى، للدلالة على عظمها وعظم دورها في حياة الفرد والجماعة والدولة والمجتمع والأمة.

وأمر الرسول ﷺ بالالتزام بها في الأمور التي تقبل الاجتهاد والشورى، أما القضايا الثابتة بالنصوص القطعية والتي تم الاتفاق عليها، أو وضع الحكم فيها فالشورى فيها لا تجوز، بل يعد طرحها للشورى جريمة واعتداء على شرع الله تعالى، وتعد على نصوص الشرع.

وعن ذلك يقول الدكتور محمود بابلي: «فإذا كان النص صريحاً واضحاً في إفادة الحكم الذي ورد لأجله بصورة لا تحتمل التأويل، لم يجز تأويله بما يخرج عن ظاهره ولا يحتمله، أي: أن الاجتهاد الممنوع في مورد النص هو ما كان مصادماً لنص ثابت وواضح في المعنى الذي ورد فيه وضوحاً لا يحتمل التأويل. فالمجرم في التشريع أن تخرج على الأمة بقواعد تتصادم مع نصوص الشريعة، ولا تتفق مع مقاصدها وغاياتها، وأن تحلل ما هو حرام، أو تحرم ما هو حلال، ولو جاء ذلك عن شورى، لأن المحلل والمحرم في الشرع الإسلامي هو الله سبحانه، ورسوله الذي يستمد

(١) الشورى: حسن محمد عتر ص(٣٥).

صلاحيته في هذا الصدد من الله سبحانه.

وقد يتجاوز بعضهم الحدود التي رسمها القرآن الكريم، وبينتها السنة النبوية المطهرة، فيرون أنهم أصحاب حق في التشريع بصفقتهم أولياء أمر المسلمين، فيحرمون ويحللون، ويزين لهم الشيطان أعمالهم، فيحسبون أنهم يحسنون صنعا»<sup>(١)</sup>.

### فوائد الشورى:

ذكر الشيخ السعدي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾<sup>(٢)</sup> ما يلي:

«وشاورهم في الأمر» أي في الأمور التي تحتاج إلى استشارة ونظر وفكر، فإن في الاستشارة من الفوائد والمصالح الدينية والدنيوية ما لا يمكن حصره، منها: أن المشاورة من العبادات المتقرب بها إلى الله.

ومنها: أن فيها تسميحاً لخواطرهم، وإزالة لما يصير في القلوب عند الحوادث، فإن من له الأمر على الناس إذا جمع أهل الرأي والفضل وشاورهم في حادثة من الحوادث اطمأنت نفوسهم وأحبوه، وعلموا أنه ليس بمستبد عليهم، وإنما ينظر إلى المصلحة الكلية العامة للجميع، فبدلوا جهدهم ومقدورهم في طاعته، لعلمهم بسعيه في مصالح العموم، بخلاف من ليس كذلك، فإنهم لا يكادون يحبونه محبة صادقة، ولا يطيعونه، وإن أطاعوه فطاعة غير تامة.

ومنها: أن في الاستشارة تنور الأفكار، بسبب إعمالها فيما وضعت له، فصار في ذلك زيادة للعقول.

ومنها: ما تنتجه الاستشارة من الرأي المصيب، فإن المشاور لا يكاد

(١) الشورى في الإسلام، د/محمود بابلي ص(٦٨، ٦٩).

(٢) آل عمران: ١٥٩.



يخطئ في فعله، وإن أخطأ أو لم يتم له مطلوب فليس بملوم، فإذا كان الله يقول لرسوله ﷺ وهو أكمل الناس عقلاً، وأغزرهم علماً، وأفضلهم رأياً، «وشاورهم في الأمر» فكيف بغيره، ثم قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ أي: على أمر من الأمور بعد الاستشارة فيه، إن كان يحتاج إلى استشارة «فتوكل على الله» أي: اعتمد على حول الله وقوته، متبرئاً من حولك وقوتك، «إن الله يحب المتوكلين» عليه اللاجئين إليه (١).

من هنا كان اهتمام الله عز وجل بالشورى، واهتمام الرسول ﷺ بها كذلك، حتى إنه كان يلجأ إليها في أحلك الظروف، فقد لجأ إليها في غزوة بدر، واستشار أصحابه فيها في ثلاث قضايا مفصلة فيها:

**الأولى:** لما خرج الرسول ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين للاستيلاء على عير قريش استطاع المشركون المحافظة على عيرهم، لكن زعماءهم صمموا على حرب الرسول ﷺ، عند ذلك استشار الرسول ﷺ أصحابه من المهاجرين والأنصار هل عندهم استعداد لملاقاة العدو أم لا؟ وألح ﷺ في هذه الشورى عليهم، فأشاروا عليه بملاقاة الأعداء، فنزل على رغبتهم.

**الثانية:** عندما اختار الرسول ﷺ مكاناً لنزول جند الإيمان فيه، ورأي الحباب بن المنذر أن هناك مكاناً أفضل من هذا المختار، وهو النزول عند ماء بدر فوافق الرسول ﷺ على ذلك.

**الثالثة:** فداء الأسرى، ذلك أن الرسول ﷺ استشار أصحابه في شأن الأسرى ونزل على رأي الأغلبية.

وغير ذلك من مواقف وأحداث استشار فيها الرسول ﷺ أصحابه لم ينزل فيها نص إلهي، ونزل الرسول ﷺ فيها على رأي الأغلبية، مما

(١) تيسير الكريم الرحمن للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي ص(١٥٤).

جعل الصحابة رضوان الله عليهم يرون أصالة النزوع إلى الشورى في قلب النبي ﷺ وفكره وتصرفه، تقرباً إلى الله تعالى، فإنه على الرغم من رفعة قدره، ووفرة عقله، وسداد نظره، وتأيد الله عز وجل له بالوحي، وتوقير الصحابة لمكانته، ينأى بنفسه وبأصحابه عن الاستبداد بالرأي، ولا يأنف أن ينزل عن رأيه إلى رأي رجل عادي من أصحابه، فعلموا من ذلك أهمية مكانة الشورى في دين الله تعالى، إذ جعل نبيه ﷺ أعظم قدوة حسنة للإنسانية في تطبيقها، حتى في أحلك الظروف<sup>(١)</sup> عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «ما رأيت أحداً قطُّ كان أكثر مشورةً من رسول الله ﷺ»<sup>(٢)</sup>.

وحديث الإفك صورة من صور الإثبات لهذه الحقيقة في سيرة رسول الله ﷺ، إذ لما وقع استشار النبي ﷺ علياً وأسامة - رضي الله عنهما - كما مر وأن ذكرنا - فكان ما كان من أمر شوراهما كما ذكر في الحديث.

### وهنا قد يسأل سائل فيقول: لماذا خص علي وأسامة بن زيد

- رضي الله عنهم - باستشارتهما في هذه الحادثة الخطيرة، التي تمثل مفصلاً من المفاصل المهمة في حياة النبي ﷺ خاصة، وفي حياة المسلمين عامة.

### وللإجابة عن هذا السؤال يقول ابن حجر - رحمه الله:

(والعلة في اختصاص علي وأسامة بالمشاورة، أن علياً كان عنده كالولد، لأنه رباه من حال صغره، ثم لم يفارقه، بل وازداد اتصاله بتزويج فاطمة، فلذلك كان مخصوصاً بالمشاورة فيما يتعلق بأهله، لمزيد اطلاعه على أحواله أكثر من غيره، وكان أهل مشورته فيما يتعلق بالأمور العامة أكابر الصحابة كأبي بكر وعمر، وأما أسامة فهو كعلي في طول الملازمة،

(١) الشورى. دكتور. حسن محمد عتر: ص(٧١).

(٢) رواه الإمام أحمد في المسند، الحديث (١٩١٢٦).

ومزيد الاختصاص والمحبة، ولذلك كانوا يطلقون عليه أنه حب رسول الله ﷺ، وخصه دون أبيه وأمه لكونه كان شاباً كعلي، وإن كان عليّ أسنّ منه، وذلك أن للشباب من صفاء الذهن ما ليس لغيره، ولأنه أكثر جرأة على الجواب بما يظهر له من المسن؛ لأن المسن غالباً يحسب العاقبة، فربما أخفى بعض ما يظهر له؛ رعاية للقائل تارة، والمسئول عنه أخرى، مع ما ورد في بعض الأخبار أنه استشار غيرهما (1) وقد ذكرنا ذلك في موضعه.

ولقد حاول كثير من المغرضين الاصطياد في الماء العكر في شأن موقف الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه في هذه الحادثة من عائشة - رضي الله عنها -، وكيف أنه أشار على الرسول ﷺ بفراقها، أو على الأقل أنه كان لا يحسن الظن بها.

وربط البعض من المستشرقين وغيرهم بين موقفه رضي الله عنه من عائشة - رضي الله عنها - يوم الإفك بما حدث بعد ذلك من موقف السيدة عائشة رضي الله عنها من مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه وخروجها يوم الجمل، وغير ذلك من أمور وقضايا، معتمدين في ذلك على روايات ضعيفة وأخرى موضوعة.

### ولتجلية موقف الإمام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه نقول:

**أولاً:** ليس في كلام سيدنا علي رضي الله عنه ما يدل على أنه كان يقول بالإفك، أو يعتقد وقوعه، بل ليس في كلامه رضي الله عنه ما يشير إلى هذا المعنى، ولو تلميحاً، كلا وحاشا، فهذا علي رضي الله عنه الذي تربي في حجر رسول الله ﷺ، ولا يمكن أن يصدر منه هذا، وهو الذي يعرف حدود الشرع، ومن في قلبه شك، فليرجع إلى الحديث وقد ذكرناه بنصه، وليقرأ موقف الإمام

(1) فتح الباري (2/2069).

علي رضي الله عنه ليجد هذه الحقيقة ناصعة بيّنة في هذا الشأن.

**ثانياً:** كل الذي حدث منه رضي الله عنه إنما هو أداء النصح بفراقها، وهذا الذي أوصله إليه اجتهاده، خصوصاً وقد رأى قلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، والهم الذي نزل عليه وأحاط به، فأراد أن يخفف عنه ما يجد، فأشار عليه بالذي قد أشار<sup>(١)</sup>.

يقول الإمام النووي - رحمه الله: قولها: وأما علي بن أبي طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير، هذا الذي قاله علي رضي الله عنه هو الصواب في حقه، لأنه رآه مصلحة، ونصيحة للنبي صلى الله عليه وسلم في اعتقاده، ولم يكن ذلك في نفس الأمر، لأنه رأى انزعاج النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر، وتقلقه، فأراد راحة خاطره، وكان ذلك أهم من غيره<sup>(٢)</sup>.

ويقول ابن حجر: «وهذا الكلام الذي قاله علي رضي الله عنه حمله عليه ترجيح جانب النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى عنده من القلق والغم بسبب القول الذي قيل، وكان صلى الله عليه وسلم شديد الغيرة، فرأى عليّ أنه إذا فارقها سكن ما عنده من القلق بسببها، إلى أن يتحقق براءتها، فيمكن رجعتها، ويستفاد منه ارتكاب أخف الضررين لذهاب أشدهما»<sup>(٣)</sup>.

**ثالثاً:** إن علياً رضي الله عنه لم يجزم بفراقها، بدليل أنه عقب على كلامه بقوله: «وسل الجارية تصدقك» وفي هذا تأكيد على أنه أبدى رأيه في القضية بكل براءة نفس، وطهارة باطن، لا كما يحاول المفرضون أن يصطادوا في الماء العكر<sup>(٤)</sup>.

(١) حديث الإفك ص ٢٠٥.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ص (١٦٢٩).

(٣) فتح الباري (٢/٢٠٦٩).

(٤) حديث الإفك ص (٢٠٦).

يقول ابن حجر - رحمه الله: «وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة: لم يجزم علي بالإشارة بفراقها؛ لأنه عقب ذلك بقوله: «وسل الجارية تصدقك» ففوض الأمر في ذلك إلى نظر النبي ﷺ، فكأنه قال: إن أردت تعجيل الراحة ففارقها، وإن أردت خلاف ذلك فابحث عن حقيقة الأمر إلى أن تطلع على براءتها؛ لأنه كان يتحقق أن بريرة لا تخبره إلا بما علمته، وهي لم تعلم من عائشة إلا البراءة المحضة»<sup>(١)</sup>.

### المفهوم الثامن والعشرون: استحباب المبادرة بتبشير من تجددت له نعمة ظاهرة، أو اندفعت عنه بلية ظاهرة<sup>(٢)</sup>؛

لما نزل الوحي على رسول الله ﷺ ببراءة السيدة عائشة - رضي الله عنها - وهو جالس معها بعد خوض الناس في الإفك ومعهما والدها ووالدتها، فإذا به ﷺ يضحك، وكان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشري يا عائشة، أمّا الله فقد برأك» عند ذلك قالت لها أمها: قومي إليه، فقالت لها السيدة عائشة - رضي الله عنها: «والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله هو الذي أنزل براءتي»<sup>(٣)</sup>.

وفي هذا الذي فعله الرسول ﷺ من الضحك ومن تبشير السيدة عائشة - رضي الله عنها - بالبراءة تعليم للأمة الإسلامية على مدى العصور بأنه إذا حل بالمسلم خير فرح الجميع به، وإذا كان لا يعرف بشروه به، وإن أصابته ضراء وأحاط به مكروه تألم المسلمون لأمله، وإذا علم المسلم أن شراً سوف يلحق بأخيه المسلم حاول بكل قواه دفع هذا الضر عنه قبل أن يمسّه أو يلحقه، لأن المسلمين كالجسد الواحد إذا أصيب بعضه سهر الباقي متأماً على هذا البعض.

(١) فتح الباري (٢/٢٠٦٩).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ص (١٦٢١).

(٣) سبق تخريجه.

قال رسول الله ﷺ: «والله في عَوْنِ العبد ما دام العبد في عَوْنِ أخيه»<sup>(١)</sup> وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»<sup>(٢)</sup> وقال عليه الصلاة والسلام: «المسلم أخو المسلم»<sup>(٣)</sup>. وإذا كانت هناك نصوص تدل على دفع الأذى عن المسلم والحزن لما يلحقه من الأذى، فإن هناك نصوصاً تدل على استحباب التبشير بالخير للمسلمين، منها قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾<sup>(٤)</sup>، وقوله تعالى: ﴿وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾<sup>(٥)</sup>، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ بِعُلْمٍ حَلِيمٍ﴾<sup>(٦)</sup>، وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيحْيَى﴾<sup>(٧)</sup>. وغير ذلك من آيات القرآن الكريم، ومما يدل من السنة على التبشير، أن الرسول ﷺ بشر أبا بكر وعمر وعثمان بالجنة، فقد قال ﷺ وهو جالس على بئر أريس لأبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، حينما استأذن أبو بكر الصديق في الدخول عليه «أذن له وبشره بالجنة» وحينما استأذن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري «أذن له وبشره بالجنة»، وحينما استأذن عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال الرسول ﷺ لأبي موسى الأشعري: «أذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه»<sup>(٨)</sup>.

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٢٧٤).

(٢) رواه البخاري في الصلاة (٨٨) وفي المظالم (٥) ومسلم في البر (٦٥)، والترمذي في البر (١٨)، والنسائي في الزكاة (٦٧) والإمام أحمد في المسند (٤٠٤/٤، ٤٠٥، ٤٠٦).

(٣) رواه البخاري في المظالم (٢٤٤٢)، وفي الإكراه (٦٩٥١)، ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٨٠).

(٤) الزمر: ١٧، ١٨.

(٥) فصلت: ٢٠.

(٦) الصافات: ١٠١.

(٧) آل عمران: ٢٩.

(٨) انظر الحديث في صحيح البخاري (١٠/٥، ١١، ١٧، ٦٩/٩، ٨٥، ١١٠) وفتح الباري (٧/٢١، ٥٢) وصحيح مسلم في فضائل الصحابة (٢٩) والترمذي، الحديث (٢٧١٠).

وكذلك فإن الرسول ﷺ: «بشر خديجة - رضي الله عنها - ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه، ولا نصب»<sup>(١)</sup>.

ولما نزلت توبة الله عز وجل على الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا. ركض حمزة بن عمر الأسلمي لكعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين خلفوا ليبشره، وهو في طريقه إليه كان يصرخ بأعلى صوته بالبشارة، بحيث إن صوته كان أسرع من الفرس، إنه تعبير صادق عن حالة وجدانية، ونشوة روحية، جعلته بهذه الصورة، ولم يكن الأمر بالنسبة لكعب مع حمزة بن عمر على سبيل الانفراد والمخالفة، دون وجود الشعور العام، كلابل كما قال كعب رضي الله عنه أنه بعد أن بلغته البشـرى: « وانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنئونني بالتوبة ويقولون لي: لتهنئك توبة الله عليك، حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، فكان كعب لا ينساها لطلحة وهنأني... ثم قال: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور: « أبشر بخير يوم مر عليك مذ ولدتك أمك»<sup>(٢)</sup> يا لها من مشاعر تكتب بماء الذهب، ويا لها من صورة تعجز عن تصويرها أخيلة الشعراء والأدباء، ولكنه الواقع، ولكنه الرسول، ولكنهم الصحابة الذين رباهم الرسول ﷺ في مدرسة النبوة، والرسول ﷺ الذي اصطنعه الله عز وجل لنفسه، واصطنعه على عينه.

\*\*\*\*\*

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري في مناقب الصحابة، الحديث (٢٨٢٠) وفي كتاب التوحيد، الحديث (٧٤٩٧)

ومسلم في فضائل الصحابة، الحديث (٢٤٣٢).

(٢) رواء البخاري (٨/٦) ومسلم في التوبة (٥٢) والإمام أحمد (٤٥٩/٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥/٩)

**الباب الثالث**  
**بيت النبوة**  
**في ضوء سورة التحريم**





الفصل الأول  
الآيات الواردة  
في سورة التحريم وتفسيرها



## الفصل الأول

### الآيات الواردة في سورة التحريم وتفسيرها

يقول الله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَغَّى مَرَضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِنْ نُبُوْنَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَنِ مُسَلِّمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ قَيْنَةٍ تَبَيَّنَتِ غِلَابَتِ سَيِّدَتِ تَبَيَّنَتِ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴿١﴾.

### سبب نزول الآيات الكريمة:

روى البخاري في صحيحه بسنده عن عبيد بن عمير يقول سمعت عائشة تزعم أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش ويشرب عندها عسلاً فتواصيت أنا وحفصة أن آيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إنني أجد منك ريح مغاير أكلت مغاير فدخل على إحدهما فقالت ذلك له فقال لا بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش ولن أعود له فنزلت: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴿١﴾﴾ ﴿إِنْ نُبُوْنَا إِلَى اللَّهِ﴾ لعائشة وحفصة ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ لقوله بل شربت عسلاً وقال لي إبراهيم بن موسى عن هشام بن عمار أنه قال: ﴿وَقَدْ حَلَفْتُ فَلَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا﴾ (٢).

(١) التحريم: ١ - ٦.

(٢) رواه البخاري في الأيمان والتذور (٦٦٩١)، وفي الطلاق (٥٢٦٧)، ومسلم في الطلاق (١٤٧٤).

هذه رواية البخاري أخرجها في عدة مواضع من صحيحه، وهناك رواية أخرى أنها نزلت في شأن مارية وكان رسول الله ﷺ قد حرّمها على نفسه.

فقد روى ابن جرير بسنده عن عبد الله بن عباس قال: قلت لعمر بن الخطاب من المرأتان؟ قال: عائشة وحفصة، وكان بدء الحديث في شأن أم إبراهيم مارية أصابها النبي ﷺ في بيت حفصة، في نوبتها فوجدت حفصة، فقالت: يا نبي الله لقد جئت شيئاً ما جئت إلى أحد من أزواجك في يومى، وفي دوري، وعلى فراشي، قال: «ألا ترضين أن أحرّمها فلا أقربها» قالت: بلى فحرّمها، وقال لها: «لا تذكرى ذلك لأحد» فذكرته لعائشة فأظهره الله عليه. فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ حُرِّمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْنِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكُ﴾ الآيات كلها. فبلغنا أن رسول الله ﷺ كفر عن يمينه، وأصاب جاريته<sup>(١)</sup>.

وقال الهيثم بن كليب في مسنده ثنا أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي ثنا مسلم بن إبراهيم ثنا جرير بن حازم عن أيوب عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال: قال النبي ﷺ لحفصة «لا تخبرى أحداً، وإن أم إبراهيم عليّ حرام» فقال: أتحرّم ما أحلّ الله لك؟ قال: «فوالله لا أقربها» قال: فلم يقربها حتى أخبرت عائشة، قال: فأنزل الله تعالى «قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم»<sup>(٢)</sup> وهذا إسناد صحيح كما قال ابن كثير، ولم يخرجها أحد من أصحاب الكتب الستة.

وقال بعد ذكره للروايات السابقة وروايات أخرى، والصحيح أن ذلك كان في تحريمه العسل كما قاله البخاري.

(١) تفسير الطبري: (٤٧٩/٢٣).

(٢) وأخرجه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم ١٨٩.

ثم قال بعد ذكره لواقعتي حفصة وزينب وعائشة رضي الله عنهن جميعاً: وقد يقال: أنهما واقعتان، ولا بعد في ذلك إلا أن كونهما سبباً لنزول هذه الآية فيه نظر والله أعلم<sup>(١)</sup>.

وبناء على ذلك سنعتمد رواية البخاري في سبب النزول ونفسر الآيات على ضوءها.

### تفسير الآيات:

يخاطب الحق سبحانه وتعالى في هذه الآيات الكريمة النبي ﷺ ولتقدي به أمته من بعده في مثل هذا، فيقول: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَلِّغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: لا يوجد ما يدعو إلى أن تحرم على نفسك ما أحل الله لك من شرب العسل فتمتتع عنه وتلتزم ألا تعود إليه بسبب ما صدر من أزواجك بدافع الغيرة، أي: ليست غيرتهن مما تجب مراعاته في المعاشرة إن كانت فيما لا هضم فيه لحقوقهن، ولا هي من إكرام إحداهن لزوجها إن كانت الأخرى لم تتمكن من إكرامه بمثل ذلك الإكرام في بعض الأيام، وهذا يومئ إلى ضبط ما يراعى من الغيرة وما لا يراعى. فكأنه تعالى يقول لنبيه: لم تبغى مرضاة أزواجك بإدخال المشقة على نفسك فتمتتع عما أحله الله لك، فما أحله الله لعبدته ينبغي أن يتمتع به ما لم يعرض له ما يوجب قطعه من ضر أو مرض، لأن تناوله شكر لله، واعتراف بنعمته والحاجة إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ، وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ، قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾

(١) تفسير القرآن العظيم: (٤/٢٨٦ - ٢٨٧).

أخبر النبي ﷺ السيدة حفصة رضي الله عنها بأنه شرب عسلاً عند زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقال لها: لن أعود له، وقد حلفت فلا تخبري بذلك أحداً. فلم تكتم الخبر بل نبأت به السيدة عائشة رضي الله عنها لما كان بينهما من التصافي، فأطلع الله نبيه على ذلك فأعلم حفصة ببعض الحديث الذي أفشته وأعرض عن بعض آخر منه فلم يخبرها به من باب التغافل وعدم الإحراج، كما قال سفيان: ما زال التغافل من فعل الكرام. فلما بناها به قالت- لتعرف هل فضحتها السيدة عائشة أم لا-: من أنبيأك هذا؟ قال نبأني العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية.

﴿ إِنْ نُوْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَعَتْ قُلُوبُكُمْ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ الخطاب للسيدة عائشة وحفصة - رضي الله عنهما - أي: (إن تتوبا إلى الله فقد وجد منكما ما يوجب التوبة، ومعنى صغت أي زاغت ومالت عن الحق، وهو أنهما أحبتا ما كره النبي ﷺ من اجتناب العسل، وكان عليه الصلاة والسلام يحب العسل - ﴿ وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ ﴾ أي: تتظاهرا وتتعاوننا على النبي ﷺ بما يسوؤه من الوقيعه بينه وبين سائر نساءه بسبب الغيرة، ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾، كأبي بكر وعمر، ومن صلح من عباده المؤمنين فلن يعدم ناصرًا ينصره، ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ﴾ أي: بعد نصر الله له ونصر جبريل وصالح المؤمنين ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ أي أعوان يظاهرونه.

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكَ ﴾ أي: يعطيه بدلكن أزواجاً أفضل منكن، وقد علم الله سبحانه أنه لا يطلقهن ولكن أخبر عن قدرته على أنه إن وقع منه الطلاق أبدله خيراً منهن تخويفاً لهن. وهو كقوله: ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ (١)، فإنه إخبار عن القدرة، وتخويف لهن، ثم

(١) محمد: ٣٨.

نعت سبحانه الأزواج بقوله: ﴿مُسَلِّمَتٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ أي: قائمات بفرائض الإسلام مصدقات بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشره - ﴿قَنِينَةٍ﴾ مطيعات لله، ﴿تَيَّبَتٍ﴾ من الذنوب، ﴿عَدِيَّتٍ﴾ لله متذللات له كثيرات العبادة، ﴿سَيِّحَةٍ﴾ أي: صائمات، وقيل مهاجرات، ﴿ثَيِّبَةٍ﴾ أي: سبق لهن الزواج، ﴿وَأَبْكَارًا﴾ أي: لم يتزوجن بعد<sup>(١)</sup>.

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ١٨/١٨٨، وفتح القدير للشوكاني: (ص ١٥٠٤-١٥٠٦)، والتحرير والتنوير: (٢٤٦/٢٨).





## الفصل الثاني

المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة  
من آيات سورة التحريم



## الفصل الثاني

### المفاهيم التربوية والأسرية المستفادة من آيات سورة التحريم

**المفهوم الأول: لا ينبغي لأحد أن يحرم على نفسه ما أحل الله له:**

في قول الله عز وجل «لم تحرم ما أحل الله لك» ما يدل على أنه لا ينبغي لأحد أن يحرم على نفسه ما أحله الله له لإرضاء أحد، إذ ليس ذلك بمصلحة له، ولا للذي يسترضيه فلا ينبغي أن يجعل كالنذر، إذ لا قرينة فيه فتحريم النبي ﷺ العسل على نفسه كما تقدم في رواية البخاري، أو تحريم مارية كما ورد في بعض الروايات ليس فيه مصلحة لنفسه ولا لزوجاته، وإنما صلاح كل جانب فيما يعود على نفسه، أو ينفع فيه غيره نفعاً مرضياً عند الله.

وفي قوله تعالى: ﴿لَمْ تُحْرَمُوا مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ عتاب لرسول الله ﷺ وهو عتاب مؤثر موح، فما يجوز أن يحرم المؤمن على نفسه ما أحله الله له من متاع، والرسول ﷺ لم يكن حرم العسل أو مارية بمعنى التحريم الشرعي، إنما كان قد قرر حرمان نفسه. فجاء هذا العتاب يوحى بأن ما جعله الله حلالاً فلا يجوز حرمان النفس منه عمداً وقصداً إرضاء لأحد.

والتعقيب بقوله ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يوحى بأن هذا الحرمان من شأنه أن يستوجب المؤاخظة، وأن تتداركه مغفرة الله ورحمته وهو إيحاء لطيف. فأما اليمين التي يوحى النص بأن الرسول ﷺ قد حلفها، فقد فرض الله تحلتها، أي: كفارتها التي يحل منها. مادامت في غير معروف، والعدول عنها أولى ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ فهو يعينكم على ضعفكم، وعلى ما يشق عليكم، ومن ثم فرض تحلة الأيمان، للخروج من العنت والمشقة ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ يشرع لكم عن علم وعن حكمة، ويأمركم بما يناسب طاقتكم، وما

يصلح لكم، فلا تحرموا إلا ما حرم الله، ولا تحلوا غير ما أحل، وهو تعقيب يناسب ما قبله من توجيهه<sup>(١)</sup>.

وفي عتاب الله عز وجل لرسوله الكريم ﷺ على الامتناع عن الحلال وهو مباح سواء كان مع اليمين أو بدونه، تعظيماً لقدره الشريف، وإجلالاً لمنصبه أن يراعي مرضاة أزواجه بما يشق عليه جرياً على ما ألف من لطف الله به<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم الثاني: حنكة الرسول ﷺ في معالجة المشكلات الزوجية:

عرفنا فيما سبق أن سبب نزول قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾ عند بعض العلماء تحريم الرسول ﷺ لجاريته مارية أم إبراهيم على نفسه بعد أن وجدتها السيدة حفصة رضي الله عنها في بيتها، إرضاء لها رضي الله عنها وأرضاها، أو تحريمه العسل على نفسه، كما قال بعض آخر من العلماء.

وفي هذا التصرف من الرسول ﷺ نرى كيف كان الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه يعالج المشكلات التي كانت تحدث بينه وبين زوجاته، فلم يكن عنيفاً، ولا متشدداً ولا متسلطاً، وإنما كان يعاملهم برفقة ولطف وعطف وحنان، حتى يمتص غضبهن بأسلوب حكيم وذكي يتناسب ومكانته ﷺ، فإذا قبلن هذا التصرف فيها ونعمت، أما إذا خالفن أمر الرسول ﷺ فإن الرسول ﷺ يتصرف تصرفاً آخر يليق بتصرفهن، كما حدث مع السيدة حفصة رضي الله عنها ومن شاركها في موضوع هذه السورة الكريمة، إذ لما هدأ الرسول ﷺ من ثورة السيدة حفصة وأسر إليها بتحريم سرِّيته على نفسه أو غير ذلك طالباً منها أن تحفظ هذا السر،

(١) في ظلال القرآن (٢٦١٥/٦).

(٢) تفسير المراغي (١٥٧/٢٨).

ولا تطلع أحداً عليه، لكنها لم تحتفظ بهذا السر، بل أطلعت عليه السيدة عائشة رضي الله عنها عند ذلك، كان لا بد من وقفة من رسول الله ﷺ مع السيدة حفصة، ومع من تظاهر معها من بقية الزوجات، كي يؤدبهن جميعاً، فاعتزلهن شهراً حتى يقفن عند حدودهن، ويُعدن إلى صوابهن، وهكذا على المؤمن أن يعالج الأمور والمشاكل والخلافات الزوجية بحكمة ومهارة، وبأسلوب حكيم وذكي، حتى لا تتفكك الأمور من يده، وحتى لا تدخل الأسرة في دوامة المشاكل والصراعات التي تؤدي إلى ضياع الأسرة وانهارها، لكن كل ذلك إذا لم تكن هناك مخالفات شرعية، أو تجاوزات دينية، أو إهدار للحقوق وإضاعته، أو لا مبالاة من المرأة، فإذا تخطت الزوجة الحدود، واعتدت على محارم الله، أو أتت بما يغضب الله فلا بد من وقفة صارمة أمام كل هذه المخالفات، حتى لا يكون الزوج عاصياً لله إذا تهاونت زوجته في حق من حقوق الله عز وجل .

### المفهوم الثالث: للنبي ﷺ ولبقية المسلمين السعة في التحلل مما التزموا بتحريمه على أنفسهم:

في قول الله عز وجل ﴿ قَدَفَضَ اللَّهُ لَكُمْ نَحْلَةَ أَيْمَانِكُمْ ﴾ الآية بيان من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن له سعة في التحلل مما التزم تحريمه على نفسه، وذلك فيما شرع الله عز وجل من كفارة اليمين، فأفتاه الله سبحانه تعالى بأن يأخذ برخصته في كفارة اليمين المشروعة للأمة كلها، ومن آثار حكم هذه الآية ما قاله النبي ﷺ لوفد عبد القيس بعد أن استحملوه وحلف ألا يحملهم، إذ ليس عنده ما يحملهم عليه، فجاءه ذود من إبل الصدقة فقال لهم: «وإني والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني، وفعلت الذي هو خير»<sup>(١)</sup>

(١) التحرير والتوير (٢٨/٣٤٧).

وافتح الخبر بحرف التحقيق (قد) لتزليل النبي ﷺ منزلة من لا يعلم أن الله فرض تحلة الأيمان بأية الكفارة، بناء على أنه لم يأخذ بالرخصة، تعظيماً للقسم، فأعلمه الله تعالى أن الأخذ بالكفارة لا تقصير عليه فيه، فإن في الكفارة ما يكفي للوفاء بتعظيم اليمين بالله إلى شيء هذا قوله تعالى في قصة أيوب ﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرِبْ بِهِ ۖ وَلَا تَحْنَثْ ۗ ﴾ (١).

#### المفهوم الرابع: أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجته:

ذكرت السيدة حفصة بعنوان بعض أزواجه في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ للإشارة إلى أن النبي ﷺ وضع سره في موضعه، لأن أولى الناس بمعرفة سر الرجل زوجته، وفي ذلك تعريض بملامها على إفشاء سره، لأن واجب المرأة أن تحفظ سر زوجها إذا أمرها بحفظه، أو كان مثله مما يجب حفظه، ولا يجوز إفشاؤها له. لأن السر كما يقولون أمانة، وإفشاؤه فيه مخالفة لا ترضي الله عز وجل، ولا ترضي رسوله الكريم ﷺ، ولما لم يرض الله عز وجل على إفشاء الأسرار لذا فمن عنايته برسوله الكريم ﷺ وانتصاره له ونصحه له أنه أطلعته على ما لا علم له به، وهو إخبار السيدة حفصة للسيدة عائشة رضي الله عنهما ما ائتمنها عليه الرسول ﷺ من سر. بل وأمره أن يخبرها بمعرفته بما دار بينها وبين السيدة عائشة رضي الله عنهما وأخبرها ببعضه وأعرض عن بعض، ليوقفها على مخالفتها واجب الأدب من حفظ سر زوجها. وإعراضه ﷺ عن تعريف زوجته ببعض الحديث الذي أفشته من كرم خلقه ﷺ في معاتبه المفشية وتأديبها، إذ يحصل المقصود بأن يعلم بعض ما أفشته فتوقن أن الله يغار عليه (٢).

(١) ص: ٤٤.

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/٢٤٧ - ٢٥٤).

## المفهوم الخامس: جواز إطلاع المقربين على بعض الأسرار شريطة حفاظهم عليها؛

في قول الله عز وجل ﴿وَإِذَا سَأَرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا﴾ بيان إلى أنه لا مانع من أن يطلع الرجل من يثق فيه من زوجة أو قريب أو صديق على بعض الأسرار، على أنه من الواجب على من يُستأمن على سرٍّ من الأسرار واستكتم عليه أن يكتمه ويحافظ عليه، ولا يطلع عليه أحداً حتى لا يكون خائناً ولا مفضياً بأسرار المستأمنين له إلى الغير، فيؤذى بذلك صاحب السر أو غيره، ويحدث مشاكل وخلافات وعداوات وأمور قد لا تحمد عقباها، وقد يؤدي إفشاء الأسرار إلى هدم بيوت، أو تشريد أسر، وغير ذلك من العواقب الوخيمة.

## المفهوم السادس: أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة؛

في سؤال السيدة حفصة رضي الله عنها للرسول ﷺ عندما نبأها بما أخبرت به السيدة عائشة رضي الله عنها قائلة له: ﴿مَنْ أَبْأَكَ هَذَا﴾ دليل على ثقتها بأن السيدة عائشة رضي الله عنها لا تفشي سرها، وعلمت أنه لا قبل للرسول ﷺ بعلم ما أخبرت به السيدة عائشة إلا من قبل السيدة عائشة أو من طريق الوحي، فرامت التحقق من أحد الاحتمالين. والاستفهام حقيقي، ولنا أن نجعله للتعجب من علمه بذلك.

وفي هذا كفاية من تيقظها بأن إفشاءها سر زوجها زلة خُلُقِيَّة عظيمة حجبها عن مراعاتها شدة الصفاء لعائشة رضي الله عنها، وفرط إعجابها بتحريم مارية لأجلها، فلم تتمالك عن أن تبشر به خليلتها ونصيرتها، ولو تذكرت لتبين لها أن مقتضى كتم سر زوجها أقوى من مقتضى إعلامها خليلتها، فإن أواصر الزوجية أقوى من أواصر الخلة، وواجب الإخلاص للرسول الله ﷺ أعلى من فضيلة الإخلاص للخلائق.



ولما أجاب الرسول الكريم ﷺ بأن الذي أنبأه هو ﴿الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ حصل لها من هذا الجواب تعليمها بأن الله عز وجل يطلع رسوله ﷺ على ما غاب عنه إن شاء (١)، قال تعالى: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢).

**المفهوم السابع: إذا حدث من أحد الزوجين ما يسوء الآخر فعلى الطرف المسيء الإسراع في الاعتذار عما بدر منه:**

في قول الله عز وجل: ﴿إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ﴾ خطاب موجه للسيدتين حفصة وعائشة - رضي الله عنهما -، خاطبهما الله عز وجل به بطريق الالتفات ليكون أبلغ في معاتبتهما، وحملهما على التوبة مما بدر منهما من الإيذاء لسيد الأنبياء (٣).

كما أن فيه أيضاً موعظة وتحذيراً وإرشاداً للسيدتين الكريمتين إلى رأب ما انثلم من واجبهما نحو زوجهما، وإذ قد كان ذلك إثماً لأنه إضاعة لحقوق الزوج، وخاصة بإفشاء سره ذكرهما بواجب التوبة منه، فأما المنبئة فأمرها بالتوبة ظاهر، وأما المداع إليها فلأنها شريكة لها في تلقى الخبر السر، ولأن المديعة ما أذاعت به إليها إلا لعلمها بأنها ترغب في تطلع مثل ذلك، فهاتان موعظتان لمذيع السر، ومشاركة المداع إليه في ذلك، وكان عليها أن تنهاها عن ذلك، أو أن تخبر زوجها بما أذاعته عنه ضررتها. فلما أفشت السيدة حفصة السر واستقبلته السيدة عائشة رضي الله عنها وقبلته كان عليهما أن تتوبا إلى الله عز وجل من ذلك، فإن تابتا مما بدر منهما فقد صفت قلوبهما، أي: مالت إلى الخير، وحق العشرة مع الزوج، وفيه إيماء إلى أن فيما فعلتاه انحرافاً عن أدب المعاشرة الذي أمر

(١) التحرير والتوير (٢٨/٣٥٤، ٣٥٥).

(٢) الجن: ٢٦، ٢٧.

(٣) صفوة التفاسير (٣/٤٠٨).

الله عز وجل به، وأن عليهما أن تتوبا مما صنعتاه (١) كي يُرضيا الله عز وجل ورسوله الكريم ﷺ.

### المفهوم الثامن: إعظام شأن نصرته الرسول الكريم ﷺ:

في قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ إعظام من الله عز وجل بشأن نصرته نبيه ﷺ على السيدتين حفصة وعائشة الضعيفتين به سبحانه عز وجل، ثم بجبريل، وصالح المؤمنين، وبكل الملائكة، للإشارة إلى عظم مكر النساء وضعف الرجال أمامهن.

وقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿إِنْ كِدْنَا عَظِيمٌ﴾ (٢)، وللمبالغة في قطع أطماعهما بأنه ربما شفع لهما مكانتهما عند رسول الله ﷺ، وعند المؤمنين، لأموتهما لهم، وكرامة له ﷺ، ورعاية لأبويهما، ولتوهين أمر تظاهرهما، ودفع ما عسى أن يتوهمه المنافقون من ضرره في أمر النبوة، وقهر أعداء الدين، إذ قد جرت العادة بأن الشئون المنزلية تشغل بال الرجال، وتضيع زمناً من تفكيرهم فيها، وقد كانوا أحق به في التفكير فيما هو أجدى نفعاً، وأجل فائدة (٣).

### النصر دائماً يكون من الله، فلماذا ذكر الملائكة وصالح المؤمنين:

نصرة الله عز وجل للمسلم هي النصر في الحقيقة، لكنه سبحانه وتعالى ضم إليها المظاهرة بجبريل، وبصالح المؤمنين، وبالملائكة، للتميم تطيباً لقلوب المؤمنين، وتوقيراً لجانب الرسول ﷺ، وإظهاراً للآيات البيّنات كما في بدر وحنين (٤)، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِنَ قُلُوبَكُمْ

(١) التحرير والتوير (٢٨ / ٢٥٦) بتصريف.

(٢) يوسف: ٢٨.

(٣) تفسير المراغي (٢٨ / ١٥٩).

(٤) تفسير الجمل على الجلالين (٤ / ٢٦٦) بتصريف.

بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿١﴾ .

وذكر ﴿ وَصَلِحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أيضاً تشریفاً لهم، واعتناء بهم، وإشادة بفضل الصلاح.

وذكر الملائكة لبيان أنهم ظهراء للنبي ﷺ، ليكون أفخم بالنبي ﷺ، وعظم مكانته، والانتصار له، إذ هم بمثابة جيش جرار، يملأ القفار، نصرة للنبي ﷺ المختار، فمن ذا الذي يستطيع أن يناوئ الرسول ﷺ بعد ذلك<sup>(٢)</sup>.

### المفهوم التاسع: المثل الأعلى في أوصاف الزوجات الصالحات:

في قول الله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ .. ﴾ الخ بيان أن الرسول ﷺ إذا طلق زوجاته يبدله الله عز وجل زوجات خيراً منهن، ولم تكن على وجه الأرض نساء خيراً من أمهات المؤمنين فكيف تكون المبدلات خيراً من أمهات المؤمنين؟

قال الزمخشري في الإجابة على هذا التساؤل: قلت: إذا طلقهن رسول الله ﷺ لعصيانهن له وإيذائهن إياه لم يبقين على تلك الصفة، وكان غيرهن من الموصوفات بهذه الأوصاف من الطاعة لرسول الله ﷺ والنزول على هواه، ورضاه خيراً منهن. وقد عرض بذلك في قوله: ﴿ فَتَنَّتْ ﴾ لأن القنوت هو القيام بطاعة الله، وطاعة الله في طاعة رسوله ﷺ<sup>(٣)</sup>. أو أن هذا على سبيل الفرض، أو هو عام في الدنيا والآخرة، فلا يقتضي وجود من هو خيراً منهن مطلقاً.

(١) آل عمران: ١٢٦.

(٢) صفوة التفاسير (٤٠٩/٣).

(٣) الكشاف ص ١١٢١.

أو المراد بقوله ﴿خَيْرًا مِّنْكُمْ﴾ أي: في حفظ سره، ومتابعة رضاه، مع اتصافهن بهذه الصفات المشتركة بينكن وبينهن، فلا يرد كيف أثبت الخيرية لهن بالصفات المذكورة بقوله: ﴿خَيْرًا مِّنْكُمْ﴾ مع اتصاف أزواجه ﷺ بها أيضاً<sup>(١)</sup>.

### المفهوم العاشر: عمق الحادث وأثره على الرسول ﷺ:

في التهديد الرعيب المخيف، والحملة الضخمة الهائلة التي شنها القرآن الكريم على المتظاهرتين على الرسول ﷺ تجعلنا ندرك عمق الحادث وأثره في قلب رسول الله ﷺ، حتى احتاج الأمر إلى إعلان موالة الله عز وجل وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهيراً ليطيب خاطر الرسول ﷺ، ويحس بالطمأنينة والراحة من ذلك الأمر الخطيراً!

ولا بد أن الموقف في حس رسول الله ﷺ وفي محيطه كان من الضخامة والعمق والتأثير إلى الحد الذي يتناسب مع هذه الحملة، ولعلنا ندرك حقيقته من هذا النص، ومما جاء في الرواية على لسان الأنصاري صاحب عمر - رضي الله عنهما - وهو يسأله: جاءت غسان؟ فيقول: لا بل أعظم من ذلك وأطول.

وغسان هي الدولة العربية الموالية للروم في الشام على حافة الجزيرة، وهجومها إذ ذاك أمر خطير. ولكن الأمر الآخر في نفوس المسلمين كان أعظم وأطول!، فقد كانوا يرون أن استقرار هذا القلب الكبير، وسلام هذا البيت الكريم أكبر من كل شأن، وأن اضطرابه وقلقه أخطر على الجماعة المسلمة من هجوم غسان عملاء الروم! وهو تقدير يوحي بشتى الدلالات على نظرة أولئك الناس للأمر. وهو تقدير يلتقي بتقدير السماء للأمر، فهو إذن صحيح قويم عميق.

(١) تفسير الجمل على الجلالين (٢٦٧/٤) بتصرف.

وكذلك دلالة الآية التالية، وتفصيل صفات النساء اللواتي يمكن أن يبذل الله سبحانه وتعالى النبي ﷺ بهن من أزواجه ولو طلقهن، مع توجيه الخطاب للجميع في معرض التهديد: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبَدِّلَهُٗٓ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكَ مُّسَلِّمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَنِيَّاتٍ تَعَبَّيْتِ لِمَن كَانَ مِن مَّكَارٍ أَعْيُنُهَا ۗ وَاللَّهُ يَدْعُوهُنَّ إِلَىٰ طَرِيقٍ الْإِيعَاءِ وَالتَّلْمِيحِ .

الإسلام الذي تدل عليه الطاعة والقيام بأوامر الدين، والإيمان الذي يعمر القلب، وعنه ينبثق الإسلام حين يصح ويتكامل. والقنوت وهو الطاعة القلبية، والتوبة وهي الندم على ما وقع من معصية، والاتجاه إلى الطاعة، والعبادة وهي أداة الاتصال بالله، والتعبير عن العبودية له، والسياحة وهي التأمل والتدبر والتفكر في إبداع الله والسياحة بالقلب في ملكوته. وهن مع هذه الصفات من الثيبات ومن الأبقار. كما أن نساء الحاضرات كان فيهن الثيب وفيهن البكر.

وهو تهديد لهن لابد كان له ما يقتضيه من تأثير مكائدهن في قلب رسول الله ﷺ، وما كان ليغضب من قليل!

وقد رضيت نفس النبي ﷺ بعد نزول هذه الآيات، وخطاب ربه له ولأهل بيته، واطمأن هذا البيت الكريم بعد هذه الزلزلة، وعاد إليه هدوؤه بتوجيه الله سبحانه. وهو تكريم لهذا البيت، ورعاية تناسب دوره في إنشاء منهج الله في الأرض وتثبيت أركانه.

وبعد فهذه صورة من الحياة البيئية لهذا الرسول الكريم الذي كان ينهض بإنشاء أمة، وإقامة دولة، على غير مثال معروف، وعلى غير نسق مسبوق، أمة تنهض بحمل أمانة العقيدة الإلهية في صورتها الأخيرة، وتنشئ في الأرض مجتمعاً ربانياً، في صورة واقعية يتأسى بها الناس.

وهي صورة من حياة إنسان كريم، رفيع جليل عظيم، يزاوُل إنسانيته في الوقت الذي يزاوُل فيه نبوته، فلا تفترق هذه عن تلك، لأن القدر جرى بأن يكون بشراً رسولاً، حينما أجرى بأن يحمله الرسالة الأخيرة للبشر، أو منهج الحياة الأخير.

إنها الرسالة الكاملة يحملها الرسول الكامل، ومن كمالها أن يظل الإنسان بها إنساناً، فلا تكبت طاقة من طاقاته البانية، ولا تعطل استعداداً من استعداداته النافعة، وفي الوقت ذاته تهذب وتربيه، وترتفع به إلى غاية مراقبه.

وكذلك فعل الإسلام بمن فقهوه وتكيفوا به، حتى استحالوا نسخاً حية منه، وكانت سيرة نبيهم وحياته الواقعية، بكل ما فيها من تجارب الإنسان، ومحاولات الإنسان، وضعف الإنسان، وقوة الإنسان، مختلطة بحقيقة الدعوة السماوية، مرتقية بها خطوة خطوة - كما يبدو في سيرة أهله، وأقرب الناس إليه - كانت هي النموذج العملي للمحاولة الناجحة، يراها ويتأثر بها من يريد القدوة الميسرة العملية الواقعية، التي لا تعيش في هالات ولا في خيالات.

وتحققت حكمة القدر في تنزيل الرسالة الأخيرة للبشر، بصورتها الكاملة، الشاملة المتكاملة، وفي اختيار الرسول الذي يطبق تلقيها وترجمتها في صورة حية، وفي جعل حياة هذا الرسول ﷺ كتاباً مفتوحاً يقرؤه الجميع، وتراجعه الأجيال بعد الأجيال<sup>(١)</sup>.

---

(١) في ظلال القرآن (١/٣٦١٦، ٣٦١٧).

## ثبت المراجع

- القرآن الكريم.
- إتحاف السادة المتقين للزيدي: تصوير بيروت، وط دار الفكر عن المطبعة الميمنية بمصر، وط دار إحياء التراث.
- أحكام القرآن: لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي تحقيق محمد البجاوي، ط دار الفكر بيروت.
- أحكام القرآن للكيالهراسي: عماد الدين محمد بن الطبري، المعروف بالكيالهراسي، دار الباز للنشر والتوزيع، المروة، مكة المكرمة، طبعة أولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣).
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، الناشر دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان.
- أزواج النبي صلى الله عليه وسلم: للشيخ محمد بن يوسف الصالحي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد نظام الدين الفتيح، ط ٣، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ط. دار ابن كثير دمشق.
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: للإمام أبي عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر. مطبوع بهامش الإصابة.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة: لعز الدين بن الأثير أبي الحسن علي بن محمد الجزري، تحقيق وتعليق محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور، ومحمود عبد الوهاب فايد، ط الشعب مصر.
- الأسماء والصفات: لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي، ط مكتبة السوادي، السعودية.
- الإشاعة: للدكتور أحمد نوفل.

- الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني، ط، مؤسسة الرسالة. بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى في مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٢٨هـ وطبع دار إحياء التراث العربي بيروت، وطبع بيت الأفكار الدولية، الأردن.
- أصول السرخسي: أبو بكر محمد بن أحمد السرخسي، تحقيق أبو الوفاء الأفغاني، نشر لجنة إحياء المعارف النعمانية سنة ١٣٩٣هـ.
- أضواء البيان لإيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي، ط علي صبيح المدني، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، وطبع دار ابن حزم لبنان ط أولى ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، الناشر دار الأندلس الخضراء السعودية جدة.
- الإكليل في استنباط التنزيل: للسيوطي.
- الإمام مالك مفسرا: حميد لحمير. ط دار الفكر، بيروت، لبنان، ط ١٤١٥ هـ ١٩٩٥م.
- أنساب الأشراف: أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، تحقيق محمد حميد الله، ط دار المعارف، مصر ط أولى، ١٤٠٦هـ، وطبع دار الفكر العربي، القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية، بيروت.
- إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون: المعروفة بالسيرة الحلبية، للشيخ علي برهان الدين الحلبي، ط المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩هـ، ط ٢، مصر.
- البحر المحيط: للإمام محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي - الغرناطي، ط دار الفكر، بيروت ١٩٧٨م، وطبع دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م) تحقيق دكتور أحمد عبد الغني النجولي الجمل وآخرون.



- بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.
- البداية والنهاية في التاريخ: للشيخ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ط مطبعة السعادة بمصر، وطبع دار إحياء التراث العربي، بيروت ط أولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.
- البر والصلة: لابن الجوزي، ط مؤسسة دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٦هـ.
- تاريخ الطبري: للإمام محمد بن جرير أبي جعفر الطبري، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ.
- التبيان في تفسير القرآن للطوسي، تحقيق وتصحيح أحمد حبيب قصير العاملي.
- التحرير والتوير: للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، ط الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.
- الترغيب والترهيب: للإمام الحافظ أبي بكر محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، تعليق مصطفى محمد عمارة ط ٣ ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، وطبع مصطفى البابي الحلبي بمصر، وطبع دار ابن حزم ط ١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م)، لبنان.
- تفسير آيات الأحكام: للشيخ محمد علي الصابوني.
- تفسير البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم النحراني، ط أولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لبنان.
- تفسير بيان السعادة في مقامات العبادة: لسلطان محمد الجنايذي، الملقب بسلطان علي شاه. منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

- تفسير البيضاوي: المسمى: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: للإمام القاضي أبي سعيد عبد الله بن عمرو بن محمد الشيرازي البيضاوي، ط أولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، وطبعة أخرى ط دار الجيل د ت.
- تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، وطبع دار المعرفة، بيروت لبنان.
- تفسير الجمل على الجلالين المسمى الفتوحات الإلهية، بتوضيح الجلالين للدقائق الخفية، للشيخ سليمان بن عمر العجلي الشهير بالجمل. ط دار إحياء التراث العربي، لبنان بيروت د ت.
- تفسير سورة النور: للأستاذ أبو الأعلى المودودي، تعريب محمد عاصم الحداد ط مؤسسة الرسالة ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- تفسير الصافي: للمولى محسن الملقب بالفيض الكاشاني، منشورات مكتبة الصدر. طهران. ط ١٤١٥هـ/١٣٧٣ شمسية.
- تفسير فتح القدير، للشوكاني، ط بيروت، دار الفكر، ودار الكتب العلمية ١٩٩٤م.
- تفسير القاسمي: المسمى محاسن التأويل، للشيخ جمال الدين القاسمي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط ثانية ط دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.
- تفسير القرآن العظيم: للإمام إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي، ط دار التراث بالقاهرة، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م.
- تفسير القرآن الكريم: للسيد عبدالله شبر، راجعه د حامد حنفي داود، ط الثالثة، ط دار إحياء التراث العربي ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

- تفسير القمي: منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات. لبنان، إشراف لجنة التحقيق والتصحيح في المؤسسة، ط أولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.
- تفسير نور الثقلين: للشيخ عبد علي جمعة العروسي الخويزي، صححه وعلق عليه السيد هاشم الرسولي المملاتي.
- التمهيد: للإمام يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، أبو عمر، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب ١٣٨٧هـ.
- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان: للشيخ إسماعيل حقي. اختصار وتحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، ط دار القلم، دمشق، ط ٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م.
- تهذيب الأسماء والصفات: للنووي، ط دار الكتب العلمية بيروت، وإدارة الطباعة المنيرية. مصر.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، ط دار المنار للنشر والتوزيع.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، ط دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م).
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، ط ١، ط دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، وطبع ابن حزم، لبنان، ط أولى، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).
- الجواهر الحسان في تفسير آي القرآن: للشيخ عبد الرحمن الثعالبي، حققه وخرج أحاديثه أبو محمد الغماري الإدريسي الحسني، ط دار الكتب العلمية لبنان ط ١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م).
- حديث الإفك، دروس وعبر: للدكتور عامر حسين السلامي، ط دار الإيمان، الإسكندرية، مصر ٢٠٠٥م.

- حديث الإفك: للشيخ أبو محمد عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور المقدسي، تحقيق، أبو أسامة سليم بن عيد الهلالي، ط ١١، طبع مطبعة غراس ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- الحصون المنيعه في براءة عائشة الصديقة باتفاق أهل السنة والشيعة: للشيخ محمد عارف بن أحمد بن سعيد المنير الحسيني الدمشقي، تحقيق السيد يوسف أحمد، منشورات دار الكتب العلمية، لبنان، ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور: للإمام جلال الدين السيوطي، ط أولى، ط دار الفكر، بيروت ١٩٨٣م. وطبع دار المعرفة لبنان.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للسيد محمود شكري
- الألوسي البغدادي، ط إدارة المطبعة المنيرية، ودار إحياء التراث العربي بيروت، ط ٤، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين: للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، ط ٢، ط دار ابن الجوزي السعودية ١٤٢٢هـ.
- زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، ط دار ابن حزم، لبنان ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، و ط ٤، ط المكتب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- زاد المعاد في هدي خير العباد: للحافظ أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن قيم الجوزية، تحقيق محمد حامد الفقي، ط القاهرة وطبع مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٧هـ.
- زوجات النبي ﷺ وآل البيت للشيخ محمد متولي الشعراوي، المكتبة التوفيقية، بمصر.

- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد والشريعة الإسلامية،  
للدكتور عبد الكريم زيدان.
- سنن ابن ماجه: لأبي عبد الله بن محمد بن يزيد القزويني، ط ابن  
حزم، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م.
- سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السجستاني،  
ط دار ابن حزم، ط ١٩، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م.
- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، تحقيق  
وشرح أحمد محمد شاكر، ط دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.
- السنن الكبرى، للبيهقي ط دار صادر، بيروت، مصورة عن الطبعة  
الأولى، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند سنة  
١٣٥٣هـ.
- سورة النور دراسة وتحليل: للدكتور إسماعيل علي السامرائي، ط دار  
عمار للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ١٤٢٣هـ / ٢٠٠٣م.
- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، ط مؤسسة الرسالة. لبنان.
- سيرة السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: للعلامة السيد  
سليمان الندوي، عربي وحققه محمد رحمة الله حافظ الندوي، ط دار  
القلم دمشق، ط ١، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م.
- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة: للدكتور محمد أبوشهبة.
- السيرة النبوية لابن هشام: لأبي محمد عبد الملك بن هشام المعافري،  
تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط ٢، ط  
مصطفى الحلبي، مصر ١٣٧٥هـ / ١٩٥٥م، وطبع دار المغني السعودية.
- شرح السنة: للبغوي، تحقيق، زهير الشاويش، وشعيب الأرنؤوط، طبعة  
أولى، بيروت، المكتب الإسلامي، د ت.

- شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، ط المكتب الإسلامي، بيروت، ومؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢.
- شرح النووي على صحيح مسلم: ط دار الكتب العلمية بيروت، وطبع بيت الأفكار الدولية، الأردن.
- الشورى: للدكتور حسن محمد عتر.
- الشورى في الإسلام تناصح وتعاون: للدكتور محمود محمد بابلي، طبع المكتب الإسلامي، بيروت ودمشق وعمان، ط ١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.
- صحيح ابن حبان: ط دار المعرفة لبنان ط ١، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
- صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، ط بيت الأفكار الدولية، ومعه فتح الباري شرح صحيح البخاري.
- صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، طبع بيت الأفكار الدولية، ومعه المنهاج شرح النووي على صحيح مسلم.
- صفوة التفاسير: للشيخ محمد علي الصابوني، ط ٤، ١٤٠٢هـ/١٩٨١م، ط دار القرآن الكريم بيروت.
- صفة الصفوة: للإمام أبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق محمود فاخوري، ط دار المعرفة لبنان ط ٣، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.
- الطبقات الكبرى: لابن سعد، وهو محمد ابن سعد البصري البغدادي الزهري، طبع مكتبة الخانجي القاهرة، و ط دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.
- العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط: للدكتور سليمان بن سالم بن رجاء السحيمي، ط ١، (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠) الناشر مكتبة الإمام البخاري. المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للإمام أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ط بيت الأفكار الدولية الأردن.
- فتح البيان في مقاصد القرآن: صديق حسن خان د ت.
- فقه نساء النبي صلي الله عليه وسلم مواقف وقضايا: تأليف سعيد هرون عاشور.
- في رحاب التفسير: للشيخ عبد الحميد كشك.
- في ظلال القرآن: للأستاذ سيد قطب، ط ٧، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ط دار الشروق، لبنان والقاهرة.
- القاموس المحيط: للعلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط ٧، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ط مؤسسة الرسالة لبنان.
- الكشف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل في وجوه التأويل: لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، ط دار المعرفة بيروت لبنان، ط أولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠١م.
- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال: للعلامة علاء الدين علي المتقي الهندي، تحقيق الشيخ صفوت السقا وآخرين، ط مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمي، ط دار الفكر، بيروت، وطبع دار الريان للتراث، القاهرة، ١٤٠٧هـ.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي، ط دار ابن حزم، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، لبنان.
- المحلى: لابن حزم ط دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- المسند: للإمام أحمد بن حنبل، ط بيت الأفكار الدولية، الأردن، وطبع مؤسسة الرسالة، بيروت، وطبع دار الفكر، بيروت، ودار المعارف مصر.
- المصنف: لابن أبي شيبة، ط الدار السلفية، الهند، وطبع مكتبة الرشد، الرياض.

- المعجم الكبير: للطبراني ط وزارة الأوقاف العراقية.
- المعجم الوسيط: الصادر عن مجمع اللغة العربية، الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث، مصر، ط المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، إستانبول، تركيا.
- مفاتيح الغيب: أوالتفسير الكبير: للإمام فخر الدين الرازي، ط إحياء التراث، بيروت.
- مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط ٢، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ط دار القلم، دمشق، والدار الشامية بيروت.
- نساء حول الرسول.
- النهاية في غريب الحديث والأثر: لأبي السعادات ابن الأثير، طبع المكتبة الإسلامية مصر.
- هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابه في القرآن والسنة: للدكتور أحمد عبد الغني محمد النجولي الجمل ط ١، ط دار الوفاء المنصورة مصر، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.





## القارئ الكريم

ستظل شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة مصدر الإلهام ومنبع الخير ومنار الهدى للمسلمين خاصة وللإنسانية عامة، وسنظل دائماً في حاجة ماسة إلى دراسة جوانب شخصيته الكريمة، ووقائع حياته الطاهرة نلتمس منها الأسوة الحسنة؛ فهو صلى الله عليه وسلم الرحمة المهداة للكون كله، قال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وقد عرضنا لقرائنا الكرام في الأجزاء الثلاثة السابقة جانباً كبيراً من المفاهيم التربوية المستخلصة من الحياة الأسرية للأنبياء الكرام عليهم السلام.

وقد خصصنا هذا الجزء الرابع والأخير من هذه السلسلة المباركة للحديث عن أسرة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولما كانت حياته الأسرية صلى الله عليه وآله وسلم زاخرة بالموافق والمفاهيم التربوية والتي تحتاج إلى مجلدات؛ فقد رأينا الاقتصار على جانب من حياته صلى الله عليه وسلم في هذا الإصدار من خلال ثلاث سور في القرآن الكريم: ﴿الأحزاب - النور - التحريم﴾ ولم نستطع إلا حاطة بجميع الجوانب التربوية في حياته التي وردت في القرآن الكريم فضلاً عن الحشد الهائل من الجوانب التربوية في الأحاديث النبوية الشريفة.

لذا نقترح على الباحثين الآخرين أن يكملوا المسيرة في استخلاص المفاهيم التربوية من حياته صلى الله عليه وآله وسلم سواء في سور وآيات أخرى من القرآن الكريم، أو من خلال أقواله وأفعاله وتقريراته عليه السلام.

إن اللجنة التربوية في اللجنة الاستشارية تهدف من خلال هذا العمل المبارك أن تضع أمام القارئ الكريم جانباً من النماذج والمفاهيم التربوية المستخلصة من الحياة الأسرية لخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم؛ ليتم تفعيلها في حياتنا والاستفادة منها بما يحقق للفرد سعادته ونجاحه، وللأمة رقيها ونهضتها.

